

" الرواية الحائزة على جائزة كريسنك السلوفينية "



يوغوسلافيا.. أرض أبي

جوران فوينوفيتش

ترجمة: شرقاوي حافظ



روايات مترجمة



يوغوسلافيا.. أرض أبي

يوغوسلافيا.. أرض أبي
تأليف: جوران فوينوفيتش

ترجمة: شرقاوي حافظ
تحرير: إيزيس عاشور
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: سبتمبر 2019
رقم الإيداع: 2019/9889
الترقيم الدولي: 9789773194987

تصميم الغلاف: د. جورج لطيف

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



Originally published in Slovene as *Jugoslavija, moja Dežela* by Beletrina Academic Press.

© Beletrina Academic Press, 2012

www.beletrina.com

© Goran Vojnović, 2011

The right of Goran Vojnović to be identified as the author of the work has been asserted in accordance with the copyright, design and patents Act, 1988.

جوران فوينوفيتش

يوغوسلافيا.. أرض أبي

رواية من سلوفينيا

ترجمة: شرقاوي حافظ





منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

بطاقة فهرسة

فوينوفيتش، جوران

يوغوسلافيا.. أرض أبي / تأليف جوران فوينوفيتش؛ ترجمة شرقاوي حافظ.
- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773194987

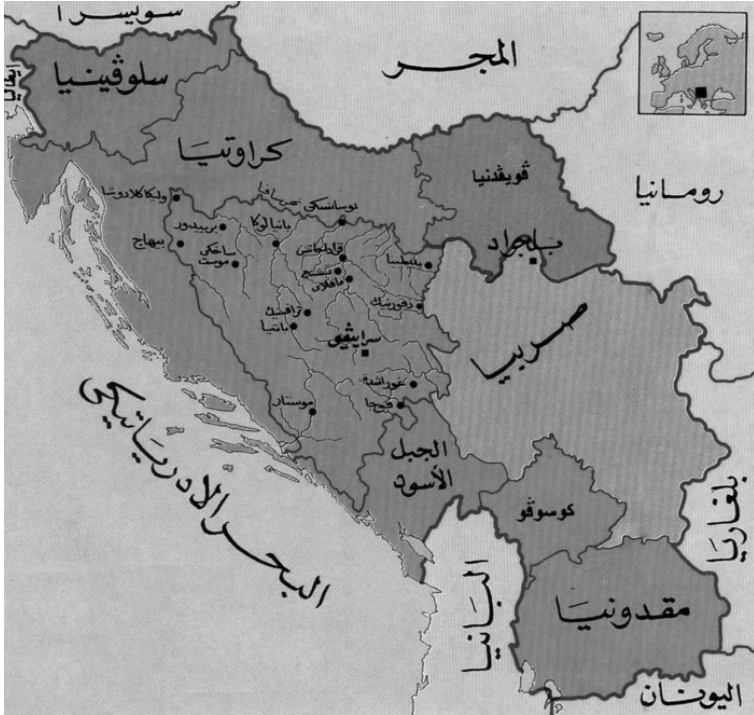
1- القصص السلوفينية

أ- حافظ، شرقاوي (مترجم)

ب- العنوان

891,843

إلى "باربرا"



خريطة يوغوسلافيا السابقة

مقدمة المؤلف للقارئ العربي

منذ بضع سنوات، نظمت صديقة لي من سيريلانكا ندوة لمناقشة روايتي "يوغوسلافيا.. أرض أبي"، وذلك في منزلها في كولمبو. كانت الندوة من أكثر الندوات المثيرة التي عقدت لمناقشة روايتي. فالناس الذين لم يعرفوا شيئاً عن حروب يوغوسلافيا أو الذين يعرفون منها شذرات تحدثوا معي فوراً عن تجاربهم في الحروب الأهلية. ومن المثير للدهشة أنني أدركت أن روايتي يمكن قراءتها وفهمها بأكثر من طريقة، وأنني - دون تعمد - لم أكتب فقط عن يوغوسلافيا، بل عن أماكن كثيرة سيئة الحظ.

في تلك الأمسية في كولمبو، استوعب الجمهور جيداً ما أرمي إليه عندما تحدثت عن العنف المفاجئ بسبب العرقية. كانوا على وعي تام بكيفية تحول الجيران والأصدقاء الذين دامت علاقاتهم لسنين طويلة إلى أعداء ألداء ما بين عشية وضحاها. ومن جهة أخرى، تفهمت تماماً حديثهم عن الصمت المفروض ذاتياً الذي ساد بلادهم بعد الحرب، وعن عدم رغبة الجميع وعجزهم عن مواجهة الأعمال الوحشية التي ارتكبتها جميع الأطراف المتناحرة. بانتهاء الأمسية لم نكن نتحدث عن الأسرار المظلمة الخاصة بيوغوسلافيا أو سيريلانكا فحسب، بل عن الأسرار المظلمة التي تعم الجنس البشري بأكمله. وتجاوز نقاشنا التفاصيل المحلية، التي اعتقدت حتى ذلك الحين أنها مفتاح فهم كتابي. لقد وصلنا إلى نقطة وجدنا فيها أنفسنا نتحدث عن تجربتنا المشتركة في الحرب.

مرة أخرى، أيقنت أن جماليات الأدب ما هي إلا حقيقة. فإننا قادرون على معرفة أنفسنا في الآخر، أيًا كان هذا الآخر فإنه بإمكاننا أن نعرف الكثير عن عالمنا من خلال قصص بعيدة في الزمان والمكان. ولقد اكتشفت مرة أخرى أن الأدب لا شيء فيه غريب، حيث لغة الأدب هي لغة التفاهم.

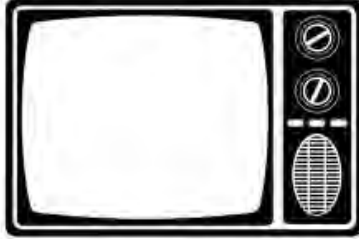
لقد أمضيت في ديسمبر 2010 أسبوعًا في القاهرة حيث كان العرض الأول لفيلم الروائي الأول في مهرجان القاهرة السينمائي. وكنت في وقت سابق في ذلك العام نفسه قد قمت برحلة عبر الأردن وسوريا. ظللت لسنوات عدة تالية أرجع لهاتين الرحلتين، أقلب في ذاكرتي صورًا ما لبثت أن انتشرت عبر شاشات تليفزيوننا وعلى أغلفة صحفنا.

مثلما كنت في طفولتي ومثل "فلادان"، الشخصية الرئيسية في الرواية، حاولت جاهدًا أن أفهم كيف يتحول العالم فجأة إلى شعلة نار مدمرة، أو يتبدد كما هو الحال في سوريا. عدت بمخيلتي إلى حمص، حلب، وحماة، كما عدت إلى ميدان التحرير أبحث عن أدنى أثر لهذه التشققات. فلم أجد شيئًا مهما كان تخيلك. مجرد بعض الغضب من سائقي التاكسي في اللاذقية، الذين طعن بعضهم بعضًا من أجل حفنة من اليوروهات؛ وبعض الاكتئاب لدى الناس في فندق دمشق رخيص الذين ملؤوا بهو الفندق كالدخان الكثيف؛ وبعض اليأس من عمال فلسطينيين بمحطة باص، وهم ينتظرون دخول النهار في الليل. كما أنني وجدت بعض الفوضى الباعثة على التوتر بفضاعة في حفل عشاء مهرجان القاهرة، والوهج الذي ينحسر عن عيني "عمر الشريف" المتعبتين. ولكن كما حدث في يوغوسلافيا منذ ثلاثين عامًا، كانت هذه التشققات مخبأة بشكل واضح في انتظار أي شخص لا يعرف عما يبحث.

لقد تعلمت في أيام حياتي الأولى أن العالم يمكنه أن ينزع إلى الاختفاء. وتعلمت أيضًا أن اختفاء العالم هو اختفاء الجنس البشري. وبغض النظر عن أين وكيف يتم هذا الاختفاء، فإن العواقب متشابهة جدًا، وحشية ومدمرة. هذا هو سبب شعوري بالارتباط الغريب بين الأماكن والشعوب التي عانت من نوع ما من اختفاء العالم، الذين يعانون عواقب هذا الاختفاء. وهو السبب الذي جعلني أشعر بأننا نعيش القصة نفسها. قصة المأساة العميقة، القصة التي في حاجة بشكل حزين إلى سردها مرة بعد المرة. وهذا أيضًا هو السبب في اعتقادي بأن القارئ العربي سيجد يأسره وإحساسه بالوحدة وشعوره ببث الشكوى مبعثرًا على صفحات روايتي، مثلما كنت أجد حزني في روايات الروّاد من الكُتّاب العرب. وكما قلت؛ لا شيء غريب في الأدب، فلغة الأدب هي لغة التفاهم.

جوران فوينوفيتش

صيف 2019



لا بُدَّ أنه كان يومًا عاديًّا من أيَّام الصيف الأولى لعام 1991، عندما انتهت فجأة أيَّام طفولتي. كان يومًا خانقًا ومُنذرًا بالمطر، وكان الكبار يقولون منذ الصباح الباكر إنها ستمطر بعد الظُّهر، بينما الأطفال يتساءلون: لماذا الناس يتمنُّون المطر في عزِّ موسم السباحة الأساسي، ما داموا لا يزرعون في حدائقهم الطماطم والكوسة؟ كان الوقت الذي نعيش فيه مختلفًا تمامًا عن زمن آبائنا. كان معظمنا يرى الكبار كأنهم كائنات من كوكب آخر، لا يلفتون الانتباه إلا إذا كانوا يفتقدون ذراعًا، أو ساقًا، أو لديهم لِحى طويلة حتى أحمص أقدامهم، أو يرتدون ملابس كالهنود الحمر، أو على ظهورهم وشم، أو عضلاتهم بارزة مثل "رامبو"، في جميع أجزائه.

انطلقنا في ذلك الصباح الحارِّ لنرى واحدًا من هؤلاء الكبار النادرين المثيرين للاهتمام. لم يصدق "ماريو" ولا "سينيشا" أنني لم أرَ بعد الشاب صاحب الورم الأحمر في وجهه. والورم، وفقًا للكلام البعض، مجرد ورم كبير في المخ، بينما يعتقد الآخرون أنه مرض جديد - جرَّت مناقشته في التلفزيون في الآونة الأخيرة - يُسمَّى مرض الثَّهَام، أو البوليميا، وهو

مرض اضطراب في تناول الطعام، أو الشراهة المرضية. وهو - كما يدّعي "سينيشا" - يحول رأس الإنسان إلى ورم أحمر كبير. زعم "ماريو" أن كل الناس قد رؤوا ذلك الشاب صاحب الورم الأحمر ما عدا أنا، في الوقت الذي استرجع فيه "سينيشا" المغامرة بعد الأخرى التي كان بطلها الشاب صاحب الورم الأحمر. وطبقًا لأكبر ثرثار في مدينة "باولا"، أن سائحة ألمانية ألقّت نظرة واحدة على الشاب صاحب الورم الأحمر فرجعت إلى الخلف، وسارت بظهرها قرابة الميل حتى وصلت إلى فندقها، وأن أسرة إيطالية أبلغت عنه البوليس والسفارة الإيطالية في بلجراد. قال "ماريو" و"سينيشا" إنه يجب عليّ أن أرى الشاب صاحب الورم الأحمر، فكم مرّة سأرى شابًا له رأس نصفه عادي، والنصف الآخر منفوخ ككرة السلة، وأحمر كلون البطيخ؟ لم يمرّ وقت طويل حتى أقنعاني، وعلى الفور سرنا معًا لما بعد المحل، واتجهنا نحو سكن العمّال.

كان السكن عبارة عن مبنى مستطيل الشكل أبيض وكئيب؛ يسكن فيه الشاب صاحب الورم الأحمر مع العمّال الذين يجلسون - بعد يوم شاق من العمل في ترسانة السُّفن - في هدوء في المدخل، يشربون البيرة، ويتحدّثون عن حال البوسنة. وعلى الرغم من أنهم يسكنون على مقربة من العمارة التي نسكن فيها، فإنهم يعيشون في عالمهم الخاص غير المرئي تقريبًا. فقط مع بعضهم بعضًا يصبحون إخوة، ويجتمعون عند المساء في صالة المبنى العمومية في الطابق الأول من السكن، ليشاهدوا الأخبار أو مباراة كرة قدم على الهواء، أو بعض المسلسلات على التلفزيون الرسمي.

في الطريق، كان صديقي - اللذان لديهما معرفة بالأمر - يشرحان لي أن الشاب صاحب الورم الأحمر يسترخي طوال اليوم أمام جهاز

التلفزيون ويشاهد في قناة "زغرب" بلا حراك؛ جميع المسلسلات العائلية والأفلام الوثائقية التي تم اختيارها معرفة رئيس التلفزيون الكرواتي. أخبرني "سينيشا" أن هناك شائعة تقول إن زملاء الشاب صاحب الورم في الغرفة جمعوا نقودًا واشتروا جهاز تلفزيون صغيرًا ووضعوه له في الغرفة، ولكنه استمر في تردده على الصالة العمومية، على الرغم من أنه لا يتكلم مع أحد على الإطلاق. وأضاف "ماريو" أن "فاها"، عامل اللحام، أخذ ذات مرة يغير قناة التلفزيون كل عشر دقائق، ولكن الشاب صاحب الورم الأحمر لم يتأثر إطلاقًا، لأنه لا يُلقي بالآلما يشاهده مُطلقًا.

أثناء استماعي لهذه القصص كنت قد اقتربت من مدخل سكن العمّال متوقعًا الكثير، تقريبًا مثلما كانت حالي حينما ذهبنا في ليلة العرض الأول للسيرك بجوار إستاد نادي "إسترا" لكرة القدم؛ لكي نشاهد تدريبات لاعبي السيرك سرًا. وما إن خرجنا من وسط الحشائش الطويلة، ونجحنا في إلقاء نظرة سريعة، حتى أفزعتنا صرخات فتاة عجرية سوداء، فهرولنا نتخبّط مذعورين من ذلك الكائن الصغير.

في ذلك اليوم بدا سكن العمّال مختلفًا تمامًا عمّا توقّعتة. فبدلًا من أن نجد الشاب صاحب الورم الأحمر وحده، وجدنا صالة التلفزيون العمومية الصغيرة مُزدحمة. الكل يُحدّق في شاشة التلفزيون، حيث تُذاع الأخبار. كان الجو العام شبيهًا بالعام الماضي، عندما هلّل الرجال فجأة بعد الهدف الثاني لـ"بيكسي" في مباراة رُبع النهائي بين يوغوسلافيا وإسبانيا في كأس العالم بإيطاليا. في ذلك الوقت، لم يستطع سوى البوليس أن يستعيد النظام، وانتهى الأمر بـ"رامو" في الطوارئ، إذ إنه أُصيب بصدمة كهربية حينما حاول تقبيل التلفزيون بفمه.

بعد اثني عشر شهرًا، كُنَّا أنا و"سينيشا" و"ماريو" نبحث عن "الرجل صاحب الورم البطيخي" بين جمع من المُشجَّعين يهتفون أمام التلفزيون وقت أخبار الظهيرة. واندھشنا لمَّا رأينا عددًا صغيرًا من المجتمعين يشجع جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الاشتراكية. كان يمكن للمرء أن يعرف من بعيد أن المجموعة يقودها "ميلو لولا ريبار"، الذي يستطيع أن يشرب صندوقًا من البيرة بمفرده، وكان يصيح بصوت مرتفع "ملعون يا يوغوسلافيا"، لأنها خسرت في العام الماضي أمام الأرجنتينيين الكارهين للصرب، ولم يعد الآن مُهتمًا بالرياضة تمامًا. وكان يقف بجانبه وبجوار التلفزيون "ميرسو" الصغير، عمره ستة عشر عامًا، ولكن وجهه رجولي كوجه جندي، وله السلوك نفسه، وكان يُحذِّر الحاضرين، في لهجة حادَّة، من أن احتفالات "15 أغسطس"، وحمَّامات الشمس، والألعاب النارية الخاصة بها قد تم إيقافها في المنطقة، ولكنه لم يذكر السبب. اجتمع عدد كبير من المتابعين الجُدُّد في صالة المبنى، وأصواتهم العادية غير مُعبرة، ولكنها تشكل حائطًا مُبهمًا، على الرغم من أن وجوههم المُحمَّرة تنبئ بأنهم يفعلون أقصى ما في وسعهم.

كان "سيرا" أشهر عامل تشغيل سينما في "باولا"، يقف عند المدخل، حيث كان الزحام شديدًا، فأنحشرنا وكأنا في عُنق زجاجة. يجعلنا ندخل سينما بلجراد مجَّانًا، بدعوى أننا أصدقاءه الصَّغار. كانت السينما في ذلك الوقت خاوية، وكما يعرف الجميع في "باولا"، يبدأ "سيرا" بعد الساعة الثامنة في خلط بَكَر الأفلام. يبدأ تشغيل بعض الأفلام من المنتصف، أو من النهاية، أو حتى أحيانًا يُديرها بالعكس. باستثناء عشقه للـ"براندي

الأسيري"، كان أطيّب إنسان عرفته في حياتي. بعدما اكتشف أننا لم نفهم أي شيء مما تقوله الأخبار عن ذلك "اليوم المشؤوم"، استدار نحونا وقال:
- لو لم تعجبهم يوغوسلافيا، على السلوفينيين أن يشربوا من البحر في
لوكسمبورج.

يبدو أن "سيرا" خلط البكر مبكراً عن المعتاد في ذلك اليوم، لذا واصلنا المشاهدة، مندهشين من أن الأخبار شدّت انتباه الحشد الذي أمامنا. كُنّا نؤمن جميعاً بأن أي شيء يُعرض، حتى لو كان "جدول برامج التلفزيون"، سيكون أكثر إثارة للاهتمام من أخبار المساء هذه، على الرغم من أننا لا نفهم كلمة مما يُقال. اقترح "سينيشا" و"ماريو" أن نتخذ طريقنا نحو مبنى السكن، ولكنني كنت لم أزل أفكر في أننا سنجد الشاب صاحب الورم الأحمر، فاندفعت أفئّش بين الجماهير المتحمّسة للتلفزيون. فبدلاً من أرى الشاب صاحب الورم الأحمر، لم أر من خلال الجدار الزجاجي في الجانب الآخر للصالة غير أبي سائراً ببُطء تجاه البيت.

في طريقه عائداً من العمل إلى البيت، هُزّ على سكن العمّال، حيث يتوقّف لكي يشرب كوباً أو اثنين من البيرة، ويسمع أخبار اليوم والتعليق عليها، غالباً ما يفعل ذلك بصحبته المفضّلة، "ميرسو" الصغير. لكن في ذلك اليوم، حينما اعتلى "ميرسو" كرسياً أمام التلفزيون، مخاطباً الحشد، صارخاً: "اقترب الوقت الذي سيتعلّم فيه حتى الحمقى درساً أو اثنين"، ابتعد أبي وهو مُستغرق في التفكير، كأنما قد نسي ما يحدث على بُعد أمتار منه.

حاولت أن أشقّ طريقي بين الزحام وألحق به أمام المدخل، في الجانب الآخر من المبنى، لكن سرعان ما أدركت أن التدافع بين الأيدي الملوّحة

سينتهي بي بضربة شديدة على ظهري أو رأسي. لذا تراجعتم مسرعاً وقررت أن أقابل أبي عند المحل. أستطيع القول إنه كان يجرُّ قدميه ببُطء أكثر من المعتاد، ولذلك فلن يسبقني. نظرته غير مُعبرة، كالرجل الأعمى، وقفت بجوار المحل وترقبتّه حتى يجيء. أحسستُ بأنه سيمرُّ عليّ مثلما مرَّ على الزحام أمام سكن العمّال. كانت العمّة "إنيسا" قد قالت: "إنه يمرُّ دون أن يلقي نظرة خاطفة". لكنه أخيراً توقف، واحتضنني بشدّة؛ حتى إنه كاد يُطبق على ضلوعي، فتحسستُ من تحت زيّه عضلاته البارزة إثر الخدمة العسكرية، والتي كان يتباهى بها فيظهرها كلما نزل الشاطئ الصّحل في الإجازات. لكم كُنّا أنا وأمّي نغيظه بسببها، فيلهينا بالحديث عن اختلاف درجات الحرارة بين الماء والهواء، ولماذا من الخطأ الغطس في مياه البحر العميقة. لم يكن أبي يشرب مُطلقاً أثناء العمل، وسمعتّه أكثر من مرّة يقول: "في يوغوسلافيا فقط، يشرب الشعب أثناء العمل أكثر مما بعد العمل، مما يُذهب بالبلاد إلى الحضيض". لكن في ذلك اليوم احتضنني بذراعيه القويتين لدرجة أنني ظننته ثملاً فعلاً.

تركني، وعاد بعد لحظة ليمسك بي من ذراعي، وجذبني نحوه، وأخذ يُحدّق فيّ بنظرات غريبة في عينيه. بعد فترة، أحسستُ أنها نظرات طويلة جداً، واعتقدت أنه نسي ما يريد، سألني إذا كنت أحب أن أذهب معه إلى المحل لكي نشترى لعبة "هيمن".

لا يعني هذا الاقتراح إلا شيئاً واحداً، شيئاً غير طبيعي بشكل مُرعب. فالشخصيات الكارتونية المُجسّمة من أفضل ألعابى على الإطلاق، ولكن أمّي وضعت القواعد الصارمة تجاه ذلك وقالت إنني لا يمكنني أن أحصل على المزيد، فيكفي أنني اقتنيت ثلاث شخصيات من السلسلة - "هيمن"،

و"سكيلتور"، و"تيلو" - وهذا، على حد قولها، كثير بما فيه الكفاية. كما كانت ترى أن هذه اللعب باهظة الثمن، وأني يجب ألا أَلعب بها، فعمري تجاوز هذه النوعية من اللعب. قالت أيضًا إنني حصلت عليها لأنني كنت مُدَلَّلًا. وعندما قالت هذه الجملة، نظرت إلى أبي نظرة لها مغزى، ولكن أبي كالعادة كان يتظاهر بأنه لا يدري عمًا تتحدَّث.



سرنا نحو المحل في صمت. لم يتوقَّف أبي كعادته كل عدَّة أمتار ليُلقي التحية على شخص ما، أو ينطلق ليُشرب كأسًا سريعًا مع "فلاتكو"، و"ماتي"، مما يضطريني إلى حمل شنطة المشتريات والذهاب إلى المنزل بمفردي. مثل هذه الأحداث كانت تنتهي به حتمًا أن يعود مُتَرَنِّحًا إلى البيت، مُعْطِيًا أُمِّي حُضْنًا يفوح منه الخمر، ورقصة تجعلها تسرع بعيدًا عنه، وتشعر بالاستياء، فيحتضنها مرَّةً أخرى، ويَعِدُّها بأنه لن يخطف أي كأس في طريق عودته في الشهر القادم. لكن في تلك الليلة، كان أبي يتجوَّل في "باولا"، وهو مُطَاطئ الرأس، لا يُومئ لأحد من معارفه مُطلقًا. وزاد من دهشتي أنه لم يفكر حتى في التوقُّف عند حديقة "نيقولا تيلسا"، حيث يوجد بيت صغير مكتوب على جداره جرافيتي:

"جمهورية لكوسوفو، وقارة لإستريا"

حيث تجمع عنده مجموعة من الشباب الحُفَاة الذين أخذ عددهم يتزايد في كل وقت. أطلقتُ أنا وأبي على هؤلاء الصبية اسم "العُجْر الصَّغار" لأن كثيرًا منهم كان يسبح كل يوم في آخر رصيف الميناء وهم يرتدون فقط التيشيرت. بالضبط كما يفعل "ميلان" ابن "جوفان"، شاب نحيف جدًّا،

يلبس قميصًا في المياه، حسب ما تقول أُمِّي، لكي يُخبئ قفصه الصدري البارز عن الفتيات.

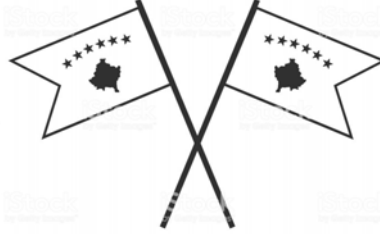
لم أكتشف مُطلقًا ماذا يُخبئ العُجْر الصَّغار تحت قمصانهم، وللأمانة لم أكن مُهتمًا بذلك. وعلى الجانب الآخر، يعشقهم أبي نوعًا ما، ودائمًا ما يقول إنه كان واحدًا منهم، وخصوصًا عندما يشرب براندي "ستانزيك بلوم" المُقَصَّل لديه. كان يشرح بكل جِدِّيَّة أنه وهو صغير نسيه أبواه العُجْرِيان اللذان يعملان في السيرك. غادرا ومعهما أكثر من ثمانية عشر صبيًّا عُجْرِيًّا، من مدينة "فوتوج" في مقاطعة "فوفودينا". في ظل تلك الظروف، تبنَّاه رجل صربي لطيف، وسيدة مجرية ألطف، ولسوء الحظ ماتا في وقتٍ مبكر، وتركاه مع جيش يوغوسلافيا الشعبي وهو ما زال صبيًّا صغيرًا. اعتاد الناس أن يستمعوا لأبي البشوش، لكنهم لم يعرفوا على الإطلاق أيحزنون عليه أم يحسدونه على حياته المليئة بالقصص.

بصرف النظر عمَّا إذا كان لاعبو السيرك نسوا أبي فعلاً، أم أنه اخترع هذه القصة لكي يجمل طفولة يتيم بائس قام بتربيته ضباط وجنود. فالحقيقة التي لا جدال فيها أنني شعرت بالفخر لأنني امتلكت مجموعة من الألعاب المُجَسَّمة التي باعها لي العُجْرِي "ماكي" بمهارة. اعتاد أبي أن يساومه في السعر حتى النهاية، أحيانًا يصل الوقت لنصف ساعة لكي يخفض السعر من ثمانية دنانير إلى أربعة. عندئذٍ فقط، عندما يستسلم "ماكي" ويُغمغم بأن الدنانير الأربعة سرقة علانية، سرقة من أفواه الناس الطيبين الذين هربوا له اللُّعب، عندئذٍ يضع أبي ورقة بعشرة دنانير في يد "ماكي"، ويربت على ظهره، ويقول إنه لم يرَ عُجْرِيًّا بهذا الصدق في حياته.

لكن لم يكن هناك فصال في ذلك اليوم. يضع أبي النقود في يد "ماكي" دون أن ينطق بكلمة. قبل أن أنتهز الفرصة وألقي نظرة على الأرفف المليئة بالبضاعة الرخيصة الملوّنة، اختفى أبي وسط الزحام في سوق "باولا". للمرّة الأولى، أشعر بالقلق على أبي، فاندفعت بين المتسوّقين، في حالة دُعر تقريبًا. تخيلت أبي يستغرق في التفكير ويخطو في الطريق دون أن يلتفت إلى جانبيه، فيصدمه سائح إيطالي معتوه، أو سائق مخمور على "فسبا". أخذت أجري متوتّرًا، واللّعب البلاستيكية في يدي، ارتطمت بالسيدات في فساتيهن المنقوشة أثناء هرولتي في السوق. لم أجد أبي في أي مكان. خطر في بالي أنه نسي أننا جننا معًا فتوجّه إلى البيت للغداء، حتى رأيته أخيرًا واقفًا عند مدخل محل كبير، ويبدو عليه الارتباك. كنت على وشك أن أجري إليه عندما وضع شخص ما يده على كتفي وأفزعني. استدرت فإذا به "ماكي" ينظر إليّ بعينيه السوداوين الكبيرتين بقلق:

- أبوك العجوز يبدو غريبًا جدًّا اليوم، ألم يُنصره أحد أيضًا؟
لم أسمع بكلمة "يُنصره" من قبل، ولا أعرف معناها. كنت في الحادية عشرة وقتها، وكل حلمي أن نستعير قارب والد "ماريو"، ونبحر نحن الثلاثة إلى أقرب جزيرة.





"جمهورية لكوسوفو، قارة لإستريا"

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن كيف ظهر في "باولا" هذا الجرافيتي الذي اختفى من زمن طويل، ولكن بعد ستة عشر عامًا اتّضح كما لو أن الحروف تتسابق مع دقّات قلبي. بدأت الصور والوجوه والأماكن التي دفنتها جيّدًا في اللا وعي تومض أمام عيني، مثلما تومض فيديوهات قناة الـ"MTV". وراحت حياتي السابقة تمرُّ أمامي كالهلوسة، وشعرت بأنني في أرجوحة تلعّف في جنون لتقذف بي في عالم كنت قد اقتنعت بأنني تخلّصت منه. انطلق بداخلي اللا شعور المضطرب القلق، فاستسلمت له دون إرادة. راحت الحروف السوداء الضخمة المرشوشة على الجدران البيضاء في "باولا" تومض وتلمع أكثر، كأنها توشك أن تنفجر بالجدار الذي كتبت عليه:

جمهورية لكوسوفو، قارة لإستريا.

جلست في سيارتي المُتهالكة البالغ عمرها عشرين عامًا في جراج بجوار مصنع ضخّم مُؤوّن في وسط "ليوبليانا". كان يجب أن أتوجّه إلى "إنيس"، الميكانيكي المُفضّل لي؛ لكي يضع ذلك البوسني المحترف لمساته في السيارة لأستطيع أن أقطع بها أول رحلة طويلة لها منذ سنوات. ولكن بدلًا من ذلك جلست أُحدّق في حائط الجراج، حيث تصارعت خيالاتي. حاولت أن أضع رجلي اليسرى في السيارة وأدوس على مغير السرعات الياباني الناعم، وكأن رجلي لإنسان آخر، ظلّت على أرض الجراج الصلبة، غير مكترثة بما هو أهم؛ وهو أن ساعات عمل "إنيس" المُعتادة قاربت على الانتهاء. للحظة شعرت بأنني غير قادر على التخلص من تيبّس جسمي وتفكيرِي. فلم أستطع تذكر آخر مرّة فكّرت فيها في "باولا"، وطفولتي في عمارات الضباط البيضاء قبل صيف عام 1991. لقد دفنتها كلها في يوم ما، دون أن أتعب نفسي بوضع شاهد، بلا كفن، وبلا شموع، ودون حتى كلمة رثاء، أو موكب جنازي. لقد دفنتها كلها ورحلت بعيدًا دون أن ألتفت للوراء مقتنعًا بأن هذا العالم المنسي لن يخرج من مقبرته أبدًا ويلاحقني.

ظللتُ أكثر من عشرين دقيقة بلا حراك، حاولت دون نجاح أن أعود إلى تلك الحالة من الشرود الذهني، إلى تلك اللامبالاة المحببة إليّ، التي حمتني سنينَ طويلة من آليات الحصار العاطفي، لكنني لم أقدر على الحركة ولو سنتيمترًا واحدًا. أبي - الذي كان لوقت قريب مُتوقّف بالنسبة لي - هاجمني الآن، وذلك بعد ستة عشر عامًا من وفاته المزعومة. بعنف أبدي لدرجة أنني أحسستُ بدنيًا بأن الرُعب الذي ينمو بداخلي سَمّر قدمي في الأرض. تدفّق كل شيء من الماضي؛ "باولا" وكتاباتهما الجرافيتية، وفندق "بريستول" في بلجراد، والرطوبة التي لا تُطاق في مدينة "نوفي ساد".

عادت أيضًا صورة مدينة "ليوبليانا" القديمة، وصورة أُمِّي، عندما كانت أُمِّي فعلاً. تزاممت الذكريات في رأسي ووصلت إلى ذروتها، وأوشكت أن تبدأ الألعاب النارية البارعة. أخذت ألهث ولم أقدر على التنفس، شعرت بأنني سأصاب بإغماء مؤكد.

عند هذه اللحظة، بدت لي الكذبة البيضاء البريئة التي نسجتها لرئيسي باحتياجي إلى أسبوع إجازة مرضية تتحول إلى حقيقة غير مرغوب فيها. والآن من المؤكد أن ماكينة القهوة في العمل تفتقد يدي المفترض أنها مصابة.

لقد بذلت قصارى جهدي لكي أتذكّر الـ"سي دي" الذي طلبت مِنِّي "نادية" أن أحضره من السيارة. نظرت إلى ركن في الجراج، ولكي ألهي نفسي حاولت أن أتذكّر ما الأشياء المُخبّأة في الكرتونة المُهترئة المُكوّمة هناك. مَنْ وضعها هناك أولاً؟ وكيف جعلوا ركن الجراج مقلب زباله؟ بدأت تشغيل السيارة، لكنها لم تعمل في البداية، هذا الهيكل القديم، ثم أخيراً دارت بعد أول محاولة طويلة، إنني ممنون لذلك. دون تفكير، ضغطت على دَوّاسة البنزين، ورجعت إلى الخلف. عند هذه اللحظة، سمعت صوت احتكاك عالٍ. رأيت باب السيارة المفتوح يحكُّ في حائط الجراج، وقبل أن يرتطم باب السيارة بباب الجراج وتتحطّم شبابيك السيارة، شددت فرملة اليد، وأطفأت المُحرّك.



- متى ستغادر؟

- لا أدري.

- متى ستحتاج إلى السيارة؟

- بأسرع ما يمكن. غداً، لو أمكن هذا.

- وأين ستذهب؟

- حتى هذه اللحظة لا أعرف.

- استمع لنفسك. إنك لا تعرف حتى هذه اللحظة. تبدو مثل ابن عمِّي؛

فهو يعرف أنه سيلتقي امرأة في يوم ما؛ لأنه زير نساء، ولكن لا يدري أي امرأة

تلك سعيدة الحظ.

من عادة "إنيس" أنه يحدث صخباً قبل أن يأخذ مِئِي المفاتيح، ثم يُتمتم

بأنه سيُتصل عندما تكون السيارة مُؤَهَّلة جيِّداً للحركة. أخيراً أصبح أُسطى، بعد

سنين من العمل لدى مَعَاتِيه آخرين مثله، والآن صار يستمتع بتهووية

الصمامات والعوادم بنفسه، إذا صحَّ التعبير. اسم ورشته شبه الشرعية "دينو"

على اسم ابنه الأول، وتقع بجوار السكك الحديدية، أمام إستاد "ليوبليانا"

القديم. "إنه مكان مدفون حتى إن الألبان لا يبيعون أي سلعة هناك". أخذ

يصف ذات مرّة منطقته الجاذبة لكل إنسان بئس مُرٌّ من هناك. والآن هو

البئس المعني. بعد وقت مر كأنه قرون، فتح "إنيس" غطاء السيارة، وبدأ

يفحصها.

- مَن غيَّر المروحة؟

- "نادية" هي التي قادتها.

- لماذا لم تحضرها لي؟

- السيارة توقَّفت في منتصف الطريق.

- وإلى أين ذهبت بها؟

- "دولجي موست".

- "دولجي موست"! وكم كلَّفها البلطجية في هذه المنطقة؟

- لا أتذكّر.

- حسناً، حسناً، لماذا لم تتصل بك لتتصل أنت بي؟

- هذا ليس أسلوب السلوفيينين.

هذا المبرر السحري أراضاه.

- هذا لا يهم، سأفعل المطلوب.

لسبب ما، كنت أقضي في ورشة "إينيس" على الأقل نصف ساعة بلا غرض. خطر على بالي أن أحصل على عرض في هذه المنطقة التتنة من المدينة، وخصوصاً إذا اعتبرني واحداً من رجاله. لم يخطر ببالي إطلاقاً أن أشرح لكل أسطى من وسط البوسنة بأنني لم أحسّ إطلاقاً بأنني واحد من رجالهم، ولا أردت ذلك. كان من الأسهل والأرخص أن أتعامل مع ثرثرة هذا الولد الجيد التي تتم بلُغتنا، وأسلي نفسي بالتخمين في العرض الذي يمكن أن أحصل عليه لو أنني سلوفيني.

- تعرف أنني لا أسأل إلى أين أنت ذاهب بلا مبرر. أقصد أنني لا أتجسس،

أذهب كما تحب، المسألة هي هل ستذهب نحو الشمال أم الجنوب؟

- ماذا تعني؟

- حسناً، إذا كنت ستذهب نحو الشمال، فالطرق واسعة، ولا تُوجد مطبات،

فانطلق براحتك، واذهب. أما إذا كنت متجهاً نحو الجنوب فأنت تعلم ماذا

هناك.

ليس لديّ أدنى فكرة، فلم أتجه في الجنوب إلى أبعد من نهر "كلوبا" على ما

أتذكّر.

- سأذهب إلى الجنوب.

- تعالَ يا ابن عمي وَصَبَّطْ هذه السيارة، لا أريد فيها أي عيب، فهذا واحد
مِنَّا، من البوسنة.

فأجاب:

- أليس كلهم واحد؟

- لا تكن غيبًا.

أخذ ابن عم "إنيس" المفاتيح بيد مُلَطَّخَة بالسواد، وركب السيارة. في هذه
المرة دارت السيارة المتهالكة القديمة من ثالث تَكَّة بالمفتاح.

فتساءل "إنيس":

- ماذا يُضحكك يا وغد؟ في يوغوسلافيا سابقًا، كُنَّا - نحن البوسنيين - نقوم
بالمضاجعة، في حين كل الآخرين هم كانوا يتولون تربية أطفال تلك المضاجعات.
إنكما أنتما الاثنتين صغيران ولا تدركان أن نصف هؤلاء المُعْغَلِّين السلوفينيين،
والكُروَات، والصرب الذين يجوبون منطقة البلقان هم في الحقيقة آباؤهم
بوسنيون.

كان "إنيس" رجلًا سعيدًا، فلديه جمهور أُسِرَ له، لا يعترض على أي شيء
يقوله، وهذا ما يريده.

- فيما مضى، كان البوسنيون ينامون مع مَنْ يشاؤون، لكن النساء لم يرغبن في
الزواج مِنَّا. النساء اليوغوسلافيات لا يُردن أسماء مسلمة لأبنائهن. حتى لو
"إنيس". هناك إخوة وأقارب لكم. لا عجب أنها انتهت هكذا.



عندما غادرت ورشة "دينو" الميكانيكية متجهًا نحو وسط "ليوبليانا"
المُتَحَضَّر، شعرت بأن هدوئي يُعاني إلى حد كبير، لدرجة أنني لم أشعر

بما هو أسوأ من ذلك من سائقي التاكسي السلوفينيين. استقلت "أوبل فكترا" زرقاء، واتخذت قرارًا واعيًا بأن أبرز أجرًا عالية من فئة عشرة يوروها بدلاً من مراقبة السائق وهو يضبط عداد التاكسي، والتحديق فيه كلما تحوّل بسرعة ثلاثة يوروها كل دقيقة، وهو يعرج بي في طرق مطولة. لم أشعر برغبة في الكلام. ليس لديّ القدرة على مجادلة السائقين، فاكتفيت بالتحديق من خلال النافذة، بينما تتهدأى "الأوبل" إلى وسط البلد في هدوء وسلام.

- هل هنا مناسب؟

توقّف أمام محطة باص، واندهشت مسرورًا من أن العدّاد سجّل ستة يوروها وخمسين سنتًا. خرجت من التاكسي، وعبرت الشارع، وجدت نفسي أمام المدخل الرئيسي لمستشفى عام، لم أدر بالضبط ماذا أريد أن أفعل هناك. لم ترُق لي على وجه أكمل فكرة بقائي هناك لبعض الوقت أراقب الجماعات المختلطة من الناس شبه الموق المصابين بكسر في العظام، وبالوسوسة، ولكن انتابني الشعور بأنني جلست بالفعل في عيادة طبيب الأسنان منتظرًا لمدة ثلاثة أيام، فما الفرق؟ ومع ذلك لم أكن مُستعدًا ذهنيًا لدخول المبنى واتخاذ الخطوة الأولى في هذه المعركة الانتخابية.

العدوانية الصامتة أكثر ما يناسب حالتي الذهنية. اتكأت على عمود وأعددت نفسي لقضاء وقت غير محدد في تفحص المرضى وهم يمرون أمامي، دون أن أعطيهم انطباعًا بأنني أتفحصهم، متذكرًا قول أمي إن التحديق سلوك غير مُهدّب. عرفت "دوشا"، بعد سنوات من العمل في المستشفى، الكثير عن هذه الأمور.



- لا أريد أي شيء، سوى أن أدخن.

تهادت نحوي سيدة عجوز بمشاية، يتبعها شاب أصلع، تقريبًا ابنها، تبدو عليه الحيرة، غير متأكد من إذا كان عليه أن يحضر لها السويتر الصوف، أم يسحب السيدة إلى الداخل، أم يدخن هو نفسه. يبدو أنه من نوعية الناس الذين لديهم خبرة واسعة في مواجهة الأسئلة التافهة، ولكن لا يجد لها إجابة. بعد تَرَوُّ عميق، قرَّر أن يتَّجه نحو السُّلَّم. لكن السيدة الكبيرة أخرجت من جيبتها سيجارة وأشعلتها.

- تريد واحدة؟

أومأت بالإيجاب، فأعطتني واحدة، وأعطتني الولاعة أيضًا. لم أكن مدخنًا، ولكنني بين الحين والآخر تتملَّكني رغبة في أن أمتص بعض السموم في عروقي.

- مريض أم سليم؟

- سليم.

- إذاً أصبحنا اثنين. أولاد هذا الوقت وأحفاده لا يفهمون أن الناس يكبرون عندما يبلغون الثمانين، لذا فهم يحضرونني إلى هنا للفحوصات، لعل هؤلاء الأغبياء يجدون شيئًا يعملون عليه في كل وقت. كوليسترول، وأوردة، ومن هذا القبيل. وهؤلاء المهترِّجون يريدونني أن أمارس التمارين الرياضية المائية، وأقلع عن التدخين، وأكل لحم الخنزير المشوي، ومَن يدري ماذا بعد ذلك. هيَّا، لا تقل شيئًا يزعجني. ألا أستطيع أن أموت في سلام، دون أن يسقوني بالماء كنباتات الزينة؟

حاولت أن أومئ في اللحظات المناسبة لكي أبدو مُهتَمًا بقصّتها، ولكنني في الحقيقة كنت مشغولاً لأنني لم أرَ "دوشا" تمر، وها لمحتها على بعد عشرة أمتار عني. رميت بعقب السيارة شبه المشتعلة بين الشجيرات، وانطلقت خلفها.

- "دوشا!" "دوشا!"

كانت في مفترق الطرق عندما استدارت أخيراً ورأيتني. لم تكن من النوع الذي يندهش بسهولة، وإن حدث فلا تُظهر ذلك. لم أرها منذ شهور، وكنت أقف أترقبها خارج المستشفى، لكنها قابلتني دون أي تعبير، كأنني شخصية عابرة في مسلسل مكسيكي. نظرتها كانت ستجعلني أكرهها، إن لم أكن قد كرهتها بالفعل لأسباب عديدة. المرّة الوحيدة التي كرهتها بشدّة منذ فترة حينما قرّرت أن تحدّثني بالسوفينية، وأنا أصرت على التحدّث بالصرية الكرواوية، سعدت يومها سعادة كبيرة.

- ماذا تفعل هنا؟

- أين هو؟

- من؟

- أريد رقم التليفون، العنوان، أي شيء، أريد أن أعرف أين هو.

- عمّن تتحدّث؟

- أنتِ تعلمين.

بدأت أُمّي، التي وضعت حدّاً لكل ما حدث، في حالة صدمة للحظة، حدث نادر، لكنها استدارت بعد ذلك وبدأت في عبور الطريق، كما لو أن خطتها هي الهروب من ابنها. تمّيت لو أنها على الأقل توقّفت على

الرصيف المقابل، إنما "دوشا" العجوز التي بلا روح استمرت نحو سيارتها، المركونة في شارع "إلبريسكا"، كما تفعل يوميًا لسنوات. لقد حصل لها زوجها، "دراجان"، على تصريح من خلال علاقته مع حُلات الجنوب المتنوعين والعديدين، فما كانت السيدة "تشيريتش" تدفع أي رسوم انتظار. أعلم أنها قادرة على أن تركب سيارتها الـ"كليو" الصفراء اللعينة وتذهب إلى البيت دون رد، دون أي كلمة. كما هي عاداتها دائمًا، دخلت "دوشا" في حالة الانغلاق. تعقبتها وأمسكتها من يدها، ولكنها لم تتوقف. كان واضحًا أنها تنوي أن تطلق بالسيارة، فلم يكن لي خيار سوى أن أسحبها بعيدًا عن السيارة، وأجعلها تتحدث معي.

- أعلم أنه على قيد الحياة. أريد أن أراه.

بدلاً من أن تجيبني، حاولت الإفلات من قبضة يدي. دفعتني أولاً، ثم ركلتني، ومن الحظ أنها لم تعرف ماذا تفعل. أمسكت بها من وسطها بشدة، وتركتها حتى تهدأ، وتتوقف عن التلوي كالأحمق. كانت "دوشا" معروفة بعنادها. في لحظة، غرزت أظافرها الحمراء الطويلة في يدي. دفعتها لا إرادياً، وارتمت كلانا للخلف على سور مرتفع يُوازي الرصيف. بينما استعادت توازنها، كنت قد أخذت موضعي بينها وبين السيارة الـ"كليو". من الطبيعي أن تحاول دفعي بعيداً عنها لتمضي في طريقها، ولكن لم أتردد في دفعها لأمنعها.

كنت أشك في كثير من الأحيان في أنها عندما تغلق على نفسها هكذا لا تكون في حالتها الطبيعية؛ لكن في هذه المرة تيقنت، لما تراجعت إلى الخلف بضع خطوات، لتهرب مني، مبتعدة فجأة، مندفعة إلى الطريق، لتصل إلى

سيارتها من الجانب الآخر. لم تتوقَّف إلا عندما رميت بنفسي في طريقها. تراجعت إلى الرصيف، وهي تنفخ غضبًا. بعد لحظة، استدارت "دوشا" أخيرًا نحوي.

- تعالَ غداً في الاستراحة وسنحدِّث في سلام.

لم تكن بطبيعتها.

- وعد؟

- وعد.



لا يعني وعدها الكثير بالنسبة لي، فأنا أعرف أمِّي بالقدر الذي يجعلني أعرف أن هذا أقصى ما أستطيع استخلاصه منها. كان أمني أنها ستظهر في الغد لأنه هذه المرَّة تتسمُّ بالجِدِّيَّة؛ كنت في احتياج إلى معلومة قد تخرجها من نطاق راحتها. واعتمدت أيضًا على أنها تعرف أنني عنيد مثلها، وأمني يمكنني أن أنتظرها لأي فترة أمام المستشفى. غابت في تلك اللحظة سيارتها الـ"كليو" عن الأنظار، وما زلت غير متأكد من إذا كنت سأراها في اليوم التالي أم لا، وإذا كنت سأستطيع أن أحصل منها على معلومة أم لا.

استهوتني فكرة أن أَسْتقل أي باص من باصات المدينة، مثل رقم عشرة، وأتجوَّل في المدينة مرَّة أو اثنتين، مُحدِّقًا من النافذة، جالسًا في هدوء كأنني كوفية منسوبة مع مجموعة من الشباب المصايين بالتَّوَحُّد في طريق عودتهم من المدرسة إلى البيت. ولكن الساعة الآن الثالثة تقريبًا، وأعلم أنه لا يوجد مقعد خالٍ. وحتى لو أنني وجدت مقعدًا، فستركب

حتماً سيدة مُسنَّة تتدلى من يدها شنطة السوبر ماركت، وستخبرني بنظراتها الفصيحة أن أترك لها المقعد.

لذا سرت مُتسكِّعاً إلى البيت، بعد المركز الطبي، عازماً بصدق على كيف سأشرح كل ذلك، أو جزءاً منه، لـ"نادية". أو ماذا سأفعل لو أنني في وسط الكلام أدركت أنني لا أستطيع أن أخبرها بشيء؟

فعلى الرغم من أنني أعرف "نادية" منذ ثلاث سنوات، فإنني لم أفلح في فهمها. لم أكن متأكداً مما كانت تفعله معي، ولا كيف تنظر إلى علاقتنا. لقد جاءت من عالم آخر مختلف تماماً؛ فهي طالبة مُتفوّقة في علم الأحياء المجهرى من أسرة ريفية محافظة. تنتمي إلى جيل هادئ لدرجة أنه لا يعبأ بالتوقعات اليومية للقدر المرتقب. منذ أن انتهى حب الشباب، ولم تعانِ "نادية" من أي مشكلة، أو على الأقل مما لاحظته (بلاذني الموروثة). كان اعتقادي أحياناً أن "نادية" مرتبطة بي نظراً لهذا الطول الذي يقارب المترين الذي أتمتّع به ويؤثّر في حياتها، هذا الشيء الوحيد الذي تفتقده منذ طفولتها التي لم تنته.

ربما كان شعوري تجاه "نادية" هو شعور بالامتنان. فأنا ممنون لأنها لم تزعجني مُطلقاً، ولم تتدخل في حياتي الخاصة، ولم تُثر أي ضجة لأنني لم أعرفها بأبي. وجودها في حياتي مُمتع للغاية، وبصراحة أخاف أن أحطّم هذا بحكايتي عن أبي، الذي كان حتى وقت قريب مبيّناً.



لحُسن حظّي أن مُعضلتي هذه تأجّلت بسبب التزامات "نادية" الدراسية؛ إذ زار شقّتنا الصغيرة التي نستأجرها زميلان لها من بلدتها،

مهتمان بعلم "الميكروبيولوجي"، "ماثيو" و"نينا"، اللذان يقضيان مع "نادية" على كل ما تمتلك من بيرة. هؤلاء الثلاثة الذين ربطوا الدراسة بالحرية المطلقة فازوا بتكريم مدينتهم، واعتبروا دراسة "الميكروبيولوجي" في جامعة "ليوبليانا" جنة الله في أرضه. عندما عبرت من الباب كانوا في مناقشة ساخنة، لذا لم يلاحظوني فتسللت إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب وحاولت أن أحظى بقسط من النوم.

لم تكن عادتي في الدراسة مختلفة، فلم ألتحق بالجامعة إلا لكي أحصل على المراجع من مساعدة الطلاب، ولكي أساعد رئيسي السابق في تجنّب الدفع للدولة. بعد سنوات استطعت أن أفنع نفسي بأن المذاكرة يوميًا قد تكون وسيلة جيدة لإضفاء بعض مظاهر التنظيم والمعنى على نضالي في الحياة، ولذلك بدأت مع مجموعة من الزملاء المتحمسين التردد على كلية الآداب. صدموني في أول يوم بنظريات "ناعوم تشومسكي" اللغوية، وبعدها مباشرة بعلم نفس نمو الطفل، ثم بالأساطير السلوفينية. درست الإثنولوجيا (علم الأجناس) في السنة الأولى، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الثقافية في الثالثة، ولم أكن في عجلة من الأمر لكي أستمّر. ما زلت أحب الاستماع للمحاضرات، والاستمتاع أحيانًا بتناول كوب أو كوبين من البيرة مع الزملاء بعد ذلك، وهكذا. لم أستطع الانغماس معهم في حفلات طلابية منتظمة.

كنت أسمع الثلاثة يتناقشون في أمور تافهة في الخارج، ولكن لم تقدر أي مناقشات أن تخترق حائط غرفة نومي في ذلك المساء لتقلق نومي، ولم أكن في حاجة لكي أفنع نفسي بأن الثلاثة لم يتسبّبوا في توتّرّي. العالم كله

يزعجني، فلذلك لا يوجد سبب معقول لجعلهم استثناءً ملحوظاً. وقلت "نادية"

على الباب وهي منسطة وسألني بابتسامة ماكرة:

- هل أنت على ما يُرام؟

ربما كانت ذاهبة إلى الحمام وتذكّرت في طريقها أن لها صديقاً.

- سنشرب بعض الخمر، هل تشاركونا؟

- أيجب أن أوقظك عند عودتي للشقة؟

ازدادت ابتسامة "نادية" مكرّاً، ولطالما كانت تثيرني، ولكنني الليلة لست في

حالة هيجان.

- لا أعتقد

- إذًا تصبحين على خير.

أخذت مجموعة "الميكروبيولوجي" تلك طريقها للخارج، في حالة سُكر وهمس يدوي، فالنوم لم يغالبني بعد. ظللتُ أفكّر في لقائي غدًا مع "دوشا" عن والدي، وعمًا ستقوله ولن تقوله.

كنت مُتبقِّظًا عندما تسلّلت "نادية" من الباب برشاقة في الساعة الرابعة والنصف، وحاولت النوم، ولكن دون جدوى. اختلست نظرة خاطفة وهي تغير ملابسها، معتقدًا أن عُرِيها سيصرفني عمًا فيه، ولكن حتى جسمها النضر لم يمتلك القوة التي تخرجني من حالة الانفعال المُشينة التي تتملّكني. تمدّدت بجوارتي وراحت في النوم بسرعة، في أمان. رائحة شعرها البني الطويل مُقرّزة، ففكّرت في تدخين سيجارة حشيش، ولكن لم أشعر بالرغبة في النهوض وتفتيش شنطة يدها، في هذه الساعة من الليل. سمعتها في الحال تخمغم، كما تفعل عندما تشرب كثيرًا من

البيرة. كنت مُتَيَقِّنًا من أنني أستطيع الصراخ، ولن تسمعني، فتجرت أن أقول لها:

- أبي ليس مَيِّتًا، ولكنه مجرم حرب.



"قابلي في الساعة الحادية عشرة في بار مبنى الإسعاف. مع حبي،
دوشا".

لم تُلَقِ "دوشا" إطلاقًا بالألحالة الجو، سواء بالنسبة لها، أو لي. ربما أيضًا التقينا في عنبر الغلايات، أو غرفة العمليات. على الأقل هذه الرسالة التي رُتت في الساعة السابعة والنصف وأيقظتني، أكدت لي أنني أخذت قسطًا من النوم، على أي حال.

وصلت "دوشا" وهي شبه نائمة مثلي، والانتفاخات تحت عينيها تحاول أن تخفيها بالمكياج. فكرة أن شيئًا ما أزعجها أخيرًا، فكرة سارة. طلبت قهوة "إسبرسو" دوبل، وكوبًا كبيرًا من الماء، ثم دَخَّنت سيجارة. وقَدَّمت لي سيجارة، وسألتنني بأسلوب مُهَدَّب، إذا كنت أُدَخِّن أم لا، تعاملت معي كأننا غريبان نلتقي للمرة الأولى. جلسنا إلى طاولة على رصيف البار، نُدَخِّن، ولاحظت أن كلينا يمسك السيجارة بالطريقة نفسها. ولاحظت أيضًا أن يدها ترتعش.

- ليس لديَّ وقت كافٍ، قل لي ماذا تريد.

- أريد أن أراه.

- أنت تعرف أنك لا تستطيع، إنه مختبئ، وهم يبحثون عنه.

- لا أهتم بذلك.

- لا أحد يعرف على وجه التحديد أين هو.

- ولا أنت؟

هزّت "دوشا" رأسها، وتجنّبت النظر في عينيّ، ونظرت في ساعتها ثلاث مرّات، وفي مدخل البار ستّ مرّات، في غضون دقائق قليلة.

- آخر مرّة قابلته منذ ثلاث سنوات، ولا أدري إذا كان على قيد الحياة أم لا.

قمت بعملية حساب سريعة في ذهني، كم سنة مرّت منذ أن قرّرت "دوشا" أن تُخبرني بذلك، متظاهرة بأن أبي مات في مكان ما على الجبهة. والآن اتّضح أنّها كانت على اتصال به على مدى اثنتي عشرة سنة، على اتصال برجل ميّت، ساقطة في خضم هجوم من الحس العام.

- من أين كان يتّصل بك؟

- أعتقد أنه من الأفضل...

- من أين كان يتّصل بك؟

- إنه مُختبئ من الكل، لماذا تعتقد...

- من أين كان يتّصل بك؟

- من "برتشكو".

- العنوان؟

- لماذا تعتقد أنه...

- من المحتمل أنه كان ينتظر أن تزوره، أو أزوره، أو أننا نكتب...

- انظر يا "فلادو"..

- العنوان؟

أحضر الجرسون القهوة الدوبل وكوب الماء الكبير لـ"دوشا"، وعصيراً لي.
دفعت "دوشا" الحساب بسرعة، وقالت إنها مستعجلة.

- العنوان؟

- قال إنه لم يستمر في هذا العنوان، فهو غير آمن، وسيذهب إلى مكان آخر.
كان هذا منذ ثلاث سنوات. ولا أعرف له أي عنوان آخر.

في إمكاني أن أعيد كلمة "العنوان" باللهجة نفسها مئات المرّات، كان يمكن
أن أعيدها حتى الصباح، و"دوشا" تعرف ذلك. ابتلعت كوب الماء بسرعة،
وبدأت ترتشف من فنجان القهوة الصغير.

- انظر، أعرف أنك لن تغفر لي أنني أخبرتك بأنه ميّت. ولكن أريد أن
أعرفك بأنه طوال هذه المدة لم يقل، ولو مرّة واحدة، إنه بريء. لم يقل ذلك لي،
ولم يقل حتى إنه آسف. أوّذ أن تعرف أن هناك احتمالاً قوياً بأنه مذنب.
أريدك أن تعرف هذا، فقط هذا.



- ها هي بالكاد انتهت.

ربما لا يعرف "إنيس" ما يحدث لسيارتي المُتهالكة في ورشته، التي
تحت رحمة ابن عمّه الشاب. بوصفه نجمًا بلا منازع بين أترابه، تناول
"إنيس" بنفسه كوبًا صغيرًا من البيرة، وكأسًا من براندي شنابز، بينما

كان يمتع "شعبنا" بالنكات، في الكافتيريا التي يتردد إليها دائماً، والتي يمتلكها ويشغلها "شعبنا".

- متى يمكنني أن أجيء؟

- متى ستغادر؟

- غداً.

- إذا تعالَ اليوم بعد الظهر.

- كم ستكلفني هذه العملية؟

- ستفق على أي حال، يا صديقي "فلادان".





يبدو أن الشاب الذي غسل نوافذ سيارتي المتهالكة في محطة بنزين في وسط أرض بور بين "زغرب" و"برتشكو" تقريبًا، شبه "ماي" إلى حد كبير، ولدرجة أنه كان يمكنه أن يقنعني بأنه ابن "ماي" الذي نسيه من زمن بعيد، وهو يحرك السيارة المتهالكة من مكانها في المحل. هل أربعة أطفال من مكان قريب، وفي أيديهم جرادل ماء وقطع قماش قديمة. نظروا إليّ، وكادوا يقفزون عليّ من أجل النقود المتبقية معي التي سأدفعها لقهوة دوبل وعصير في مطعم "جافوري" القريب. فكّرت في كيف كان أبي العجوز سيحب أن يتصارع معهم، لكنني لم أرث منه أي موهبة مفيدة، مثل المصارعة مع أطفال ضعاف البنية. عندما فتحت باب سيارتي، وجدت فجأة أيدي ممدودة فوقي؛ تلوينات بقماش مهترئ ومُتسخ، ونجحوا في أن يحركوا ضميري وأغبر خطتي قليلاً لقهوة عادية وكوب ماء. حاولت، وأنا مغتاض قليلاً، أن أشق طريقي بينهم، وأتجاهلهم، ولكنهم راحوا يتناورون كأنهم في سباق، فدائمًا أجد واحدًا منهم أمامي،

يعترض طريقي. واستمروا في أن يجعلوني أرى كيف أن نوافذ السيارة نظيفة،
وهم يدفعون بأيديهم المتسخة في وجهي.

- ليس لدي أي فكة!

ورحت أريهم جيوي الخاوية.

- حسناً، أعطنا نقدية مُجمّدة.

- ليس لديّ إلا يورو.

- لا توجد مشكلة.

شاعراً بالإحباط، أخرجت عملة قيمتها اثنان يورو ووضعتها في يد شببيه
"ماكي". لكن معركتي لم تنته بعد، فقد تدافع الأربعة الآخرون من أجل نصيبهم.

- هَيَّا، ابتعد، لا تجعلني...

وقف جرسون مُسنّ، في زيّ متروك من أيّام الاشتراكية، أمام مدخل المطعم.
لما سمع اثنان من الأطفال الغجر صوته الصارم، عادا على الفور، ولكن الجرسون
الغاضب نجح في جذب واحد منهما من ياقته المهترئة ودفعه نحو موقف
السيارات.

- هَيَّا العب بعيداً، يا لص يا صغير!

- يا للجنة!

- أحذرك، يا صغير، لا تجعلني أذهب إلى هناك!

- فتلذهب إلى الجحيم، يا مجنون!

من الواضح أنني وجدت نفسي مُحاصراً بين جيش نظامي في المطعم
وعصابة من أطفال الغجر. يتصارعون من أجل الهيمنة على الطريق الموحد
الرابط بين موقف السيارات العشوائي، والمطعم الشعبي. في تلك

اللحظة، توقفت سيارة "جولف فلوكس واجن" بلوحات معدنية بلغارية. فنسي الأطفال العجر الجرسون التعيس وركضوا بجراد لهم القذرة. وعاد الجرسون لمكان خدمته عند الباب، وواصل استراحته للتدخين.

جلست إلى طاولة مغطاة بمفرش أبيض، بالإضافة إلى بقع قهوة قديمة على مفرش أحمر ناعم أكثر قذارة، وطفاية سجائر بلاستيك موضوعة في المنتصف، بجانب مزهرية فيها زهور بلاستيكية من الحقبة التاريخية الوسطى بيوغوسلافيا. بالطبع اضطررت للانتظار، لكي يصبح لي الحق في أن أدفع ثمن القهوة اللاذعة، المتقلبة بمعلقة بلاستيك رقيقة، نتخلص منها بعد الاستعمال، في ظل هذه الأجواء الخاصة، هذه المرة الأولى لي في مثل هذا الموقف. واصل الجرسون المَبْجَل التدخين بسيجارة ثانية، وتحدث مع زميل له واقف خلف بار من الصلب غير قابل للصدأ، واستطاع أن يختفي في طريقه من هناك حتى طاولتي.

يبدو أنني أمرُّ بتجربة لعادة أصيلة من ضيافة الجنوب التي سمعت عنها كثيرًا. حاول آخرون أكثر مِنِّي حكمة تغيير هذه العادة من السلوك، ولكنهم فشلوا، لذلك من العبث أن أفعل شيئًا سوى استيعاب الأمر. حاولت ذات مرة التعامل مع هذه المخلوقات شبه الآدمية، فسألت سؤالًا بريئًا وهو "كم تبعد المسافة عن "برتشكو"؟" فجاءتني الإجابة من أحد السجناء المحكوم عليهم بالإعدام العاملين في ذلك اليوم هكذا: "لا أُلقي لذلك أي...".

بدا الشخص الذي يرتدي زيًا رسميًا وله شنب، الذي أخذ مِنِّي نقود البنزين، يكره نفسه في ذلك المساء، وتعدى ذلك ليكره كل العالم. كان رد فعله التلقائي على سؤالتي عن "برتشكو"، تلك المدينة التي أثار تاريخها

غضبه لأنها لم تقع في يد الكُروات في نهاية الحرب، بأنه أعطى ابتسامته باهتة. من المحتمل أنه أراد أن يعطيني الإحساس الزائف بأنه يمزح بدلاً من أنه يهرب المسافرين على الطريق إلى المناطق الصربية.

شعرت بالضيق، ولكنني انطلقت.

بعد عشرين دقيقة كنت أشرب قهوتي غير الصالحة للشرب، في المطعم المجاور، متساءلاً لماذا هذا الاتهام غير المعلن والمتوقع لا يزال يجعلني أشعر بالاستياء. لقد سعدت بداخلي كراهيتي لصاحب الشنب، فتبلورت لقصة متخيلة أصبح فيها مهرباً لمواقف البوتاجاز والغسالات المسروقة من بيوت الصرب. أتخيل "السيد شنب" وهو يحمل الأجهزة من ماركة "جرونجي" من وإلى القرية، بعد انتهاء وريدته من محطة البنزين، ويقدمها للجيران، مُدعياً أنها من صهره السويدي اللطيف، الذي اشترى أجهزة من ماركة "إليكترولوكس" لمنزله، ولم يعد في حاجة إليها. لكن بعدما تلاشى "السيد شنب" في الضباب السلوفاني المهلوس، والغسالات الكثيرة التي يحملها في مُحَيَّلتي، عاد المنطق مرّة أخرى، وبدا لي أنه من الصعب أن أجد عامل بنزينة أكثر اعتدالاً في خضم هذا الفراغ البشع بين "زغرب" وبلجراد. كان من المؤكد بالنسبة للسكان المحليين أن قبضتهم على هذه المناطق المهجورة لن تمتد لتلك المنحدرات البائسة فيما وراء نهر "سافا"، التي جئت منها. ومن المحتمل أيضاً أن المهاجرين الصرب، الذين من المرجح أن أقاربهم في "برتشكو" يعيشون في منازل المسلمين المطرودين، أو الكُروات، ولم يكن أحد محبوباً لبيدأ معه. لذلك من الطبيعي أنه لم يظهر بأنه محترف، فقط لكي يرضي العابرين.

كان هذا المنطق الطبيعي غريباً بالنسبة لي، ولكن لم يفسر ذلك لماذا ما زلت في حالة سيئة. لم أفكر في نفسي مُطلقاً بأنني حساس، ولو هناك وإبل من الشتائم لن يحركني. ولكن أفترض أنني شعرت بأن كل هذا مرتبط بحالة أبي الشبيه بحالة "لعازر"، وتساءلت لو أن "السيد شنب" قرأ إحساسي بالذنب. ألم يسبب شعوري بالبراءة، الذي اعتقدته بكل مشاعري حتى وقت قريب، في تبيد اللحظة التي فكّرت فيها أن أبحث عن اسم أبي المتوّفى في "جوجل" وبلا رجعة؟ هل هذا هو السبب في أنني لم أستطع النظر في عين "السيد شنب" وأقول له أن يذهب إلى الجحيم؟ هل هو السبب في إحساسي بأنني مثل رجل في قفص الاتهام، ويحاكم بصلاح النفس؟

أشعر بالذنب تجاه قرية "فيشنيشي"، في شرق "سلافونيا"، على الرغم من أنني لم أعرّ عليها في الخريطة. لا أعرف إلا القليل عمّا حدث فيها ليلة 13 نوفمبر 1991، في الوقت الذي كُنّا أنا و"دوشا" نعيش في "ليوبليانا". وعلى الرغم من ذلك أشعر بالذنب، وهذا الشعور أصبح أقوى عندما اقتربت منها.

- أي خدمة أخرى؟

- معذرة؟ آه... لا... أشكرك.

- 12 كونا.

يبدو أن وقتي في مطعم "دافوري" قد انتهى.



هذه هي المرّة الأولى التي آتت فيها إلى مسقط رأسي، وهذا أول تعامل لي مع المواطنين الكروات، لو أنك نَحَيْت جانبًا اللقاءات الصدفة في شوارع "ليوبليانا"، وضابط الجمارك في زيّه الأزرق الفاتح اللطيف في بؤابة الحدود.

كنت أفكّر في "نادية"، التي لم أفلح في أن أخبرها برحيلي. عندما غادرت كانت في أحلامها الوردية، ولم تطاوعني نفسي في أن أوقظها. كنت قادرًا على اختراع قصة أخفي بها بشياكة نِيَّاتِي الحقيقية ومقاصد سفري، وإن كانت مليئة بالثغرات على نحو ما، وغير متوقعة في كل الأحوال، بما في ذلك مدتها الزمنية.

لكن حينما رنّ التليفون للمرّة الثالثة خلال ثلاثين دقيقة، لم أستطع تجاهله:

- آلو!

- أين أنت؟

- "نادية"... حدث أمر ما.

- ماذا؟

- عمّة أبي، "ميلوسافا"... ماتت.

- معقول؟ وأين أنت الآن؟

- سأحضر الجنازة... أنا أقود السيارة الآن.

- إلى أين؟

- البوسنة.

- البوسنة؟

- نعم، أنا هنا الآن... في كرواتيا.

- لماذا لم تخبرني؟ ولماذا اتّجهت إلى البوسنة؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

- كل شيء على ما يُرام... ولكن لا أدري متى سأعود.

- حَقًّا؟

- نعم... موضوع طويل.

- لم أفهم.

- آسف.

- على العموم عاود الاتصال بي.

أغلقت "نادية" الخط، وتملّكني إلحاح قوي بأن أتصل بها وأستمر في الكلام معها، لم أستطع أن أضع تليفوني جانبًا، ولا أعرف ماذا سأقول لها. لا تستحق كذبي عليها من موقف سيارات أمام مطعم "جافوري" بشأن العمّة "ميروسافا" وموتها المزعوم، قريبتى الوحيدة من ناحية أبي، التي ماتت فجأة، وهي في سن الثانية والتسعين، أثناء قطعها شجرة تفاح في دار الاستشفاء الوحيدة في شرق البوسنة. لقد ألفت قصة حياة العمّة بهذه التفاصيل، دون أي تردد، كان يمكن أن أحكي حكايات عديدة عن الفلفل المحشي التي كانت تضعه "ميلوسافا" في كرتونة وتذهب به إلى محطة الباص، وتعطيها للسائق المتّجه إلى "ليوبليانا" مع خطاب لأمّي وعشرين ماركا ألمانيًا لي. كان يمكن أيضًا أن أحكي عن زوج العمّة، "سلافكو" الذي مات للأسف بسرطان المعدة، الذي أرجعته لطعام منزلها غير الصحي، فاتّجهت نتيجة لذلك للطعام الأورجانيك في سن الخامسة والثمانين، الأمر الذي جعل جيرانها البوسنيين يعتقدون أنها أصيبت بالخرف، فوضعوها بناءً على ذلك في دار الاستشفاء، واستحوذوا على منزلها.

كان خيالي حيًّا، وكنت أحب أن أطلق له العنان عندما يتعلّق الأمر بالنساء، ولكن هذه المرّة وصلت إلى باب مسدود. فصوت "نادية" خدّرتني، وتوقفت في منتصف أول جملة اخترعتها. فشعرت كم يكفيني الحديث

الصادق والأمين معها الآن. كان يمكن أن تكون معي سنداً في هذه القصة المفاجئة والقاسية، التي وجدت فيها نفسي. أفتقد إنصاتها باهتمام، وربطها المتعقّل لكلماتي غير المترابطة، واستنتاجاتها الصائبة، التي لم أكن أتوصل إليها بنفسني بمنتهى البلادة. "نادية" أذكى مِنِّي بكثير، فهي أصغر، وأكثر سذاجة، ولكن أmeer مِنِّي. لقد فكّرت لثانية واحدة أن أعود وأذهب إليها، ولكنني كنت عنيداً. لست من النوع الذي يستسلم قبل النهاية.



كانت المعلومات التي تفيد بما حدث في "فيشنيتشي" متناثرة، وكذلك التي يمكن الحصول عليها من الإنترنت. هناك احتمال أن كثيراً من التفاصيل في الصحف الكرواتية التي تعود لفترة التسعينيات، وبالتأكيد هناك ناس يعرفون الكثير، ولكن ليس لديّ أدنى فكرة عمّن أسأل، وهل سيخبرونني بما يكفي. عرفت مما تمكّنت من تجميعه أنه في يوم 13 نوفمبر 1991، قام الفيلق الثالث من الجيش الشعبي اليوغوسلافي، بقيادة الجنرال "بوروجيفيتش" بنهب وحرق قرية "فيشنيتشي" بالقرب من "فوكوفار". قتلوا أثناء العملية أربعة وثلاثين فلاحاً من دون سلاح، بما فيهم نساء وأطفال وكبار السن. دفنوا الجثث في مقبرة جماعية تم اكتشافها في غابة على بُعد عدّة كيلو مترات. كما علمت أيضاً أن المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة أصدرت قرار اتهام من لاهاي ضد "نيدلكو بوروجيفيتش" منذ سنوات، ولكنه ما زال طليقاً. اتهمته المحكمة بمسؤوليته كقائد لجرائم الحرب التي ارتكبت في "فيشنيتشي". صادفت أثناء بحثي عديداً من الافتراضات عن مخبأ الجنرال "بوروجيفيتش"

الهارب في المساحات الشاسعة من الأراضي الصربية، وكيف أنه، مثل الكثير من المدَّعى عليهم في لاهاي، يتمتع بحماية المخابرات الصربية السرية. ادَّعى أحد المُعلِّقين، في جزء "إضافة التعليق"، أن "بوروجيفيتش" كان يعيش في منزل محصن في مقاطعة "أوجيتسي"، جنوب صربيا، لعدة سنوات، وأيَّد بعض المُعلِّقين مجهولي الاسم هذا الافتراض، وأضافوا أن حمايته تمت بأمر مباشر من النخبة السياسية في صربيا، وأن ذلك كان معروفاً جداً بين المخابرات الأجنبية؛ لكونها مسؤولة الجيش الصربي.

كانت آخر مرّة رأيت فيها الجنرال "نيدلكو بوروجيفيتش" في مطعم فندق "بريستول" في بلجراد، في صيف 91، عندما كان لا يزال عقيداً. بالنظر إلى الماضي، أعتقد أنني لم أعرف هذا الشخص الذي كان يلعب دور أبي، أثناء طفولتي في "باولا". ليس لديّ شك في أنني أحببته مثلما يحب الطفل أباه، وحرزنت لما أخبرتني أمي بأنه قد رحل. كنت أنهمك أحياناً في فكرة أنني لم أنغلب بالفعل على شعوري بافتقاد أبي، وأنني لم أعطِ لنفسي مُطلقاً مساحة من راحة البال. لقد تلاشت ذكريات طفولتي عنه، وغُسلت كما يغسل الماء رسماً بالألوان المائية، فصارت الألوان باهتة على مدار السنين. الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لي هو أنني لم أعد قادراً على تذكر وجهه. لم أعد أتذكر ملامحه إلا من خلال الصور الفوتوغرافية، ولكن صورته الحقيقية مُحيّت من ذاكرتي. أتذكره الآن من خلال صور عديدة بالأبيض والأسود في حفلات أعياد ميلاد متنوعة، ومن رخصة قيادته التي يظهر فيها وجهه صيانياً رقيقاً، في وقت كان بالكاد يشبهه في الحقيقة. لم يكن لديه في ذلك الوقت تلك الحواجب الكثيفة التي كانت تتجمع في المنتصف إذا أزعجه أمر ما. لم أستطع أن أتذكر عينيه

السوداوين وهو يجهدهما عندما يشاهد التليفزيون من دون نظارة. لم أتبين شفثيه الغليظتين المتغيرتين باستمرار، وهما تدفعان وتزغدان الطعام في فمه، بينما تنشغل أُمِّي بأعمال البيت بطريقة غير منتظمة، مع كل غداء. لم أستطع أن أتخيَّله وهو يتملئ بنفاد صبر في السينما، منتظرًا أن يبدأ الفيلم الأسبوعي الموالي للحزب، ومع ذلك، أعلم أنه كان يفعل ذلك في كل مرَّة.

رأيتَه من خلال ذاكرتي إنسانًا يهملُ في الأفق من بعيد، مثل التمثال النحاسيِّ. رأيت زيَّ الضباط الأنيق الخاص به معلقًا في البيت أمام المرأة، قبل يوم الجيش الشعبي اليوغوسلافي مباشرة؛ رأيت جسمه في ملابس البحر مستلقيًا على فوطة قصيرة جدًّا، وهو يخبرني بأن أخرج من المياه لأن شفثيَّ بدأتًا تميلان للون الأزرق. رأيت قميصه الأبيض المنقوش، الذي اشتراه من "تريستي"...

كنت أعلم أنه يمكنني، على الطريق الذي أخذته، أن أصل إلى "فوكوفار" و"فيشنيتشي" أيضًا في ساعات قليلة. ولكنني لم أعرف إذا كنت أريد أن أرى أيًّا منهما. نظرًا لأنني لم أذهب إلى "سلافونيا" مُطلقًا، رسمت صورة لـ"فيشنيتشي" أحسبها صحيحة، متخيلاً أنني زُرْتُها بالفعل. رأيت بيوتًا متناثرة في سهول واسعة بلا أشجار، ودخانًا يتصاعد من المداخن، ودفقًا ينبعث من المواقد المشتعلة، والظلام الذي لا يبده سوى الأضواء التي تنساب خلال شبابيك الغرف التي يعيش فيها السكان بسلام والذين لم يروا مُطلقًا أن ليلة نوفمبر قادمة. أخذ كلب في النباح كالجوقة الإغريقية ليستدعي كلاب قرية أخرى، ثم هدأ مرَّة ثانية. على بعد ما، كان يتسكَّع شخص ببطء نحو بيته بطول ضفة من الوحل تصل بين

حقلين. وخرج شخص آخر من بيت، مُطلقًا حمامة ليخلصها من صوت الأطفال. بعدها اختفت الحمامة مرّة ثانية بعد أن أغلق الباب وساد صمت يتخلله دويّ الريح وصرابير الحقل وصرير من الغابة القريبة. كان مساءً في نوفمبر مثل آلاف المساءات التي مرّت من قبل في هذا التاريخ غير الموجود في قرية "فيشنيتشي". ولكن في مكان ما، في ذلك الأفق الممتد، كان الفيلق الثالث من الجيش الشعبي اليوغوسلافي بقيادة الجنرال "بوروجيفيتش" يقترب ببُطءٍ.

- بطاقتك الخضراء، من فضلك.

من حُسن الحظّ أن "إنيس" حدّرني من أن ضباط الجمارك البوسنيين سيفتشون عن البطاقات الخضراء، ولذلك أخذتها معي. نظر ضابط الجمارك "محرم هودجيتش" باطمئنان في بطاقتي وحدّق فيها لفترة دون أن يقلب الصفحة:

- إلى أين أنت ذاهب يا "فلادان"؟

- إلى "برتشكو".

فكرر قائلاً:

- إلى "برتشكو".

ما زال يُحدّق في صورتي الشخصية، متظاهرًا بأن حفظ تاريخ ميلادي ومحل إقامتي هو جزء من نظام التكنولوجيا الفائقة للقبض على مُهرّبي الجبن القريش واللحوم المدخنة.

- جيد.

أعاد "محرم" لي البطاقة. بعد لحظات، نزلت ووضعت قدميّ للمرّة الأولى على مقاطعة معروفة باسم "البوسنة والهرسك".



اليوم الذي سمعتُ فيه كلمة "يُناصر" للمرة الأولى هو اليوم الذي قرّرت فيه أُمِّي أن تستقل بذاتها للمرة الأولى. لست متأكدًا ماذا قال لها أبي عندما لم يجعلني أدخل البيت معه لما رجعنا من السوق، بل طلب مِنِّي أن ألعب في الفناء حتى ناداني في وقت الغداء. كان هذا أول وآخر أمر رسمي تلقّيته في حياتي من العقيد "نيدلكو بوروجيفيتش"، ولكنه قيل بطبيعته العسكرية بلا شك. أطعته بلا اعتراض. ظللتُ أتجول بلا هدف، بينما أعلن أبي الخبر المحزن باضطرارنا للرحيل إلى بلجراد. لن أنسى أبدًا الصمت الذي خيّم على الحجرة حينما عدت إلى البيت. كُنّا عادةً نترك التلفزيون أو الراديو مفتوحًا، فلا نسمع طنين الثلاجة. أخرجت أُمِّي ملابسها من الدولاب الكبير وألقت بها على السرير في غرفة النوم. الشيء الوحيد الذي كان على طاولة الطعام طبق من المكرونة باللحم المفروم وجبن "البارميزان"، كانت تلك إشارة واضحة لي بأن أتناول الغداء دون أن أطرح أي سؤال. قال لي أبي، بشكل عابر، إننا سنذهب إلى بلجراد لفترة بسبب عمله، وأن أُمِّي ستجمع أغراضي. في المرة التالية التي مرَّ بها بجواري، أخبرني بأنني يمكنني أن أعود للخارج، أو أشاهد التلفزيون،

ولكن لا أنتظر في الشقة بعد الغداء؛ لأن كل الأمور يجب أن تكون في نصابها قبل أن نرحل.

رَنَّ التليفون في المساء، أخبرنا أبي بصوت مثل صوت مذياع الأخبار بأن عربية الجيش سوف تكون أمام المحل خلال عشر دقائق، وعلينا أن نحمل الأغراض إلى الخارج. في اللحظة ذاتها، انفجرت أمِّي بالبكاء. حاول أبي أن يحتضنها ويضع رأسها على كتفه مثلما فعل يوم أن أخبرها بأن ابن عمِّها "جريجور" لقي مصرعه في حادث سيارة. لكنها الآن دفعته بعيدًا، وأمسكت بأكبر شنطة حقيقية في الصالة، وبدأت تسحبها تجاه الباب، كل ذلك بنفسها. حاول أبي أن ينزعها من يدها، قائلًا إنها ثقيلة جدًّا ويجب ألا تكون عنيدة، ولكن أمِّي حملتها إلى أسفل، ثم إلى الخارج أمام المبنى حتى موقف السيارة أمام المحل. وضعتها أخيرًا على الأرض، وهي مُنهكة، لدرجة أنها ارتطمت بالأرض محدثة صوتًا مكتومًا. ثم جلست عليها، وراحت تبكي مرَّة أخرى، بينما حمل أبي، المرتبك قليلاً، باقي الأشياء بنفسه، وأخبرني بأن أظل مع أمِّي لربما تحتاج إلى شيء ما.

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت جارتنا "إنيسا" أمام المحل. مهما كانت الساعة، كانت دائماً تراقب ما يحدث أمام بيتها. في هذه المرَّة، خرجت كي تُودِّعنا، وهي ترتدي روب الحَمَّام فقط وحذاء زوجها. حاول أبي أن يخبرها بأننا سنعود قريبًا، ولكن "إنيسا" أومات فقط وأخذت تردد:

- تصحبكم السلامة، والصحة والسعادة أينما كنتم.

ثم قبَّلتنِي على خَدَيَّ وجبيني، وأوصتني بأن أكون مهذبًا ومطيعًا لوالديَّ، وألا أضيف أي متاعب إلى متاعبهما. ما زلت لا أدري ما هي المتاعب، ولكن بدلاً من أن تفسر لي، ضمَّتني بشدَّة، وقالت:

- عزيزي، طفلي الجميل.

وراحت تبكي بشكل أحرَّ من بكاء أُمِّي.

أخيراً وصلت العربية، حيّانا "شكليكم" السائق، وبدأ في حمل الحقائق والكراتين في الخلف. ابتعدت أُمِّي عن شنطتها وذهبت لتحتضن "إنيسا"، لدرجة أنهما ما عادتا لتريا "شكليكم" من خلال دموعهما، بينما كان أبي يناوله في هدوء الحقيبة بعد الأخرى. بعد أن تم تحميل آخر شنطة ظهر، وَلَفَّ "شكليكم" المشمَّع وربطه جيداً، شعرت بوخزة في قلبي، وانخرطت في البكاء. فقد انتابني هاجس شؤم بأن صيفي سينتهي قبل أن يبدأ حتى. فلن يأخذني أبي إلى شاطئ "جولدن روكس" بعد الغداء مجدداً فأقفز في البحر من أعلى الصخور المرتفعة.

بعدما ابتعدنا عن شارعنا، قال "شكليكم" إننا لسنا في حاجة لليقظة بسببه، ويمكننا أن ننام، فالرحلة طويلة ومرهقة. كان سعيداً لحد يثير الشك، يتكلم كثيراً، ويضحك أكثر، بينما نحن نُحدِّق في صمت في رحلتنا الأخيرة التي نمرُّ فيها على المسرح، والـ"بؤابة الذهبية" والساحة. بدأ مسقط رأسي يتلاشى شيئاً فشيئاً، مثل سرب الخنافس المضيئة التي تُحلِّق في الأفق المظلم البعيد، تلك التي تحبها أُمِّي، ولكنها الآن أدارت لها ظهرها ولم تعد تحب أن تراها.



قبل عدَّة سنوات، وصلت أُمِّي إلى مدينة "باولا" قبل الساعة العاشرة مساءً. كانت حينئذٍ طالبة صغيرة تدرس علم التربية من "ليوبليانا". أسندت رأسها إلى نافذة القطار الأخضر الصغير، أخذت تشاهد باهتمام

كبير آلاف الأضواء التي تلالأت في البداية على بُعد، ثم صارت أكبر وأقرب حتى تحوّلت إلى أشكال. كانت تعرف أنه في مكان ما وسط هذه الأضواء في محطة سكك حديد "باولا"، ينتظرها الملازم "بوروجيفيتش" في زيّه العسكري، وفي يده وردة حمراء. نقلها بتوتّر من يد إلى أخرى تاركة في كفيه آثار شوك صغير. كان الأمر على هذا الوضع في كل مرّة، وتمنّت في قرارة نفسها لو أنه لا يحضر لها وردة، فالأمر على أي حال يكلفه ما فيه الكفاية كي يكسب وُدّها. فقد كان يحاول أن يكسب وقتًا بعيدًا عن الخدمة مقابل زجاجة شنابز للنقيب "موزيروفيتش"، حتى يمكنه البقاء معها حتى الساعة الرابعة، حينما يعود القطار إلى "ليوبليانا"، لكنه كان رجلًا نبيلًا، يرى أنه من اللائق لضابط في الجيش الشعبي اليوغوسلافي أن يستقبل فتاته السلوفينية بوردة، ثم يأخذها لكافتريا مجرية ويقدم لها قطعة كيك وكوب ليمون. يمسك بها وهما يتمشيان في شارع "أول مايو" والميدان العام، ويُقبّلها على خديّها في الساعة الثالثة والنصف، ويتمنّى لها عودة آمنة. من يدري كم من زجاجات شنابز حظي بها النقيب "موزيروفيتش"، وكم مرّة رأّت الفتاة السلوفينية "دوشا بودلجار" بالاهتمام نفسه المناظر نفسها من النافذة ذاتها في القطار الأخضر، والأضواء التي تتمدّد ببطءٍ، بينما آثار الشوك في كفي الضابط المتوتّر قبل أن يستجمع شجاعته ويُقبّلها على شفيتها للمرّة الأولى أثناء جلوسهما على دكّة في حديقة. هل فكّ حمالة صدرها بيده المرتعشة، وراح يتلمّس حلماتها المنتصبة؟ من يدري! هل استقبلها الملازم في يوم ما ببطانية صوف تحت ذراعه بدلًا من الوردة الحمراء، وأخذها إلى مكان مظلم

ومنعزل بدلاً من الكافتيريا المجرية؟ ربما فات الرفيقة "دوشا" قطار العودة، لعدم

قدرتها على أن تسحب نفسها من حضنه القوي المثير؟

بالطبع لم تتحدّث أُمِّي عن هذا، ولكنها تحدّثت عن كيف بدأت تشتري لزميلتها في العمل قطع الطوفي لكي لا تخبر مديريها في العمل بأنها تأخذ غفوات في مخزن صغير تابع لمحل الأحذية في شارع "تيتو"؛ لأنها كانت مجهدة من أخذها القطار يومياً تقريباً، ثم جريها بسرعة في الصباح من المحطة إلى العمل مباشرة. تحدّثت أُمِّي أيضاً عن كيف اعتادت زميلتها أن تغيظها بقولها إنها قضت وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية، ولربما تتوقع أن يقدم لها الدبلة بدلاً من الوردية. وكانت ترد بأنها تجد المتعة في ذلك، ولا تستعجل. تضيف أيضاً أن أي فتاة تخاف أن تتزوج رجلاً وسيماً مثله في زيّه هذا؛ لأن الفتاة حينئذٍ تكون غير متأكدة من أيهما تحبه أكثر؛ الرّبي أم الشخص الذي يرتديه.

قبل أن تتمكن "دوشا" من حل هذا اللغز، كانت زميلتها قد سئمت من عملها المتكرر، ومن الطوفي. لم يمض وقت طويل حتى وجد المدير موظفة المبيعات التي تعمل لديه مُتكوّمة كالطفل على الأرض، بين كراتين الأحذية في المخزن، في يوم ما بعد الظهر.

ولكن لأن المصائب لا تأتي فرادى، سمع الرفيق "بودلجار"، من البوليس السري سيئ السمعة من بلدة مجاورة، من القيل والقال أن ابنته المثالية التي تعمل في محل للأحذية بجديّة لكي تكسب قوتها، لم تذهب إلى كلية التربية من فترة طويلة. كان والد "دوشا"، "دوشان"، من نوعية خاصة. غادر بيته المتواضع على مضض، بعد أن أصيب بأزمة قلبية تسببت في تقاعده الإجماري عن وظيفته العريقة كقائد شرطة مخلص في

مدينة صغيرة نظراً لظروفه الصحية. ولكن عندما علّقت الرفيقة "ماريا بودلجار" - السكرتيرة السابقة في مدرسة ابتدائية التي تمارس هوايتها وهي مراقبة سلوك جيرانها الأخلاقي - في أحد الأيام بأنه لا يصح ألا يعرف الآباء ما يحدث لأولادهم، شعر "دوشان" أنه مُرغم على اتخاذ خطوة. لم يكن اختياره، ولكنه اندفع نحو هذه الخطوة بشكل احترافي.

لذلك لم تفقد "دوشا" عملها في أول مارس 1978 فحسب، ولكن "بودلجار" رئيس الشرطة السابق تأكد، بطريقته الخاصة، من أن أساليبها المتمردة يجب أن تُعاقب. فانتهت بأنها فقدت شفتها المؤجّرة بسرعة فائقة. في حين أنه ما زالت "دوشا" من الناحية النظرية طالبة مجتهدة، تقبل أبوها المهان مرارة قرارها بترك البيت. ولما كان الجيران يسألونه، كان يتظاهر بأنه فخور بها ويساندها. كان يقول الرئيس "بودلجار"، واضعاً ثقته في حياة الطالب الخاصة، التي هي مجهولة بالنسبة له:

- يحتاج الطالب إلى سلام تام، ويجب أن يكون قريباً من كليته.

كان هؤلاء الذين تحدث معهم يعرفون أقل مما يعرف. ولكي يتجنّب الاعتراف بأن "دوشا" فلتت من قبضته كأب، أقنع "دوشان بودلجار" نفسه والجيران بأن رحيل "دوشا" هو جزء من خطته الرئيسية.

لكن بيته غير الآمن بدأ ينهار من الليلة التي استجمع فيها الملازم "بوروجيفيتش" شجاعته، بعد استعداده طول المساء، وطلب من الفرقة في "بلكون الفندق أن يغنوا "مهلاً، مهلاً، مهلاً، لن نذهب إلى البيت الآن" (الأغنية السلوفينية الوحيدة في عروضهم) فيمكنه بذلك أن يرقص مع السائحة السلوفينية الجميلة. لم يمض وقت طويل حتى فقد الرئيس

"بودلجار" إيمانه في كذبتة. فأخر قشّة تمسك بها هي أن يحاول أن يغري ابنته بالعودة إلى البيت بأسرع ما يمكن، ويغويها بحلم العمل في مصنع محلي للجلود، والذي كان بالتأكيد نوعًا من العقاب لا تتصوّره.

لكن مكيدة خطة الإصلاح التي أعدّها بعناية أثبتت بوضوح أن الرفيق "بودلجار" لم يعرف ابنته المعرفة الحقيقية، على الرغم من إيمانه طوال السنين بأنها المُفضّلة لديه. إن هذا الجاسوس سيئ السمعة، الذي كانت تخافه البلطجية، لم يأخذ بجِدِّيَّة العناد الموروث الذي ورثه لـ"دوشا"، على الرغم من أن هذا كان يتداوله الناس من حوله. كانت خطة "بودلجار" أن يجبر صاحب العقار الذي تسكن فيه "دوشا" في "ليوليانا" بأن يقدم ضده تقريرًا ما دام هو وأمثاله لا يسجلون أنهم يؤجرون من الباطن. وهكذا يطرد "دوشا"، فتفكر أنها ستتشرد في الشوارع قبل أن تعود لأبيها ذليلة، لكنها بدلًا من ذلك اتّجهت مباشرة إلى المحطة وانتظرت القطار الأخضر للمرّة الأخيرة. كانت تحمل حقيبتين، رسم عنادها باقي القصة، فقد أصرت ألا تعود إلى بلدة أبيها مرّة أخرى، ولا حتى في يوم "غداء الأحد". انطلقت نحو الأضواء في "باولا" مؤمنة بأن الملائم سوف يكون في انتظارها بالوردة في يده التي بها آثار الشوك، على الرصيف رقم 2، وللمرّة الأخيرة.

لكن كما شاء الحظ، نسي الملائم "نيدلكو" أنه يوم الخميس، تلك الليلة التي يفترض أن تكون أهم ليلة في شبابه. شهدت أيّام الخميس طقوسًا خاصة في ثكنات "كارل روجك". في حوالي الساعة السابعة، بعد أخذ العقيد "نيفين براك" دُشًا ورشّ الكولونيا الإيطالية المهربة، ذهب لتناول العشاء في مطعم "فيشرمان شريد" مع عشيقته "زانا". كل الجنود في "باولا" على

علم رسمياً بأن ذلك العقيد الجيد في حالة استعداد دائم في الثكنات في أيّام الخميس، وأنه أيضاً يخون زوجته "إيفانا" بشكل غير رسمي، في الغرفة 132 في فندق "بريوني"، حيث تتم مناوراته الجنسية على مَعِدَة مملوءة بالحبار المشوي، والسَّلطة الخضراء، وزجاجة "براندي" أحمر، بينما الجنود يحرسون هذا السر كما لو أن إفشائه خيانة عظمى. إذا اتصلت "إيفانا"، وناذراً ما تفعل ذلك، فإنهم يخدمون وطنهم باهتمام بأن يشرحوا للزوجة، دون أي شعور بالذنب، أن "العقيد براك لا يمكنه التحدث في التليفون الآن"، باستثناء مرّة واحدة أخبر مجند جديد، من أصل ألباني، "إيفانا" بأن "العقيد في الثكنات، لكن ليس في الثكنات بالضبط". غير أن "براك" نجح في تفسير ذلك بقوله إن الرجل يستطيع التحدث بالصربية، لكنه لا يفهم ماذا يقول بالضبط، وبالتالي ظل السر سرّاً.

كانت هناك مكافآت لهؤلاء الذين حافظوا على سر أيّام الخميس، ليس فقط للذين كانوا يرددون على مكالمات الزوجة المخدوعة، بل وهؤلاء الذين كانوا "يراقبون النقيب" "موزيروفيتش" ولا يجعلونه يغادر الثكنات ولو مقابل شاي الصين كله". كما ترى، كانت "زانا" عشيقة "نيفين براك" مع النقيب "إمير موزيروفيتش" سابقاً قبل أن يكتشف، من هولته، أن في حياتها العديد من الضباط. فكان رد فعله أنه "لا يضيع وقته وجهده الجنسي مع العاهرات". إمّا، بالطبع، لم يستطع التغلب على شعوره نحوها، ولا أن يظهر الشجاعة حينما علم أنها على علاقة مع صديقه المتزوج "نيفين". على عكس "موزيروفيتش" متوقد العاطفة، كان "نيفين" يضيع وقته وطاقته الجنسية مع "زانا"، ولا يهتم بما تفعله ما دامت لا تفعله يوم الخميس، لكن أيّام الخميس كانت تقتل "موزيروفيتش".

أخيراً، انهار حينما رأى صديقه يستعد لإحدى ليالي الخميس، وهو يُصَفِّرُ أغنية "هذه ليلتنا". في البداية، شرب زجاجة براندي شنابز خاصة بالملازم "بوروجيفيتش"، وفي محاولة أبعد من ذلك، تأرجح بين رغبته في الاعتذار لـ"زانا" وهو راكع على ركبتيه عن كلماته القبيحة، ثم يطلب يدها أمام "براك"، وعُمَّال المطعم، ومَن تصادف وجوده من السَّيَّاح الألمان، وبين الاختيار الثاني، وهو أن يقذف بـ"براك" من نافذة مطعم "فيشرمان شريد" إلى البحر مباشرة. لكن بدلاً من تنفيذ أي من الخيارين بمساعدة الجنود الذين في الخدمة، نام في مكتبه، وأرجأ القرار الصعب لتنفيذه أو عدم تنفيذه إلى الخميس التالي. للأسف، جاء الخميس التالي الذي تركت فيه "دوشا" "ليوبليانا"، وكان الجنود الذين في الخدمة متناثرين لأن "فيلبوسكي" حامل الراية - والمفترض أنه في حالة الاستعداد - نسي أن يخبر كل واحد كيف تكون الخدمة يوم الخميس. لذلك كان "نيدلكو بوروجيفيتش" خارجاً من الثكنات، ولم يسمع أي شخير قادم من مكتب النقيب "موزيروفيتش". بعد دقيقة، أعلن "فيلبوسكي" أن "موزيروفيتش" غادر الثكنات وهو مخمور ويصرخ قائلاً: "سأذهب لأضاجع كل القوَّادين في المطعم والعاهرات اللاتي معهم"، أو بما يعني ذلك، وكان "فيلبوسكي" يعلم ما سيحدث. بدلاً من الذهاب إلى المحطة، اضطر "بوروجيفيتش" أن يسرع إلى مطعم "فيشرمان شريد" ليمنع مصيبة اجتماعية مجلجلة. وهذا يعني أن "دوشا بودلجار" ستبقى وحيدة على الرصيف رقم 2 من دون الوردة، أو يد مخربشة تستقبلها، للمرة الأولى، كبنت تائهة تحمل الحقيقتين.

لا أحد يدري هل بسبب أنها لا تعرف مكاناً تذهب إليه أم لأن شخصيتها هكذا، توجهت فتاة "بوروجيفيتش" السلوفينية إلى الثكنات.

اندفعت متجاوزة الحرس، كأنها موكب عسكري صارم، وكادت تصطم بالملزم "بوروجيفيتش" والعقيد "براك" وهما يسندان معاً النقيب "موزيروفيتش" السكران للغاية، وهو يُشخَّر بشدة. عندما رأى "دوشا"، أسقط "بوروجيفيتش" النقيب على الأرض، وهو مندهش، لدرجة أن وقوعه على الأرض أفاقه قليلاً. اعتقد "براك" أن "دوشا" سائحة تائهة فهمَّ أن يدلها على أقرب فندق، إلا أنها قالت:

- "نيدلكو"، تزوجني، بالله عليك.

في تلك اللحظة، بدأ النقيب "موزيروفيتش" في الصباح بشدة بأنه يجب ألا يذكر أحد كلمة الرّب في الثكنات، وأنه أمام هذا "العالم المثالي"، سيتزوجها الجميع لو أرادت، وأنه يأمر "نيدلكو بوروجيفيتش" بأن يتزوج هذه الرفيقة الشجاعة. ارتبك "بوروجيفيتش" جدًّا، ولكنه أخيراً أوماً بالموافقة. أسقطت "دوشا" الحقيبتين وارتمت بين ذراعي "بوروجيفيتش" المرتبك.

طلبت أمي الزواج من أبي يوم 9 مارس 1978، وتم الزفاف بعدها بيومين، يوم السبت 11 مارس، برغم تدخل صغير من الإشبين، النقيب "موزيروفيتش". فما زال يعالج أسوأ صداع أصابه في حياته، بينما العروس والعريس راحا يقبلان بعضهما بعضاً، أقسم لنفسه ألا يشتم الشابز مرّة أخرى، مقررًا أن يشرب براندي "بلوم" فقط من اليوم فصاعداً.



في واحدة من أطول الليالي في حياتي، لاحظ سائقنا "شكليكم الأدريسي" أنني لم أنم، فبدأ يشرح لي في صوت هامس أن الأضواء التي على اليسار آتية من المجر، والتي على اليمين من البوسنة، وأن الصرب و"فيودوفينا" أمامنا مباشرة، حيث لا نرى أي أضواء. وراح يخبرني بأنك إذا قادت السيارة من بلجراد أخذًا طريق "نيس" و"يوتسيش"، ستصل "كوسوفو"، وقريته، حيث ولد والد "فاضل فكري". حَيَّبت نظراتي غير المُعبِّرة "شكليكم" - لم أسمع إطلاقًا عن لاعبي كُرّة قدم كبار من "كوسوفو".

أخيرًا ساعدني الراديو الخاص به في عربتنا على النوم، ولما استيقظت، كان الفجر قد شقشق، وتوقَّفت عربتنا أمام فندق "بريستول" ببلجراد.





الآن أقف أمام العمارة التي - بناء على كلام "دوشا" - آخر ما سكن فيها
الجزال "بورجيفيتش". كانت العمارة تتميز بالأسلوب الاشتراكي؛ مبنى ضخم على
شكل مكعب، ذلك النوع الذي كان شائعاً في يوغوسلافيا السابقة. وعلى الرغم
من افتقارها إلى التناسق والمواد البنائية الرخيصة المستخدمة فيها، أثارت في
داخلي الشعور بالفخر لسبب ما؛ بسبب غموض طرازها المعماري والحياة
المتعلقة بها. عندما دخلت، استقبلتني رائحة مألوفة. انتابني انطباع بأنني كنت
في مكان مشابه، ولكن لم أستطع أن أتذكر أين ومتى، ولم يكن لديّ في تلك
اللحظة أي شعور بالحنين. فكّرت في أن مجرم الحرب لن يعيش باسمه الحقيقي،
لذلك بحثت عن أثر آخر للبحث عنه.

كانت العمارة عبارة عن شقَّتَيْن في الدور. تمكَّنت من سماع صوت الأطفال من شقَّة أسرة "كوراتش" في الدور الثاني وبطول المدخل. على دُواسة باب شقَّة "ميتروفيتش"، يوجد حذاء من جلد لامع، ولكنه أصغر من أن يكون لـ "نيدلكو". أما في الدور الثالث كان الجو أكثر هدوءًا. على أحد البابين لافتة "فوكموريفيتش وكيو"، بينما على الباب الثاني "دكتور محمد ديزدار". وبلا شك يمكنني أن أصرّف النظر عن هاتين الشقَّتَيْن؛ فأنا متأكد أن "نيدلكو" يعيش هنا، وأود لو يزال يعيش هنا، وحيّدًا في "برتشكو"، ومتأكد أيضًا أنه لا يجيد لعب دور طبيب، حتى لو كان مارس هذا الدور في الأكاديمية العسكرية سنين طويلة. لذا واصلت صعودي على السلم، حيث أسرة "تشيريلو" الصاخبة بالغّة النشاط، بينما يبشر باب "فاسا دورديتش" المقابل بأمل. اقتربت من الباب، ولكن لم أسمع شيئًا مغايرًا عن هرج ومرج أسرة "تشيريلو". صوت شخص ينادي "زوريكا"، و"زوريكا" ترد بصوت مرتفع بأنها ستأتي. في الطابق الأخير، مجموعة من أصص الزهور حول عتبة أسرة "بابيتش"، بينما هناك لفة من الصحف عند دُواسة أسرة "زدرافكوفيتش". راجعت التواريخ، كلها حديثة ترجع لأسبوع مضى.

تساءلت لو أن جزالًا هاربًا يسكن في هذه العمارة، أين شقته؟ حصرت العدد في ثلاث شقق؛ "ميتروفيتش"، و"زدرافكوفيتش"، ويبدو أنهما مسكونتان، وشقّة "دورديتش" التي يبدو أنها شاغرة. انتابنتي حيرة باعتقادي أنني على بعد خطوات من أبي المتوّف، الذي بُعث من جديد، وأدركت الآن فقط كم أنا متوتر وغير مستعد بشكل جيد للقائه. تملكني شعور، بصرف النظر عن الأمر، بأن أخرج من هذا المبنى المتهالك وأجلس

في سيارتي. أيقنت أن "نيدلكو" لم يعد يسكن هنا، فأسندت رأسي إلى الباب الذي لا تصدر منه أصوات. وفجأة، انفتح الباب المزخرف وطل منه شخص ما ناظرًا إلى الممر.

- عمّن تبحث؟

- مساء الخير، أبحث عن رجل محترم، لا أعرف اسمه.

نظرت إلى السيدة "بابتش" بارتياح، كأنني أتعاطى مخدرًا على دواسة بابها، أو أنني أقطف أوراق زهورها.

- الرجل نسي محفظته في البار المقابل للشارع، وليس فيها أي مستندات تدلُّ عليه، فأردت أن أعيدها إليه.

- لم يعد "توميسلاف زدرافكوفيتش" يسكن هنا منذ ثلاث سنوات.

أومأت. ولكن السيدة "بابتش" لاحظت نظرتي الجانبية على الصحف الملقاة على الدواسة.

- اعتاد صبي أن يأتي بالجرائد هنا، وحاولت أن ألقاه لأخبره بأن السيد "زدرافكوفيتش" رحل منذ ثلاث سنوات، ولكنه يأتي في مواعيد غريبة؛ لذلك أخذها لأقرأها وأعيدها مكانها، وبالتالي لا تجمع غبارًا.

ابتسمتُ نصف ابتسامة. فهناك شيء جميل في الموضوع كله لو كانت تقول الحقيقة. الصحف المجانية للسيدة "بابتش"، التي كانت موجهة سرًا لمجرم حرب، جعلتها مستفيدة من الحرب بشكل غير مباشر. هناك شيء مضحك جعلني أكتم ابتسامتي. والمضحك أكثر أن الجنرال "بوروجيفيتش" يتخذ اسمًا مُستعارًا من مطربه المُفضَّل "توما زدرافكوفيتش". كانت هناك لمسة شعرية في الأمر؛ إذ إنه يندمج مع أغنية "توما" الشهيرة "عشت معاناة الحياة"، ولكنني لم أستطع فهم واحد

بهذه العقلية. وفي "برتشكو" الحالية (أو على الأقل "برتشكو" التي قرأت عنها في بحثي) يتخذ اسمًا كُرواتيًّا، "توميسلاف". ربما اعتقد "نيدلكو" أن هذا يقلل الاشتباه فيه، فَمَن يتخيل أن يطارد رجل اسمه "توميسلاف" بتهمة حرق قرية كُرواتية؟

- ألا تعرفين أين يقيم السيد "زدرافكوفيتش" الآن؟

- لماذا تريد أن تعرف؟

بدأت السيدة "بابتش" تشكُّ مرَّةً أخرى، وتذكَّرت أن موضوعي الرئيسي ليس له علاقة بالسيد "زدرافكوفيتش"، لكن كان عن إعادة محفظته.

- لا يوجد سبب... فقط... أعرفه بالشكل.

نظرتها تقول إنني ما زلت في رأيها مُدمنَ مخدرات أو سارقَ زهور.

تفحصتني بدقَّة، وبعينين مُرتابتين تجعلان البريء يشعر بالذنب، على الرغم من أنني لم أسرق زهورًا في حياتي. قرَّرت أنه من الأفضل الخروج من هنا بأسرع ما يمكن. أظن أنها فضولية بما يتعلَّق بمصير المحفظة الوهمية المفقودة.

- هل أنت "فلادان"؟ من سلوفينيا؟

ازدادت دقَّات قلبي.

- نعم، أنا "فلادان" من سلوفينيا.

- كلمني "توميسلاف" عنك.

- فعلاً؟

- نعم، قال إنك هربت إلى سلوفينيا بعد الحرب، ولم يستطع الاتصال بك.

كان هذا صحيحًا.

- وكلِّمني أيضًا عن حكاية أسرتك. يا له من أمر محزن!

أومأت، لا أدري ماذا أفعل. لقد باح وجه السيدة "بابتش" بما تفكر فيه عن تحولي السريع من "فلادان بوروجيفيتش" إلى "فلادان زدرافكوفيتش"، بطل لحكاية ذاتية مفبركة من شخصية أكثر فبركة "توميسلاف زدرافكوفيتش". لا سبيل لي لمعرفة إذا كانت القصة التي قصّها عليها لها أساس من الحقيقة، أو أي شيء أتوقع أن تسألني عنه. أعتقد أنها كلها مفبركة، فقط لتمضية وقت في محادثة عابرة مع جار في الممر.

- تودُ تناول بعض القهوة؟



- أتعلم؟ لقد عرفتكَ على الفور. فهذا الشبل من ذاك الأسد، وعلى الرغم من لهجتك السلوفينية فأنت تقف مثله، وحواجبك التي لا تستطيع أن تخفي تعبيراتها مهما فعلت.

وضعت "مديحة بابتش"، التي كانت تعمل في المجلس المحلي منذ أعوام، بعض القهوة والبسكوت وكوبًا من مشروب زهر البيلسان. هذه المأكولات والمشروبات كانت بمثابة آلة الزمن بالنسبة لأمثالي؛ لقد أعادتني لأيام الطفولة. جلست إلى الطاولة في شقّة ضخمة من غرفتين، تسكنها هذه المسنة المتقاعدة. قديمة، ولكن منظمة. يمكنني رؤية مدينة "برتشكو" من نافذتها. مثلها مثل معظم المدن البوسنية، تبدو أكثر جمالًا من مكان مرتفع عمّا هي عليه في المستوى الأرضي.

- لديكِ منظر جميل من هنا، تستطيعين أن تري المدينة كلها.

- نعم، أستطيع أن أراها كلها، يا "فلادان"، يا ولدي. ولكنني لم أعد أعرف إليها كما اعتدت. يا له من عالم جديد! أسامحهم لكونهم صريين.

كان زوجي من الصرب أيضًا، ولكنه على الأقل ارتقى بإنسانيته. هؤلاء لا يشبهون أهلنا في "برتشكو"، أتفهمني يا "فلادان"؟

لم أفهمها، لكنني تذكّرت أن اسم أبي في هذه المدينة هو "توميسلاف"، وأن "مديحة" قد تكون مقتنعة بأنني مثلها لست راضيًا عن الصرب.

- هؤلاء الناس مختلفون. ماذا تظن؟ سوء الحظ جلبهم هنا من أماكن أخرى، أعرف ذلك ولكن... أحيانًا سلوكهم يجعل الناس يتعجبون. يسامحني الرب، لا أحد كان سيطاردهم لو أنهم كانوا أكثر احترامًا للآخرين.

- من الصعب أن يعيش المرء هاربًا، الناس لا يرتاحون لذلك.

- أعرف، صدّقني، أنا وزوجي هربنا كثيرًا في هذه الحياة. أحيانًا بسببي، وأحيانًا بسببه، وأحيانًا بسبب... أيًا كان. لم نشعر بالارتياح، لا مع الطريقة التي كُنّا عليها، ولا مع الأشخاص، أو المكان. انتهى بنا الأمر هنا. فكّرنا بيننا وبين أنفسنا، ما دمت أنا من هنا، وهو من الصرب، نستطيع أن... ولكن كما تعلم يا "فلادان" ما يقوله الناس. متى تركت مكانك، لم يعد مكانك بعدها.

- هذا صحيح، أعلم ذلك.

- في النهاية الناس يسألون أنفسهم إذا كان من الأفضل أن يذهبوا إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد، بالضبط كما فعلتم. من يدري؟ إذا كان من الأفضل بالنسبة لنا نحن الاثنين لو أننا ذهبنا إلى الدنمارك؛ لكي نلحق بـ"فاهيرا"، و"زلاتان". الجو بارد هناك. لا يحتمل.

- الأمر صعب في كل مكان.

- نعم. أنت تعرف أفضل مني. لا يمكن أن تتذاكى بعجرفة عندما يتعلّق الأمر بهذه الأشياء. بمعنى... سألت أبائك مليون مرّة أي شر أحاط به "توميسلاف"، لكي ينتهي به الأمر في هذه المدينة دون غيرها؟

- بماذا أجابك؟

- ماذا سيقول هذا المسكين؟ لقد قال لي: "مديحة، عزيزتي، تعرفين كم أعاني، فأخبريني هل كنت سأصبح أيسر حالاً في أي مكان آخر في هذه الدنيا؟". قلت له: "نعم، بالتأكيد. بؤسك سيتبعك في أي مكان ستذهب إليه، وهذا المكان مثل أي مكان آخر لتعيش فيه تعيساً". ولكن... عندما رحل، لم يُودّعني.

- أليس لديك أي فكرة أين ذهب؟

- ليس لدي أي فكرة يا "فلادو"، وإلا كنت أخبرتك. قال لي إنه سيرحل ويلحق بك في سلوفينيا، ولكن ليس لديه الأوراق الصحيحة، وإنه منتظر حتى تصل إليه من "سرايفو". مَنْ يدري، ربما حصل عليها، ولذلك رحل؟ ولكن من المفروض أن يخبرني إذا سافر إلى سلوفينيا، فهو يعرف أن لي ابن عمٌّ هناك.

- هل تصادف وكلمك عن أمي؟

- عن أمه "آجنيس"، وعنك، وعن أخيك "زوران"، وأختك "ميلينا"، وعن أسرتم التي تركتموها في الهرسك، و"سويتيتسا". كان يأتيني كثيراً بعد الظهر يشرب قهوة، ويظل مدة طويلة. كان يتكلم كثيراً. أحسست بأنه يشعر بالراحة عندما يتكلم، فكنت أتركه ولا أقاطعه. حتى إنه أحياناً كان يظل لوقت متأخر فكنت أعتقد... أنت تعلم، الناس يتخيلون أشياء. كان يحب أن يتكلم عنكم جميعاً، ولكن بالأخص أنت. ربما لأنه يعرف أنك الوحيد الذي نجوت.

دُغرتني "مديحة" كيف ورثت خيالي الواسع. لقد حكى "توميسلاف زدرافكوفيتش" قصصه بخيال واسع وبدقة؛ لأنها لن تضره شيئاً لو صدقها. أُلّف كذبتك الكامنة في بالك، فستلف وتغلف الحقيقة التي لا يمكن

احتمالها، التي سوف تحميك فيما بعد من الإحساس بالذنب أو أي شيء يعذبك. وهذا من شأنه أن يفسر أشياء كثيرة عن "توميسلاف زدرافكوفيتش"، وعن "نيدلكو بروجيفيتش" أيضًا. على الرغم من أنني لا أعرف شيئًا عن تقنية الحفاظ على الذات التي تُعلم في الجيش اليوغوسلافي. كنت أعلم جيدًا أنه لا وجود لقرية "فيستنجيتشي" في حياة "توميسلاف".

- سمعت كل القصص التي حكاها عنك، كيف أخذك إلى "باولا"، وإلى شاطئ البحر، وكيف كان يشتري لك اللعب من البائع الغجري. يا للمسكين! لقد كان حزينًا جدًا من أجلك يا "فلادان" يا ولدي. لست أدري أذلك لأنك الوحيد المتبقي؟ بل أحيانًا لا يذكر أحدًا من باقي الأسرة. فدائمًا يفعل ولدي "فلادان" كذا، ويقوم بكذا... أعتقد أنه تألم كثيرًا لأنه تركك تغادر "سرايفو" من دونه، ولم يغادر بعدك. ولكن كما قال، آنذاك، مَنْ يدري ماذا سيحدث؟ نعم حقًا. حتى لو سأني لقلت له ربما سيحكم "ميلوسفيتش" أطول من "تيتو"، ولكنه لن يحولنا ضد بعضنا بعضًا.

- كلنا اعتقدنا ذلك، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟

- على أي حال، أتريد أن ترى شقته؟



تشبه شقّة "توميسلاف زدرافكوفيتش" - حارس الحدائق ذاك المتقاعد من "سرايفو"، وقد انتقل إلى هنا مع أسرته من "فوكوفار"، قبل الحرب مباشرة - شقّة "مديحة بابتش". الاختلاف الرئيسي هو الشعور بالمكان. جو لسجن ممل يسبح في الهواء، كغاز يتسرب. ربما كان ذلك بسبب الموقد الصدئ المتروك على أرضية المطبخ، وطبق أحمر بجواره

موجود منذ ثلاث سنوات. وربما بسبب كومة الجرائد المصفرة في ركن في غرفة المعيشة؛ غرفة بلا تليفزيون، أو راديو، أو خزانة كتب خشبية مملوءة بالأواني الخزف أو الصيني. وربما بسبب عدم وجود ستائر، أو مفرش على طاولة السفرة، أو مزهريات في غرفة الجلوس، فقط علبتان فارغتان للسجائر وطفاية سجائر صغيرة. بعض القمصان المهترئة في الدولاب المفتوح في غرفة النوم، وبنطلون جينز ملقى على الأرض بجواره. غرفة المعيشة مفروشة بسجادة خضراء مبقعة. وبالحمّام ستارة دُشّ صفراء بالية. كانت من نوعية المكان الذي يسكنه رجل عادي مضطر.

تساءلت ربما رأى "توميسلاف" هذا المكان كزنزانة سجن فجعله هذا لا يكثر بالاهتمام به. ربما اعتقد أنه بالعيش في هذا المكان العفن، الذي يبدو كسكن لموظف بلدية متقاعد، يدفع ديبًا عليه للمجتمع، والإبقاء على هذا الوضع السيئ هو نوع من جلد الذات. أو أنه مجرد ابن عاهرة بئس لم يلاحظ هذه الفوضى وهذا الصدا الذي يعيش فيه. أيًا كان، لا نستطيع أن ندعي أن قضاء الوقت في شقّة من غرفتين ونصف يعادل الحبس الانفرادي.

أفقت من سُباتي الغريب، وتحركت مأخوذةً في هذا المكان المفترض أن يكون شقّة، موغلاً في قصة "توميسلاف زدرافكوفيتش". منظر مفاجئ؛ ألغاز "سودوكو"، مقطوعة من ورقة صحيفة ومحلولة بقلم رصاص ملقاة على الأرضية بجوار الكومودينو. دُكرتني أستيكة ملقاة على الطاولة أن "نيدلكو بوروجيفيتش" كان يحل مسائل رياضية في صحيفة "صوت إستريا"، مستخدمًا قلماً من الرصاص وأستيكة. أحيانًا كان يستغرق كل فترة ما بعد الظهر، ولا يسمع من شدة انهماكه صياح "دوشا" في المطبخ إذا أراد أن يأكل ما تبقى من وجبة الغداء.

- لا أعتقد أنني جئت إلى هنا منذ رحيله، رأيت الناس يأتون مرّات عدّة ويأخذون أشياء، ولكن ماذا أفعل؟ الآن لا أتذكّر حتى ماذا كان هنا، ولكنها كانت دائماً هكذا... خالية. كان لديه بعض الكتب، وأهديته ذات مرّة نبأً في أبيض. علمت أن لديه لوحة رسم. أظن أنها كانت معلقة أعلى كرسي بذراعين. قال إنه اشتراها من كشك بجوار سوق الخضار، وإنه أحب الرسام الشاب، وكان يظن أنه يفصل بشكل جيد، على حد قوله.

بينما كانت "مديحة" تبذل جهداً لكي تتذكّر بصوت عالٍ ذكرياتها مع الجار السابق، رحت أقلب بلا تركيز في ألغاز "السودوكو" القديمة. كلها محلولة، والأرقام دقيقة، وجميلة، كشفت عن رجل دقيق، يتناقض تماماً مع حالة شقته. يبدو أنه كرّس معظم وقته لحل "السودوكو" عن أي شيء آخر في حياته. لو حكمت من خلال عدد الألغاز لقلت إن "توميسلاف زدرافكوفيتش" لم يكن مؤهلاً لأي شيء آخر في فترته في "برتشكو".

- اعتاد والدك أن يقول إنه يحب "برتشكو" أكثر من خلال النافذة، من بعيد.

وقفت "مديحة" بجانب النافذة، وأخذت تتفحص الشارع في الأسفل، بشكل فضولي عنيد، لذلك لم تلحظ تأثير كلماتها المذهلة عليّ. لم أدر أي وجه منها كان أكثر تأثيراً. فقد أشارت إلى "توميسلاف زدرافكوفيتش" بأنه أبي، وأن "توميسلاف زدرافكوفيتش" نفسه لديه نظرية جميلة عن مدن البوسنة كما لديّ. تفكير تافه بلا شك، فهذا يحدث لكل واحد، ولكن على الرغم من ذلك، كشفت عن رابط سرّي بيننا أثرت أن يظل غامضاً.

كي أهدئ نفسي، نظرت مرّة أخرى لألغاز "السودوكو"، الشيء غير المألوف بالنسبة لي من ألعاب التسلية، حيث لم نتفق أنا والرياضيات

إطلاقاً. عندما يتعلّق الأمر بالأرقام، فأنا ابن "دوشا"، إنها تفشل في أبسط مسألة ضرب.

- ها هي "يلينا" ذاهبة إلى سوق الخضار، وكنت على وشك أن أذهب إليها لأطلب منها أن تحضر لي معها بعض الخيار... ماذا أردت غير ذلك... جزر... بقدونس، وبطاطس... لا أستطيع التذكر. يجب أن أتأكد، لقد توقّف عقلي. أعتقد أن هذا كل ما يخص الشورية. أما عن رقائق العجين، فسأطلبها منها غداً. هذا صحيح، عندما أذهب كي أرى "ندى" الليلة، سأتوقف بجوار بيتها و...

أخذت "مديحة" المرأة العجوز الوحيدة تستطرد في حديثها مع نفسها، بينما واصلت تحديقي في ورقة وجدتها بالصدفة مطوية بين ألغاز "السودوكو". ربما كانت مخبأة عن عمد بعيداً عن أعين الجواسيس.

كانت خطاباً موجهاً إلى "حبيبتى"، خط "توميسلاف زدرافكوفيتش" يشبه تمامًا خط "نيدلكو بوروجيفيتش"، وما أثار اشمئزازي أن أفكّر في أن "حبيبتى" تعني "دوشا تشرتش" الحالية، أو "مدام بوروجيفيتش" سابقاً، أو الآنسة "بودلجار" فيما قبل. فكرة أنّ "نيدلكو" يرى "دوشا" حبيبتة بعد موته رسمياً بهذه السنوات العديدة تبدو سخيفة بالنسبة لي، على الرغم من أنني لا أعرف لماذا.

ولكن ما يدعوا إلى الغرابة أن الفكرة راقت لي أيضاً، تلك الفكرة المروعة عن نار المحبة الأبدية المشتعلة بين مجرم حرب هارب ومديرة الموارد البشرية في مجمع طبي في "ليوبليانا". الهدف الأفضل لهذا الخطاب من الأرجح أن يكون لحبيبة غير أمّي. بأسلوبي غير الطبيعي، شعرت بارتياح عندما بدأت في قراءة الخطاب، وقد جلست على سرير "توميسلاف

زدرافكوفيتش"، ممسكًا إياه بيد مرتعشة، الخطاب الذي كتبه إلى "دوشا" منذ ثلاث سنوات.

"حبيبتى. يجب على "ج" أن يغادر فورًا، لذلك فكّرت أن أكتب إليك بعض الأشياء. الطريقة التي تجري بها الأمور، لن أبقى هنا بعد الآن. الأمور تستمر في التغيير، وأخبروني بأن أتحرّك، نوع من الحذر فقط. حتى نرى كيف ستسير الأمور. قال "لوزا" إن هناك أطفالًا جدّدًا قادمون، ولا يدرون مَنْ ينتمون. لا أدري كيف ستكون الظروف في مكان آخر، ومتى سأكون قادرًا على التواصل مرّة أخرى. ولكنني سأتصل، صدّقيني. أتمنى أن تكونوا جميعًا بخير، أنتِ و"ف". غادرت المنزل الليلة الماضية وذهبت إلى سوق الخضار، ومتجر. أصبت بنزلة برد لأيام عديدة، ولكنني تناولت أقراصًا لجهاز المناعة، وتحسنت الآن. فلا تقلقي. لم أعد أحس باحتقان في الحلق، أنا بخير. قرأت في الجرائد أن الأسعار ارتفعت عندكم منذ أن تم التعامل باليورو. سيكون الوضع هنا مشابهًا لو تعاملوا باليورو. الأسعار هنا مرتفعة حتى من دون يورو، ولكنني بخير حتى الآن. لقد قرأت أيضًا عن "بويان كريجاي". يقال إنه يعمل في اليابان".

إما أن "توميسلاف زدرافكوفيتش" وجد أن هناك أهمية للحديث عن "بويان كريجاي" واليابان لينهي الخطاب، أو الأرجح أنه لا يريد أن ينهيه. لم يكن "نيدلكو بوروجيفيتش" رجلًا مثقفًا بوجه خاص، والأسلوب الذي كتب به "توميسلاف زدرافكوفيتش" الخطابات كان كافيًا أن يؤثّر فيّ. ولكن في هذه اللحظة، لم أستطع أن أعيره أدنى اهتمام. لقد

كنت مشغولاً بشيء آخر في الخطاب. علاوة على اسم "كريجاي"، لاعب التزلج الشهير، واسمي، وأمّي "الحبيبة"، كان هناك اسم آخر مذكور في الخطاب، شخص يجب أن تعرفه أمّي. وقفت، وعينايا لا تزالان مركّزتين على الخطاب الذي لم ينتهِ بعد، كما لو أن كلمات أخرى ستقفز إذا حدّقت في الخطاب بقوة.

- هل وجدت شيئاً مثيراً للاهتمام؟

- لا أدري.

- لم يتبقّ شيء يا عزيزي "فلادو"، لقد أزالوا كل شيء. الجشعون. إنه أمر غريب ما حدث هنا. إنه... كيف أقولها... معتوه.

- هل لديك دليل تليفون؟

ليس لدى "مديحة" دليل تليفون. وغير مفيد أن أسألها عن كمبيوتر متصل بالإنترنت. شكرتها على كل شيء، ووعدها بمعاودة الاتصال لو أنني وجدت "توميسلاف". كتبت رقم تليفونها في قصاصة ورق ووضعتها في يدي. وقفت على الباب وهي تراقب نزولي على السلم.

عندما مررت بشقّة "فاسا دوردتش" الذي لم يزل يثير فضولي، نظرت خلفي إلى "مديحة"، التي ابتسمت ولوحت بلطف كالحالات والعمّات اللاتي يشعرن بالامتنان لزيارة أبناء وبنات أخواتهن وإخوتها، في زيارة عابرة. رددت بابتسامة ابن الأخ أو الأخت الذي يعرف جيّداً أنه لن يرى عمّته أو خالته مرّة أخرى.



لو أنك ألقىت نظرة إلى مدينة مثل "برتشكو"، من المستحيل أن تعرف إذا كان فيها "إنترنت كافيه" أم لا. لكنني لو أوقفت رجلاً من المارة بشكل عشوائي فسينتهي أمري من المؤكد عاجلاً أم آجلاً في قسم الشرطة. لذلك يجب أن أتحري هدي، وأبحث عن شباب في أزياء حديثة، لا يبدو عليهم أنهم خرجوا للتو من فيلم أبيض وأسود.

من سألتهم في البداية هزوا أكتافهم، ولكن بعضهم توقّف وأشار إلى اتجاهات متنافرة، لدرجة أن شخصاً سألني:

- كيف فكرت في اختيار مدينة مثل "برتشكو" لتصفح فيها الإنترنت؟
في النهاية، تذكّرت فتاة لطيفة بشعر أحمر تعرف شخصاً افتتح محلاً لهذا الغرض. أرشدتني إلى رجل عابس الوجه، ووجدتني أمام محل مكتوب عليه باعتزاز "أول إنترنت كافيه في برتشكو".

- لأي غرض تريد الإنترنت؟
لم أفهم السؤال، ولكن لحسن الحظ أدرك الرجل أنه يتعامل مع إنسان غريب فأردف:

- هذا الكمبيوتر مزود بكاميرا، ولكن مفاتيحه متعبة، فحروف الميم واللام والكاف ضائعة تماماً، ولكن إذا كنت تريد أن تكتب إيميلاً فذلك الجهاز الذي هناك أفضل.

- أريد فقط أن أتصفح شيئاً على الإنترنت.
- إذاً اجلس حيث تحب، فكل "الماوس" الموجود بحالة جيدة لأنها جديدة.
جلست إلى الكمبيوتر الذي من دون كاميرا. نقرت على الأيقونة وكتبت على المتصفح اسم "لوزا".



قال أبي لأمي بعد أن انتظرنا لمدة خمس عشرة دقيقة في مكتب الاستقبال
بفندق "بريستول" ببلجراد:

- لا تقلقي، سوف يهتم "لوزا" بالأمر.

لأننا عندما وصلنا لم يعرف أحد من هو أبي، أو من نستدعي ليرتب إقامتنا.
أخيراً سمع موظفو الفندق الغافلون شيئاً ما من شخص؛ إنها التعليمات الخاصة
بأسر الضباط بأن يقيموا في الطابق الثالث، ولكن لم يفعل أحد شيئاً حيال ذلك.
ولربما كانت حيرتهم بنية صافية؛ لم يكن أحد في عجلة لخدمة جيش دولة على
وشك التفكك. لم تكن الأسرة الوحيدة هناك، بل هناك عائلات أخرى في انتظار
حسن نية موظفي الاستقبال. ما جعل الموقف أسوأ هو الإدراك، من جميع
الأطراف، بأن الموقف الحالي استثنائي من الأوجه كافة، ونداء الواجب هذا يختلف
عن كل النداءات السابقة.

- عادة لا تحدث مثل هذه الأشياء بين يوم وليلة.

هكذا تمتمت سيدة ذات شعر مموج وأنيق، زوجة عقيد من "زادار"، من المؤكد طوله يبلغ مترين. أثناء ذلك، أضافت ابنة عقيد من "كارلوفاتش" نحيفة ذات وجه شاحب كم هو غريب أن تؤمر أسرة أيضًا للتحرك على الفور. وأضافت السيدة ذات الشعر المموج:

- عادة ما تكون هناك شقق في شارع عريض تكتنفه الأشجار في انتظارنا.

ورفعت صوتها قائلة:

- عادة ما يعاملنا عمّال الفندق باحترام أكثر.

آملة أن يسمعا أحد من السادة الحاليين الذين في يدهم مصيرنا. لكن يبدو أنهم أعضاء من هذا الجيل الغريب، فتصرفوا بناء على ذلك. أخذ أبي - والذي كان توتره واضحًا والمنعزل عن الآخرين - يمشي ذهابًا وإيابًا، وأحيانًا يوسع الخطوة أمام أمي وأمامي ويعيد رد الفعل نفسه للموقف بقوله:

- لا تقلقي، سيهتم "لوزا" بكل شيء.

كان ذلك لقب والديّ على "أمير"، الكابتن "موزيروفيتش"، الذي ترقى في غضون ذلك إلى رتبة عقيد. كان يُطلق عليه "لوزا"؛ بسبب هذا الكم الذي يشربه من شنابز العنب ماركة "لوزافاتش" بسبب قلبه المحطم. لم يكن متزوجًا، وليس لديه أطفال، وحياته موهوبة للجيش الشعبي اليوغوسلافي، والسبب الوحيد لعدم ترقيته لرتبة جنرال هو أن رؤساءه كانوا يخافونه.

كان العم "أمير" أطول من أبي بنصف شبر تقريبًا، له أعرض كتفين في البلقان. عندما كان يتمشى في "باولا"، وهو مكتئب، كان الناس يتجهون إلى الجهة الأخرى من الشارع ليصبحوا في مأمن. وإذا جاء لزيارتنا، كان الأطفال

الذين يتسكَّعون أمام العمارة يلتزمون الصمت وينتظرون حتى يدخل. أما في شفتنا فكان يجلس دائماً على الكرسي ذاته، الرابع حول طاولة السفرة، لذلك كان يُدعى "العم الطيب". بعد شرب بعض من كاسات "براندي بلوم"، كان يقنع والدي ليغني معه أغنية "هذه أغنيته". لا أستطيع تذكر أي الزيارات لم تتَّسم بالأداء المشترك للعقيد "بوروجيفيتش" والعقيد "موزيروفيتش"؛ وهما يغنيان وأذرتهما حول أكتاف بعضهما بعضاً.

كان "أمير" الوحيد الذي يعرف الحقيقة. بعد هذه السنين، لم يُح لأبي شخص، ظل منطوياً وغامضاً، حتى مع أبي. تغاضت "دوشا"، التي لا تتحمل المنطويين، عن هذه الصفة فقط له لأنه يحب زوجها جداً. وكان في لحظات الإفراط في السُّكر يحب أن يقول إن "نيدلكو بوروجيفيتش"، وزوجته الجميلة "دوشا"، وابنه العزيز "فلادان" هم فعلاً أسرته الحقيقية، وعلى استعداد أن يفعل من أجلها ما لا يمكن أن يفعله لأخيه، لو كان لا يزال له أخ. لم نعرف إطلاقاً أنا وأمِّي ما الذي فعله أبي ليجعل هذا الرجل الغامض يحبنا هكذا، ويزورنا دائماً، ويشرب شنابز، ويغني أغاني رومانسية حتى الساعات الأولى من الصباح. كل ما عرفته أن أمِّي في النهاية تعبت من زيارته.



- لا تقلقي، "لوزا" سيقوم بـ ...

بدأ أبي يرددها للمرة الثالثة، ولكن أمِّي قاطعته بنظرة يمكن أن تُسمِّره مكانه، وتذخر بعواقب وخيمة. عندئذٍ صار الاحتمال الأرجح أن "لوزا" لن يهتم بأي شيء، كان الموقف أكبر من سُلطته الهائلة، أشد

خطورة من الوقت الذي كان يتدخل فيه حتى أننا لا نستطيع التحرك أيضاً إلى "بيتولا". لم أعرف مُطلقاً إذا كان أبي يصدق كلماته، ويثق في مساعدة "لوزا" أم لا، ولكنني لا أعتقد أن أبي بهذه السذاجة ليصدق دائماً ما يخبره به رؤساؤه. يحب أن ينتظر الأوامر، ويتصرف بناءً عليها، دون تفكير، لأن هذا ما أنشأه النظام عليه، والعقيد "بوروجيفيتش" الممنون يحترم ذلك، ويسلم بكل ما يُؤمر به. لم يكن هناك ما يدعو لتصديق "لوزا" في حد ذاته، ولكن سيكون كل شيء على ما يُرام لأنه لا شيء يخالف ذلك في عالم الضبط والربط هذا. لو أنه كان قلقاً من شيء، فهو من وجودي ووجود أمي الأقل انضباطاً، وخوفه الصامت من كيف نتعامل مع هذا التغيير السريع والمهم.

كنا لا نزال نجلس في بهو الفندق المُزدحم، عندما وقفت عربة عسكرية أمام الفندق، وأعلم جندي صغير الضباط "بوروجيفيتش"، و"لوكوفاك"، و"ماركوفيتش"، و"جرايبتش" أن توصيلهم للثكنات قد حان، فاشتكى "ماركوفيتش" بأنه من الأنسب لضباط الجيش اليوغوسلافي أن ينتظروا حتى يتم تسكين أسرهم في الفندق، بينما توجه كل من "جرايبتش"، و"لوكوفاك" إلى العربة على الفور. وقف أبي وراح يشير إلى القدير "لوزا" مرةً ثالثة، وحضن أمي وهمس:

- كل شيء سيكون على ما يُرام.

ولكن كل ما أجابت به برود وابتسامة مصطنعة:

- عليكم اللعنة جميعاً.



لذا ظللنا أنا وأمِّي في فندق "بريستول". عادت إلى عالمها الداخلي المنعزل، أما أنا فكنت مثارًا بسبب وجودي، في يونيو 1991، في فندق في بلجراد بدلًا من الشاطئ في "باولا". اعتدت أن أقضي كل عطلاتي الصيفية في شقَّتنا القديمة المملَّة، وكنت أحسد في كل صيف كل السائحين الذين يملؤون الفنادق، ويسبحون في أحواض السباحة في الفندق بينما نحن أطفال البلدة لا يُسمح لنا بذلك. بالنسبة لي، غرفة فندق بتلفزيون كبير جديد تشاهده وأنت في السرير كأنه حديقة ترفيهية. كنت معجبًا بالسجاد، والحمامات الواسعة دون أن ترى سخانات، أو أكوام من الغسيل، ومواسير الدُّش بدلًا من البانيو، والبلكونات، والكراسي المزخرفة، وطاولات القهوة. لقد فقدت لحظات طفولتي التي تمثَّيت فيها لنا نحن الثلاثة أن نذهب إلى فندق أكثر من أي شيء آخر، غرفة فندق كبيرة ونظيفة، ونسبح في حمَّام سباحة مغلق في فندق "بريوني" طوال الأسبوع، بدلًا من الإصرار على الذهاب إلى الشاطئ أسفل المنارة، نفرط في تناول الطعام في بوفيه الصباح، كانت لعبة جميلة حقًا. لم يكن في فندق "بريستول" حمَّام سباحة مغلق، والغرفة التي سكنها أنا وأمِّي أخيرًا لم تكن كما في الإعلان الذي جذب السائحين من كل أنحاء العالم إلى "باولا". حتى إن أكثر شقق الصيف تواضعًا هناك، تلك التي أراها في طريقي إلى الشاطئ، أروع من غرفتنا رقم 211. تحتوي هذه الغرفة على سريرين ملصقين بالجدار، عليهما بطاطين صوف رمادية، وتلفزيون صغير، وحمَّام صغير جدًّا مهممل، وباب شهد أيامًا أفضل قدِّمًا يحك في الأرضية، وجدران كان من الممكن أن تأخذ طبقة جديدة من الدهان.

منطقي أن أمِّي لم ترتاح ببقائها كثيرًا في هذه الغرفة الخائفة، وأنا لم أشعر بالرغبة في التجوال في بلجراد. لذا تركتني في الغرفة وخرجت لتشم الهواء، فمكثت أطول ليلة في حياتي، جالسًا على حافة السرير، أقلب بين ثلاثة برامج، بحثًا عن الكرتون، ثم قرّرت أن أشاهد الأخبار لتكون أفضل الخيارات المتاحة.



في صباح اليوم التالي، وافقت أن أخرج في جولة في المدينة مع أمِّي من أثر الملل. تمشينا في صمت من شارع ممل إلى آخر يشبهه تمامًا، مارين بمنازل بلجراد الضبابية، ثم حديقة باهتة الخضرة، ثم تمشينا لوقت أطول في طريق جانبي لشارع كبير يسير فيه الترام. لم أسأل أين نحن، ولم أهتم بذلك. بعد أكثر من ساعة، توقفت أمِّي أخيرًا أمام عمارة شعبية بالطوب الأحمر، وصعدت درجات المدخل. نظرت في أسماء الصناديق البريدية، وفي النهاية وجدت "ملادونيفيتش"، ثم ابتعدت، وتراجعت إلى الخلف، وهي مترددة. ولكن لما رأته ولدًا وبناتًا يقتربان من المدخل، انتفضت كأنها سرى في جسدها تيار كهربائي، وأسرعت إلى الشارع وتجاوزتهما، دون أن تنظر حتى لترى إذا كنت أتبعها أم لا.

واصلنا سيرنا بلا هدف، وقالت لي في هدوء إن صديقتها "جوكا"، التي زارتها ذات مرّة بعد المدرسة الثانوية، تسكن في هذه العمارة بجوار شارع عريض يُسمّى "البوليفارد". كانت "جوكا" ملادونيفيتش زميلتها في المدرسة الثانوية في "ليوبليانا"، وانتقلت مع والديها إلى بلجراد. والآن تخمن بأن أم "جوكا" - التي كانت تعرفها باسم العمّة "زدينكا"، والتي

كانت تُعرف في "ليوبليانا" بأنها السيدة المشهورة من بلجراد - تسكن هناك. فرمًا تزوجت "جوكا" وغيرت اسم العائلة. كانت أُمِّي تستطرد دون أي محاولة جادة لتجعلني أفهم.

عندئذ اعترفت بأنني تعبت، فعدنا إلى الفندق. بعد الغداء، خرجت للتمشية مرّة ثانية، وظللتُ وحدي في الغرفة حتى المساء، ثم عادت، وأخذت دُشًّا، وتمدّدت على السرير في صمت. أخيرًا، نامت. حتى في ذلك الوقت فكّرت أنها تتعمد أن تستنزف نفسها. برغم أن مظهرها الخارجي ينم عن امرأة قوية، وحاسمة، وتتسم بعناد "بودلجار"، فهي في الحقيقة حساسة وسريعة التأثر. فكلّمة واحدة غير مناسبة من أبي تجعلها لا تنام طوال الليل.



استمرت على عزّلتها لأيام عديدة، وبعد وقت قصير، لم تعد توقظني عندما تترك الغرفة. أحيانًا تعود على الغداء، وأحيانًا تظل حتى يفوتها العشاء، ولكن من الواضح أن "دوشا" لم تستطع، بل لا ترغب في أن تعيش في فندق "بريستول" في بلجراد. ظل أبي يتّصل بنا كل يوم في الأيام القليلة الأولى. كان يشبه مذياع الراديو، يلقي بأسئلته ماذا نأكل، وهل أُمِّي تأخذني للحدائق، وقلعة "كالمجدان"، وجبال "أفالان" وأسماء الشوارع التي أعرفها من لعبة بنك الحظ، لا من الواقع. أصبحت أسئلته تزداد غباء كل يوم. كنت أخشى في النهاية أن يتحدث معي كرضيع صغير. لم يكن هذا الأمر بعيد؛ فقد سألتني: "هل سألت عن بابا؟". كان يتحدث مع أُمِّي لمدة أطول، لم أستطع أن أعرف ما يتحدثان فيه بالاستماع فقط إلى أُمِّي،

غير أنه لم يكن بهذا الغباء معها. تجلس أُمِّي أحيانًا لمدة خمس عشرة دقيقة، على حافة السرير، ممسكة بالسמاعة على أذنها، منصتة للصوت في الطرف الآخر، تهمس أحيانًا بـ"نعم" أو "لا"، ولكن في الغالب تهز رأسها فقط. تغلق عينها، تتنهد، صار هذا رد فعلها عندما لا يعجبها ما يقوله أبي. مع كل ما يحدث، لم يكن أمامي خيار سوى أن أدمج قدرة أُمِّي على عزل نفسها وخيال أبي الواسع، مبتكرًا عالمًا خياليًا في رأسي الموحش، والمرتبك بسجن الفندق؛ عالم من كُرة القدم، في مُخيلتي. اخترعت بطولة كُرة قدم مفصلة، بالنوادي واللاعبين، والحكام، ولعبت مباراة بعد أخرى بكُرة مطاطية وجدتها، وجعلت من باب غرفة الفندق المرمي. مررت الكُرة لنفسي، وتغلبت على المدافعين غير المرئيين، وعلقت على اللعب بنفسي، بأسلوب المُعلِّق الذي أُفضُّه. حتى إنني قُلدت هتاف الجمهور، وقمت بتقديم الإعادة البطيئة، وأعطيت بيانات ما بعد المباراة لوسائل الإعلام غير الموجودة من الأساس. للترفيه عن نفسي واستنزاف طاقتي المكبوتة، نظمت، من أصغر التفاصيل، مسار نادي "باولا" الذي اخترعته وسميته "باتينايجيو"، حتى قمة الاتحاد اليوغوسلافي. ألفت السير الذاتية للاعبي النوادي النجوم، بجانب صفاتهم الشخصية. من بين أفضل اللاعبين، على سبيل المثال "ألين دينو"، في الثانية والعشرين، من "روفينج"، أمل يوغوسلافيا، بل والعالم كله في كُرة القدم. سريع لا يمكن إيقافه إذا انفرد، له قدم يُسرى قاتلة، عندما أعلم المُعلِّق مشاهدي تليفزيون "فلادان" بأن الكُرة المطاطية وصلت إلى "دينو"، تحولتُ إليه، ورقصتُ لأعبًا، واثنين، وثلاثة وسددتُ الركلات في باب غرفة الفندق. لو أنني سددت في حافة الباب السفلي لجنون المُعلِّق، وهبَّ الجمهور واقفًا على قدميه. أخذت

أجري حول الغرفة 211، رافعًا يدي إلى أعلى، محتفياً بهدفه الثالث عشر في عشر مباريات. لعبت ثلاث أو أربع مباريات يوميًا، ثم استلقيت على ظهري على السرير، ألهث وأنصَبَ عرقًا، عابرًا بسرعة على تعليقات وتحليلات النتائج، معلنًا عن المباريات القادمة، تحدثت عن اللاعبين الجدد، واخترت المنتخب اليوغوسلافي، وحللت الانتقالات المحتملة.

عشنا أنا وأُمِّي في تلك الفترة في بلجراد في عالمين موازيين. أنا في عالم كُرّة القدم، وهي في عالم السياحة. كان لها عالمها خارج نافذتها، وأنا لي عالمي من داخل نافذتي، لم أعد أسألها أين تذهب كل صباح أو بمن تلتقي، ولا هي تسألني عمّا أفعله طوال اليوم بين جدران الغرفة. أعرف أنها لم تردني أن أركل الكُرّة في الغرفة، فرما أكسر مصباح الطاولة. لم تدعني على الإطلاق أن ألعب في شقَّتنا في "باولا"، ومتى ازداد صخبي، أخرجتني إلى الحديقة الخلفية، وهذا هو علاجها لنشاطي المفرط. ولكن في يوم، عادت أُمِّي من جولتها في المدينة بعد الظهر مباشرة، عندما كان "مارتيني"، شريك "دينو" في الهجوم، وجد نفسه في فرصة ذهبية لتسجيل هدف فاصل في مباراة مثيرة ضد "فوتشكو" من "سرايفو". في ذروة المباراة، رميت بنفسي وراء الكُرّة المطاطية، في محاولة إنقاذ يائسة بصفتي حارس مرمى مُعارضًا، منقذًا الفريق البوسني الزائر من هزيمة منكرة. لذلك عندما انفتح باب الغرفة 211، كنت مستلقياً، ألهث، ووجهي محمر، على الأرض بجوار السرير. شعري ملتصق بجبينني، تتساقط حبّات العرق على حواجبي، وتنتشر بقع العرق حول إبطي. لم تكن هناك لحظة أسوأ من ذلك لتدخل عليّ فيها. لكنها اختارت ألا تنتبه. تحوّل خوفي من أن

تفقد أعصابها بسبب الضجة التي أقوم بها إلى خوف بأنني لم يعد لديّ وجود
وأني أصبحت الآن غير مرئي بالنسبة لها.
شعرت فجأة، وأنا مستلقٍ على أرض الغرفة 211، بأنني ليس لي أب، ولا أم،
ولا أصدقاء، ولا أحد ينتبه لي في الفندق، ولم يعد أحد في العالم يهتم بي. لذلك
ظللتُ مستلقيًا، منتظرًا حتى تخرج من الحمام، شعرت بأنني غير مرغوب فيّ،
وحيدًا، فوعدت نفسي أن يكون فندق "بريستول" آخر فندق أحط فيه قدمي.





عندما أيقظني التليفون في الصباح، لم أستطع في البداية أن أتذكّر أين أنا. تفحّصت المكان من حولي، فلما رأيت التليفزيون على الطاولة، عرفت أنني في غرفة فندق، وأني في الليلة الماضية كسرت عهدًا لنفسي عمره ستة عشر عامًا. تناولت التليفون.

- أين أنت؟

إنها مكاملة من العالم الآخر؛ فالمسافة بيننا لا تقاس بالكيلو مترات فقط. في صباح أحد الأيام، تركتُ "نادية" النائمة في عالم أحسستُ أنني لم أعد أنتمي له. في مكان ما على الطريق، عبرت حدودًا غير مرئية، ودخلت حياة قديمة منسية، ولم أعد متأكدًا إذا كنت "فلادان" الذي تريد "نادية" أن تسمع منه.

- في "غورازدة".

- أين؟

لم تكن مستعدة لتتلق بالأسؤال المُعلّق بيننا عمّا أفعله بحق الجحيم في تلك المدينة التي لم تسمع عنها مُطلقًا، ولا مستعدة لتسمع الإجابة. الإجابة

التي لم أستطع النطق بها. بالأمس أدركت أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على إخبارها بالقص المملقة، وكان واضحًا تمامًا أنني لا أملك شيئًا آخر أقدمه. القصة الوحيدة التي ليست مُلَفَّقة، حياة وسنين "فلادان بوروجيفيتش"، فقد سُحقت وتناثرت، ولم يستطع المستمعون أن ينتبهوا لها. ليس في وسعي سوى الصمت.

بعد لحظات صمت مؤلمة، أغلقت "نادية" الخط. أدركت أنني حُجبت نفسي عنها، بالطريقة المثيرة للشفقة لنفسها التي حُجبت بها "دوشا" نفسها عني ذات مرة. تذكّرت إحساسي بالسجادة المتسخة تحت ظهري العرقان على أرضية الغرفة 211، وأنا أنتظر أمي تخرج من الحمام لكي تراني، وأنا أبكي لآخر مرة أتذكرها في حياتي. في الغرفة الباردة في فندق "بحار" في "غورازدة"، شعرت بدعر صبي صغير وحيد، مطعون في ظهره بفكرة أن أمه لم تعد تهتم به، وأنه وحيد في خضم مقاطعة شاسعة. أحسستُ أن "نادية" تبكي بالطريقة نفسها التي بكيت بها حينئذٍ، ألثت ووجهي محمر، والعرق على حواجبي، وشعري الملبّد ملتصق بصدغي.

وعندما خرجت أخيرًا "دوشا" من الحمام، لم تعانقني أو تهددني؛ لأنني كنت قد مسحت دموعي وأخفيت عنها، كما أفعل دائمًا. لم أعاود الاتصال بـ"نادية" لنستأنف حديثنا، أملًا أن تكون في الجانب الآخر من خط التليفون الذي انقطع الاتصال به، تمسح دموعها وتخفيها عني.



فتحنت التليفزيون، أثناء تصفّحي للقنوات، توقّفت عند قناة "بيه لينا"، مستمتعًا بحقيقة أن "بيه لينا" لها تليفزيون خاص بها، أو ربما

لأنني كنت شغوفاً بالبرامج المتاحة للمقيمين في هذه البلدة الصغيرة في الأراضي الصربية، أو ربما لأنها القناة الوحيدة غير المشغولة في ذلك الوقت بمجموعات الفولكلور أو مقاطع الموسيقى التي تحتوي على تسجيلات لصوت الشلالات. بفضل الأقدار الساخرة، تشرفت بأن أرى شيئاً ما كنت سأصدق أنه موجود، لولا أنني رأيته بعيني.

في قرية قريبة من "بيه لينا"، تجمع الأقارب، والأصدقاء، حتى القس لاستقبال بطل من أهل البلد، عائد بعد ثمانية أعوام مباشرة من المحكمة الدولية في "لاهاي"، حيث كان مقبوضاً عليه بتهمة ارتكاب جرائم حرب، أثبتها عليه المجتمع الدولي الشرير الفاسد، على الرغم من أن أقاربه أقسموا برحمة أمهاتهم على أنه لا يمكن أن يؤدي ذبابة، وأن حبيهم "ميلان" معروف بأنه فاعل خير.

كان هذا - أو هكذا بدا الأمر - بداية تقليد جديد، يمكن إضافته لمناسبات الزواج والجنائز في القرية. ملأ القرويون الطاوات بأشهى المأكولات وزينوها بالزهور من أجل "ميلان"، الذي كان صامتاً بما يلائم هذه المناسبة الخاصة. كان هناك صحفي متعاطف لم يوجه له أي أسئلة مزعجة، ولكنه تركه يستمتع بدفاء وحفاوة الوطن الذي اشتاق إليه لمدة ثمانية أعوام في سجن هولندي بارد.

كان من الغريب مشاهدة هؤلاء الناس الذين لم يشكوا للحظة واحدة طوال هذه السنين في عزيزهم "ميلان"، وكانوا مقتنعين تماماً بمؤامرة المحكمة الأجنبية، وقضاتها الهولنديين بباروكاتهم البيضاء ضده. لو أنهم عرفوا "ميلان" كما عرفه أصدقاؤه وجيرانه، وهو صبي صغير، لأيقنوا أنه لا يمكن أن يسرق تروسيكل، ناهيك عن ارتكاب جرائم حرب، مهما كان

يعني ذلك. لذلك أعاد كل قروي صياغة هذه العاطفة، كل بكلماته. في الوقت نفسه قدموا أنفسهم متطوعين كضحايا، شاركوا ذلك بكل إخلاص معي، أنا المشاهد العابر لقناة "بيه لينا"، الألم الذي أصابهم ظلمًا وعدوانًا. حسدتهم فورًا على إيمانهم ببراءته، وثقتهم في هذا الرجل الذي يجلس بتواضع وغموض، في ركن من أركان الغرفة، لا يتحرك إلا ببطء ومن وقت لآخر، مختلسًا النظرات في أرجاء الحجرة برعب. ما زال يتوقع انتهاء هذه الأجواء الرسمية ويكتشف أن كل ذلك كان مجرد حلم. بدا هذا الشاب للوهلة الأولى مختلفًا تمامًا عن مجرم الحرب، ولكنني في غرفة فندق في "غورازدة"، أثق في المدعين العموم الذين من "لاهاي" أكثر بكثير من الاحتجاجات المبهجة التي أطلقها العم "بيلا".

أصبحت حقيقة المكان الذي أبحث فيه عن والدي تتضح ببطء. فهو محكوم بقوانين مختلفة، ومدروس بعقلية مختلفة. كان من الممكن أن أتفهم هنا "نيدلكو بوروجيفيتش"، و"توميسلاف زدرافكوفيتش"، ولكن لسوء الحظ أنتمي لعالم آخر غير الذي أشاهده في التلفزيون بشك. عالم أجبرني أن أقنع نفسي، أكثر وأكثر، أن ما أراه حقيقة، وليس مسرحية كوميدية سريالية.

في هذه اللحظة، وللمرة الأولى، شككت أنني قد أفهم ما حدث هنا، ولماذا. فالناس هنا يحتفلون بلا حياء بعودة متهم بجرائم حرب إلى قريته الأصلية، أمرهم غريب ومفقود منهم الأمل. فبمشاركتهم لهذه اللحظات معي، كمشاهد لقناة "بيه لينا"، يثير خوفي مما قد ينم عنهم أكثر من ذلك، ما داموا يتفاخرون بهذه اللحظات أمام العالم.

أغلقت التليفزيون قبل أن ينتهي البرنامج؛ لأنني لم أرغب في سماع موجز الأحداث الذي سيديلي به الصحفي للمشاهدين، فقد تجرّعت من السم ما فيه الكفاية، وأمامي يوم مكتظ بالعمل.



قال موظف الاستقبال في فندق "بحار" ببساطة وطيبة:

- ما الذي تبحث عنه يا فتى؟

ثم سألني إذا كان ديسكو "توريست" ما زال موجودًا في "ليوبليانا" أم لا. فجأة تحوّل الكرم الإنساني إلى حنين متدفق، فقال:

- لقد أديت خدمتي العسكرية في "ليوبليانا".

واستطرد ليخبرني بكل الأماكن التي كان يحب أن يزورها. وعندما قال بصوت منخفض إن سينما الكبار "سلوجا" سيطرت عليهم من مدة طويلة، غمز لي. كنت متأكدًا تمامًا أنه يمكنني أن أنام في فندق "بحار" مجانًا لو تركته فقط يحن قليلًا لتلك الذكريات البسيطة ذات أثر كبير.

بعد وقت طويل جدًّا، لفت انتباهي إبحاره السخيف في الماضي فسألته، بصفتي الآن صديقه، أين يمكن أن أجد "أمير موزيروفيتش". ولكن بمجرد أن ذكرت الاسم، تغير الموظف فجأة لشخصية جادة. وما زاد دهشتي أنه تحوّل إلى الشخصية التي كنت أهابها في البداية؛ الشخصية القذرة ما قبل الحرب، والتي ازدادت قذارة في الحرب. فقلت:

- هل سمعت سؤالي؟

اتخذ الموظف الآن مظهر البلطجي الفاشل المثار من شخص نحيف مثلي لا يمكن علاجه. وعلى الرغم من كل هذا الحنين للأيام القديمة،

وسينما "سلوجا"، كان رشيقيًا أنيقًا من البلقان، في الخامسة والأربعين تقريبًا. وجوده يثير الشفقة. أخذ يمارس سلطته المخولة إليه على شاب سلوفيني نحيل متعب عابر سبيل.

- لقد كان صديقًا لوالدي.

واحتجت إلى وقت كي أستعد قبل أن أنطق "نيدلكو بوروجيفيتش" أو "توميسلاف زدرافكوفيتش"، ولكن لما تقمَّص الموظف الشخصية "ستيفن سيجل" خلف المكتب، شعرت بأن تلك اللحظة مناسبة، على الأقل لفترة مؤقتة، لنقول إن "نيدلكو" هو أبي.

- مَنْ أبوك؟

فهمت السؤال. وفجأة تحوّل "سيجل" المرتعب الآن إلى قلق لأن أبي شخصية مخيفة"، والذي لو سمع بموقفه "لقذف به وراء الشمس"، أو حتى لو كان أبي أستاذًا لاتبنيًا عجوزًا متهاكًا لأخبر "سيجل" بأن يذهب إلى الجحيم.

- الجنرال "بوروجيفيتش".

ليس لديّ صبر على هؤلاء الذين ينفخون أنفسهم بالكلام الفارغ ويفرغون أسرع من انفجار البالونة. أعلم أن كلمة جنرال ستجعله يعود إلى حالته الأولى، وتحدث معًا مرّة أخرى كصديقين يمارسان العادة السرية في البلكونة الخلفية من سينما "سلوجا". اتّضح أنني كنت على حق.

- لماذا لم تقل ذلك؟! كلهم يأتون إلى هنا، ولكن أعلم أن الجنرال "موزيروفيتش" لا يحب أي شخص أن يطرق بابه، ويكرهه بصفة خاصة الصحفيين، لذلك أحب أن أتحقق من أجله. ليس عاديًا أن يذهب كل شخص إلى ما يريد. أليس كذلك يا "فلادان"؟

لحُسن الحظِّ أن الإنسان "النياندرتال" البدائي البلقاني لم يكن يتبنى فكرة الوطنية، فيفشل بالتالي في أن يعلم الجانب العدائي في الجنرال "بوروجيفيتش"، ولن يراه ضابطاً في الجيش الشعبي اليوغوسلافي، الذي كان ترساً رئيسياً في الآلة التي حاولت أن تنسف بلده. كان موظف الاستقبال مثلاً حيّاً على الشوفينية؛ يقسم العالم ليس على أساس عرقي، أو ديني، أو قومي، بل على أساس قوي وضعيف. القوي يُعامل باحترام ومهابة، بينما الضعيف مُمارَس عليه البلطجة والسخرية والاحتقار. كان هذا كل شيء. والجنرال "بوروجيفيتش" - أو أيّاً كان - أُرستقراطي قوي، لذلك كان يُعدُّ واحداً من حاشية هذا الرجل بالنسبة له. كان يحاول أن ينضم إلى فريق الأقوياء طوال حياته، فكان ملتصقاً بالطبقة المُتمنِّرة مثل العرق الذي يمسك بثوب الراقصة، منذ أن كان في الصف الثالث الابتدائي. خرج من خلف المكتب وأخذني إلى خارج الفندق. عند الباب الخارجي، وضع يده على كتفي وأشار إلى منزل "موزيروفيتش"، وربت على ظهري بود وهو يقول:

- لن تخطئه، إنه ذو الواجهة البنفسجي.

وأردف:

- بلغ تحياني للجنرال وقل له إن "سالكو" من فندق "بحار" يرسل تحياته،

هو سيعرف.



فعلاً، لا يمكن أن تخطئ منزل "أمير موزيروفيتش" البنفسجي؛ فألوان الذكريات المريرة - التي تشبه المضاد الحيوي - متناثرة تمامًا على

جدران ذلك المبنى الغريب. من المحتمل أن الأمر يتطلب معماريين عباقرة عدّة لإصلاح هذا المبنى؛ إصلاح هذه السيمفونية النشاز المنتشرة في الجدران البنفسجية. سيارتان ليموزين سوداوان مركوتان في الممر الموحد تدلان على عقلية هذه القرية. كنت سعيدًا بأن أقود سيارتي المتهالكة بجوارهما. فتح لي الباب مخلوق لم يخيب توقعاتي. له تكشيرة مثل الظفر الغارز في اللحم، حليق الرأس، يرتدي جاكيت أسود بدلًا من الرّي العسكري.

- ماذا؟

- مساء الخير، أبحث عن السيد "موزيروفيتش".

- لماذا؟

- أنا ابن "نيدلكو بوروجيفيتش" صديقه من "باولا".

استغرقت هذه الشخصية لحظة لينظر في إجابتي، أيقبلها أم لا، وأدركت أنه أخذ وقتًا كافيًا.

- "بوروجيفيتش"؟

أومأت بالإيجاب. لسبب ما، كان هذا سبب له ليقفل الباب بعنف في وجهي. لم أكن متأكدًا هل أرن الجرس مرّة أخرى أم أرحل عن هذا الجحيم وقد كنت قادرًا على ذلك.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا يمكنني أن أفعله في فترة وجودي في "غورازدة" سوى الانتظار بجانب المبنى البنفسجي. بدأت أنظر حولي وحددت بسرعة أن هناك نوعين من البيوت في البوسنة؛ مباني كأن أصحابها طلبوها من كتالوجات معمارية صينية مخفضة، وبيوت البوسنة القديمة الجميلة، بأشكالها المنتظمة وألوانها المتناسقة. ولكن هذه

النوعية الثانية تتداعى، وبالكاد تتماسك جدرانها وواجهاتها. كانت البوسنة منقسمة بشكل لا رجعة فيه؛ الفقراء في البيوت الجميلة، والأغنياء في البيوت الشاذة القبيحة. حس الجمال لدى هذه النخبة الحاكمة تتم عن الاتجاه الذي ستدير به هذا البلد سيئ الحظ.

انفتح الباب مرةً أخرى.

- اخلع حذاءك.

كانت هذه هي الدعوة للدخول، وأن أعتبر نفسي من أهل البيت. فعلت كما طلب، ودفع الشخص ذو الجاكت الجلد بحذائي بجوار الحائط، بجانب أحذية أخرى أنيقة. كان يبدو منظمًا بالنسبة لرجل مُتجهّم الوجه.

كان المنزل مزخرفًا في الداخل بشكل لائق، في تناقض صارخ مع المظهر الخارجي المبتذل. تغطي السجاجيد الشرقية الأرضيات، والجدران تزينها اللوحات المبروزة، والرائحة الطيبة لنار الحطب تفوح في الهواء. كان للسلم صوت مألوف تحت أقدامنا. يبدو البيت البنفسجي مألوفًا على الرغم من غرابته. صورة لمكة معلقة على الحائط، ما جعلني أعتقد أن "أمير" أفلح عن الشرب، وليس شنازب الخوخ فقط.

حينئذٍ فقط، فتح شاب آخر يرتدي جاكت أسود الباب أعلى السلم. دخلنا غرفة واسعة بها كنية ضخمة نبيذية اللون، وموقد صغير لإشعال الحطب في أحد الأركان. كان "أمير موزيروفيتش" يجلس مقرصًا بجانب الموقد، يبدو عليه عدم الراحة، متكوم كطائر ضخم يجلس على مقعد مُختبئ تحته من حجمه. يلف بطانية صوف حول كتفيه العريضتين. يدخن وينفض رماد السيجارة في النار.

حاول أن يقول شيئًا، ولكن كُحَّة حادَّة منعه من الكلام.



- معظمكم يريد أن يعرف لماذا، أليس كذلك؟

لقد سبقني "أمير" بهذا السؤال، فمن دون الأسئلة التي طرحتها على نفسي في الأيام الماضية، لم يخطر على بالي هذا السؤال. لم تنزل أفكارى مُشوّشة، تمر ببطاقات الفهرسة الصغيرة التي سقطت وتاهت في متاهة الوعي. لقد فاجأني "أمير"، فلم أستطع تجنب الاستماع لشرحه، حتى قبل أن أجهز تفسيري. ولكن ما أفرغني هو تفكيري في أنني لم أرد أن أسمع ما أوشك "أمير" أن يقوله. كان يحدث كل ذلك بسرعة، خطر على بالي أن الأمور صارت خارج السيطرة. لقد انطلقت في هذه الرحلة باندفاع، دون أن أعرف بالضبط ما أبحث عنه، بصرف النظر عن "نيدلكو بوروجيفيتش" غير الموجود.

- لقد شرحت ذلك لنفسى بشكل ما، لكنني لست متأكدًا كم سأفلح في شرحه لك. لست متأكدًا من أنك ستفهمه. ناهيك عن قبوله...
واضطر "أمير" أن يُسلِّك حلقه بكحّةٍ خفيفة، وأعطاني ذلك الفرصة للتفكير في أن إيجاد مجرم حرب مُختبئ قد يكون أقل الجوانب المطلوبة في الرحلة. لن يبدأ البحث الفعلي إلا إذا جلست وجهًا لوجه مع "توميسلاف زدرافكوفيتش"، وبدأت أبحث في داخل هذا الغريب عن بقايا أبي المُتوفّي.
- إنك لا تشبهه كثيرًا، ولكن هناك شيئًا منه فيك؛ ربما الحواجب والعينان. لديك عيناه.

منذ أن كنت طفلًا، وأنا لم أشعر بارتياح من جانب "أمير"، فما بال الآن ونظراته أشد صرامة، وعصبيته توحى لمن حوله بالقلق.

- آه، يا "فلادان"، يا ولدي... كلهم اعتادوا أن يكونوا يوغوسلافيين، وكلهم كانوا شيوعيين، السفلة، أولاد الزواني الوطنيين. لعلمك، لم تكن هذه هي الحرب التي أردناها... لكن ما كانت ستختلف، لو أننا الذين دافعنا عن يوغوسلافيا وقفنا جنبًا إلى جنب، بالزُّيِّ نفسه، مع هؤلاء الذين دمروها. لقد غنَّينا النشيد نفسه ورفعنا شعارات النبل نفسها. لكن ما كنت أمتلكه بالنسبة لي لم يمتلكونه بالنسبة لهم. لذا من هنا... أستطيع أن أقول هذا الآن... ليس هناك سلة لزباله الوطنية أكبر من الحزب الشيوعي. ما انهارت الشيوعية إلا لأن المتخلفين المتهورين أداروا نهايتها، الذين لم يروا فيها إلا كنيسة جديدة، تديرها سلالة جديدة من القساوسة. لقد دُمِّرت البلاد لأنها لم تكن تعني لهم أي شيء، التي مات من أجلها في النهاية كل شعب يوغوسلافيا العظيم. في نهاية الأمر، كل من الموالين، و"التيشنك"، و"الأوستاشاس"، والمجاهدين؛ الدينيين، وغير الدينيين، توحَّدوا جميعًا وانطلقوا كي يدمرونا جميعًا. اختفى البوغوسلاف في لمح البصر، كأنهم لم يوجدوا. كانوا بالطبع مرعوبين حتى الموت من "ميلوشيفيتش"، لذلك انتشروا في أنحاء الدول، أو عادوا إلى دولة غبية، بينما كُنَّا نحاول إنقاذ هذا البلد من الفاشلين. لقد أعددت نفسي لمدة ثلاثين عامًا لكي أنقذه من أعداء الداخل والخارج. ثم فجأة، لم يكن أحد ملعون ليدافع عنه. كلهم سفلة! وكلنا الذين آمنّا به...

قاطعته الكُحَّةَ مرَّةً أخرى، بشدَّةٍ وبلا رحمة حتى ظننت أنه لن يقدر على الاستمرار. كان هادئًا لفترة طويلة، يستجمع أفكاره، أو يهدئ رثته الممزقة.

- بعد كل هذا، أنا حزين على الرجل الكبير، الذي بنى هذا البلد بيديه، أنا سعيد لأنه مات قبل أن يرى هؤلاء الحثالة الذين بنى كل هذه الكباري،

والمستشفيات، والمدارس من أجلهم. الحثالة الذين فعل كل هذا لهم. عاشوا كل هذه السنين بينما، يتسمون لنا وهم يرتدون زي "تيتو" الفخم، ويلوحون بالأعلام، في النهاية لم ينتظروا حتى النهاية، فاشتبكوا مع بعضهم بعضاً. عليهم اللعنة، السفلة...

أمسك بصدرة، ولكنه لم يَکُج. يبدو أنه يريد أن يحكي قصته من البداية حتى النهاية. لم يعد الوقت يلعب دوراً في حياته. يحل الظلام، ييزغ الفجر، تمر الساعات، وهو جالس هناك، ملفوف ببطانيته، بجواره الموقد، ويدخن. على الأقل هذا ما تخيلته على الفور، عن الخمس أو العشر سنين الأخيرة من حياة هذا الرجل.

- وذلك لأن كل واحد منهم له قصّته عن الماضي المفقود من زمن، عن الموت الذي لم يفق منه. عن الأجداد، والجدات، والمقابر الجماعية في الكهوف، ومعسكرات الاعتقال في الحرب العالمية الثانية. قصة كانت تقلقهم طوال هذه السنين، يتهامسون عنها بينهم في السر، وينتظرون أوقاتاً أخرى قادمة؛ كي يحكوا هذه القصص مرّة أخرى، بصوت عالٍ أمامنا، هؤلاء الذين قاتلوا على مسؤوليتهم. لقد ولدوا بصمت وخفية غضبهم، وإثمهم، وأعدوا اعتذارهم الرسمي عن ذبح الأبرياء، وحرق القرى، واغتصاب النساء. لقد سمحت لهم قصصهم بهذا، وبررت كل شيء. أراحوا ضمائرهم، وهددهوا أرواحهم القلقة كي يناموا كل ليلة. لأنهم - أولئك الذين عاهدوا أمواتهم، وكذلك نحن الأحياء - تافهون وغير مهمين. لم يكونوا هم القتلة، ولكنهم أشباح كل المقتولين من آبائهم، وأمهاتهم، وإخوتهم، وأخواتهم، بأسمائهم ارتكبوا كل هذه المجازر.

الاغتصاب، والذبح، والحرق. كل شيء كان مقدسًا بسبب هؤلاء الضحايا. كل شيء كان ضروريًا.

فتحت فمي لأنني اعتقدت أن "أمير" يتوقع إجابتي على كلامه، لكنني رأيت في الوقت المناسب أنه يعرف أنه لا يوجد لدي ما أقوله له. بينما رمى عُقب السيارة في يده، أخرج بيده الأخرى من جيبه علبة لونها أحمر وأبيض، ولكنها كانت فارغة.

- هل يمكنك أن تناولني علبة؟ هناك، من الدولاب على السُّلم.

نهضت وفتحت الباب الذي أغلقه خلفي الشاب ذو الجاكت الجلد، الذي كان يقف على بسطة السُّلم وهو يراقبني جيدًا وأنا أخرج علبة "مارلبورو" من الدولاب. عدت إلى الغرفة. أشعل "أمير" سيجارة فورًا، وأخذ نفسًا كأنها أول سيجارة بعد سنوات من الامتناع. تساءلت إذا كان يعتمد أن يسمم نفسه. راح يدخل في منتهى الاستعجال.

لاحظت كومة من الجرائد تشبه تلك التي وجدتها عند عتبة "توميسلاف زدرافكوفيتش"، على الأرض بجوار رجل "أمير"، فخطر لي أن الصديقين القديمين يقرآن الصحف نفسها، أو ربما يتواصلان من خلال الرسائل السرية المشفرة في إعلانات الشقق غير الموجودة في "بانيا لوكا"، و"درفنتا". بدت كلمات "أمير" غامضة للغاية، وحجرته الدافئة برائحة احتراق الحطب الزكية تشبه المكتب البيضاوي لجماعة سرية من الضباط المتقاعدين.

نظر إليّ مرّة أخرى. كانت نظرتة هذه المرّة حادة بشكل أكبر.

- "نيدلكو" له أيضًا قصة، قصة عن أبيه "ميلوتن" ربما تعرف هذه القصة.

هزرتُ رأسي بالنفي.

- إيبيه، حسناً، كيف يمكنني أن...

حدّقت فيه، متوقّعةً قصة "ميلوتن" و"أجنيس"، القصة التي لم يخبرني بها "نيدلكو" مطلقاً. كان يقول "لا داعي"، وإذا كانت "دوشا" قد ذكرت شيئاً عن جدّي وجدّي، فلا أعرف عنهما الكثير سوى أنهما ماتا ولم يزل "نيدلكو" طفلاً. - أنا آسف، لقد قطعت على نفسي عهداً ألا أخبر أحداً بهذه القصص أبداً.

لا لكَ، ولا لأي شخص. إذا لم أحكِ قصتي من الأساس فكيف أحكي قصص الآخرين؟ اللعنة على كل القصص. يجب ألا تقال. يجب أن يطلق النار على هؤلاء الذين يحكونها؛ لأنهم يسممون أطفالهم وأحفادهم بها. إذا كنت تريدها فاسمعهما من شخص آخر، شخص لا يهمله أمرك، وبالتالي سيكون سعيداً ليحكي عن جدّك "ميلوتن". أعرف ذلك، ولكن على الأقل لن تسمعها مِنِّي.

أصبح هادئاً، كما لو أنه أراد أن يؤكد كلماته بالصمت. ربما تكشّفت قصة جدّي أمام عينيه، على الفور، وراح يتأملها في صمت، أمامي. أغلق عينيه وانتظر حتى تمر، بينما أحاول أنا ألا أفكّر فيما تنطوي عليه.

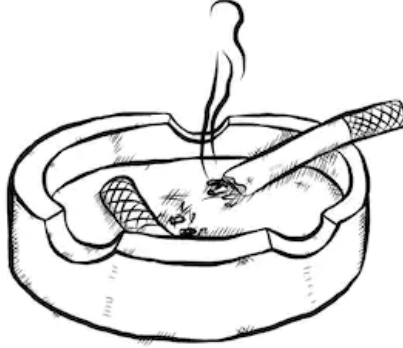
- لعلمك، كنت سأقتلها الاثنتين في تلك الليلة، العقيد "براك" و"زهانا". في مطعم "فيشرمان شيد". لولا أبوك، لقتلتها. جن جنوني، كنت مخموراً ومجنوناً. كل شيء أسودّ من حولي. لولا أنه أنقذ حياتهما، وحياتي أيضاً، لكنت قتلتها يا "فلادان" يا ولدي. أعلم أين هو، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك بذلك. أعلم أنك جئت من أجل هذا السؤال، ولكنني لن أكون الشخص الذي سيخبرك. لقد قطعت عهداً. لو أردت أن تستمع لي سأقول لك ارجع وانس كل شيء عن هذا فهو أفضل لكما. ولكنني أعرف

أنك لن تفعل هذا، لذلك عندما تقابله قل له، عندما يأخذك شخص ما إليه،
إنني ما زلت حافظاً لرغبته الأخيرة، ويكون كل شيء جاهز له، بالأسلوب نفسه
الذي أرادته. هذا...

عادت الكُحَّة، مرّة أخرى. منعني شيء ما في صوته من الاعتراض. أعلم أن
أسئلتني لا جدوى منها. لقد تعهد بالصمت من أجل صديقه القديم. راح وهو
شارد ينفذ رماد السيجارة في الموقد وأخذ نفساً، كأنها يغرق ويريد أن يتشبَّث
بالهواء. شيء ما أخبرني بأن حديثنا انتهى. فكَّرت في أن أجلس بجواره، وأتوسل
إليه مستعظفاً رحمته، ولكنني أعرف هذا الرجل، هذا المستوطن القاسي في
حساباته، الذي لا يمتلك ذرة رحمة.

لم يكن أمامي غير الخيار الآخر؛ العم "دانيلو".





المرّة الأولى التي سمعت فيها عن العم "دانيلو" كانت آخر مرّة أرى فيها أبي. في المساء السابق لهذا، بعد حوار من طرف واحد في التليفون مع أمّي، قالت إنه سينضم إلينا في الإفطار في الصباح المقبل صاحب السمو الملكي، الكولونيل "بوروجيفيتش". وأضافت أنه قيل إن هذا الكولونيل لم يعد زوجها، ولا أبي، ولكن مجرد ضابط في الجيش الشعبي اليوغوسلافي.

تكوّنت لديّ فكرة أنه لا شيء جيد سيكون في الإفطار، سوى شرائح رقيقة من الجبن والسلامي. وهذا ما تأكد من سير أمّي في منتصف الليل، حيث بدأ وانتهى في مطعم الفندق. دخّنت علبة سجائر كاملة وشربت أول شنايز لها. ثم استدعيتني لأنزل وألحق بها لنشرب كوكا. الساعة الواحدة والنصف صباحاً، كنت جالساً مع أمّي أشرب مشروبي المفضل، وأراقب تدخين أمّي المتواصل. طلبت شنايز آخر في الساعة الثانية، دون أن تسألني إذا كنت أريد أن أشرب شيئاً آخر، حتى الجرسون النعسان الذي

أحضر لها الكأس تجاهل أيضًا أن يسألني. في الثانية والنصف، اقترحت أمي أن نذهب لننام عندما انتهت من السجائر، أخيرًا ذهبنا في الثالثة إلا عشر دقائق إلى الغرفة وخذلنا للنوم، أو على الأقل أنا.

انتهينا من إفطارنا بالفعل في الصباح التالي في الوقت الذي ملّس فيه "نيدلكو" على رأسي وجلس إلى طاولتنا. سألته أمي إذا كان جائعًا فهزّ رأسه بالنفي. اتّضح أن الذي زارنا هو الصوت الذي يحدثنا في التلفزيون، مركب في جسد أي فقط، بدلًا من أي نفسه. يطرح أسئلة غبية أجبت عنها على الأقل عشرين مرّة خلال مكالماتنا. لما فرغ من الأسئلة، التزم الصمت، وجلس فقط معنا. رد على سؤالي الوحيد "متى سنذهب إلى البيت؟" بهزّ كتفيه فقط. ثم طلبت مني أمي أن أصدق إلى الغرفة لتناقش مع أي أشياء مهمة؛ الجملة التي لم أسمعها منذ سنين. عندما كنت صغيرًا، كانا لا يريدان أن يتشاجرا أمامي، فكانا يرسلانني إلى غرفتي، ولكن من مدة طويلة تجاهلا وجودي وبدأ يصيحان لبعضهما بعضًا في أي مكان يقفان فيه، وبلا شك بدأ يفكران أنني كبير بما فيه الكفاية لأفهم كيف تسير الدنيا. لذلك كنت مدرّكًا أن الأشياء المهمة أصبحت أكثر أهمية من المعتاد، وأنهما سيتكلمان بهدوء، تقريبًا همسًا، أكثر هدوءًا مما تكلمنا به عن العمّة "إنيسا" في المستشفى. نهضت في صمت واتجهت إلى الغرفة دون أن أقول وداعًا لأبي. لمدة ساعة، جلست بفارغ الصبر على السرير، أقلب في قنوات التلفزيون، وأخيرًا رجعت أمي إلى الغرفة. توجهت مباشرة إلى الحمام، وخرجت بعد دقائق قليلة، لتقول:

- آه بالمناسبة...

تبحث عن شيء في حقيبتها، قالت إننا سنذهب إلى "نوفي ساد" في اليوم التالي؛ لكي نرى العم "دانيلو". أومأت ولم أسأل مَنْ يكون العم "دانيلو" لأنني أعلم أن الوقت غير مناسب لطرح الأسئلة، ناهيك عن الإجابات.



عندما تركنا الغرفة 211، كانت أمِّي في أشد الحاجة إلى شخص ما يعارضها، لتلقي في وجهه ضيقها وتفنع نفسها أن العم "دانيلو" الذي في "نوفي ساد"، ابن عمِّ أبي المقرب، هو أقصر وأفضل اختيار لنا. احتاجت لهذا لأنها لم تؤمن بقرارها بما فيه الكفاية، وكانت غضبانة من أبي، ومن نفسها؛ لأنها سمحت لنفسها أن تكون في هذا الموقف، تفقد السيطرة، وتعتمد كلية على الغرباء. كنت ساكتاً وخائفاً؛ لأنني لم أعتد على زيارة ناس لا أعرفهم، وقلقت لأنه لن تكون لي غرفة خاصة مهما كان المكان الذي سنذهب إليه. كنت خائفاً أكثر من أن الأطفال في "نوفي ساد" يراقبونني ويقدرّون تحركاتي، ويتصيدون أي شيء أفعله يمكن أن يستخدموه ضدي فيما بعد. هناك قلة من المخلوقات مخيفة ووضيعة كأطفال ما قبل البلوغ. فهل عليّ أن أثبت نفسي، أتشاجر من أجلهم ليتقبلوني؟ لا وقت لدى أمِّي لمخاوفي، فلديها ما يشغلها. فلن تريحني، أعلم ذلك؛ لأنها مشغولة بتهدئة روعها، تكرر أن "دانيلو" عائلة، وهذا يعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء الناس، ليس مثل عائلة "بودلجار". سيكونون طيبين، وعلينا أن نكون مُمتنّين، وليس أمامنا خيار آخر، غير أن ننتظر حتى يُمرُّ هذا الموقف الاستثنائي، ويعود أبي، ونعود إلى "باولا".

ولكن عندما اتصل أبي في المساء ليقول إنه ذاهب إلى الميدان، وإنه لن يستطيع الحضور إلى بلجراد ليودعنا قبل الرحيل إلى "نوفي ساد"، كما وعدنا هذا الصباح، انهارت أُمِّي. جلست على أرضية الغرفة 211 وأخذت تبكي. أردت أن أحتضنها، وأخفف عنها بعض الألم، الألم الذي لم أفهمه ولكنني كنت أتمنى أن أتألم كي ترتاح هي، ولكنها واصلت الابتعاد عني، كما لو أنها تخاف أن تعديني بيأسها. أعتقد أن شجاعته تخلت عنها تمامًا في ذلك اليوم في فندق "بريستول". فلم تكن امرأة مهزومة فحسب، ولكن وحيدة في قصتها. لا أدري إذا كانت أدركت، في ذلك الوقت، أن الموقف الاستثنائي سينتهي. آمنت أن حاسنها السادسة تخدّرت تمامًا من أثر الرُّعب الجارف أمامها. جلست بين الحقائق والصناديق، فهي الآن امرأة في حالة فرار، شخص سيظل هاربًا سنين وسنين، من كل الذي أسقطها على أرضية الغرفة 211.



أصبحت أُمِّي مستعدة لتقبل كل ما ينتظرها عندما دخلت شقّة "دانيلو رادوفيتش"، في الطابق الخامس في عمارة بجوار سوق السمك في "نوفي ساد". كنت بجوارها يملؤني الرُّعب تحسبًا للتواصل المرتقب مع الأقارب من بعيد. وعندما وصلنا أخيرًا إلى المبنى، كدت أن أبلل نفسي. ارتجف قلبي تحت قميصي، وارتعدت مفاصلي، وابتلت يدي من العرق حتى إنني أسقطت الصندوق الذي كنت أحمله. لم يكن هناك شيء أودُّ أن أفعله أكثر من الجلوس على الأرض في "نوفي ساد"، مثلما فعلت أُمِّي منذ أيام عديدة، وأبكي. ربما كنت على وشك أن أفعل ذلك، ولكن جاء "دانيلو"

مسرّعًا ورحب بنا بالأحضان والقبلات، وبدأ يصيح، عادة ملازمة له حتى عندما وصلنا إلى محطة الباص وتحركنا إلى "ليوبليانا". في تلك اللحظة، نجوت من الإغماء إثر ابتهاجه المريب، إذ رفعتني بيديه القويتين، فدفعتني ذلك إلى مدخل عمارته، ثم على درجات السلم لخمسة طوابق، حتى باب شقته. لم يتوقّف عن الكلام إطلاقًا؛ كيف يتوجب عليّ أن أترك أشياءي، فسوف يحضرونها لي، ويجب ألا أقلق، فكل ما يهم أنني ووالدي ما زلنا على قيد الحياة، وأنا بخير وفي أمان معهم. وبالطبع أنني "مثل نيدلكو عندما كان في سن الثانية عشرة"، عندما كان الاثنان يعيشان معًا كالأخين.

وهكذا أصبحنا أنا وأمّي عضوين مؤقتًا في أسرة "رادوفيتش"، أول أقارب قابلتهم على الإطلاق. كان هناك بالإضافة إلى "دانيلو" زوجته، "سافا"، وابنتهما "جوفانا"، سبع سنوات، وابنهما "ميشو"، عشر سنوات. وقف الجميع صفاً ليرحبوا بنا في منزلهم. وإضافة البهجة على الجو العام، كان جارهم "كوسا"، وزوجته، "ريستو"، وابنتهما "ناتاشا"، أكبر منّي بقليل، موجودين أيضًا. اتّضح حالاً أن "كوسا"، و"ريستو"، و"ناتاشا" يقضون وقتهم هنا أكثر من شقتهم التي تقابلهم عبر الممر، وبالتالي انضم الثامن والتاسع ليقبلا في شقّة مساحتها خمسون مترًا مربعًا. قطع وصولنا الجو البهيج للجيران للحظات، قبل أن يقبلني الجميع ثلاث مرّات، ويسألوننا مرّات ومرّات إذا كُنّا جائعين، أو نريد بعض القهوة أو العصير، أو أننا نشعر بالتعب. رأينا زوجًا من المراتب على أرضية غرفة النوم، وفهمونا أننا سننام في غرفة نوم "ميشو" و"جوفانا"، وأنهم سينحشرون جميعًا في غرفة "دانيلو" و"سافا" ذات السرير المزدوج. حدث كل هذا وسط وابل من الصيحات والأسئلة السريعة

المتتالية، ثم الأسئلة عالية الصوت، الكل يتكلم في آنٍ واحد، ويتساءلون عن "باولا"، وبلجراد وأبي، ثم عن بلجراد، وأبي، وعن أبي مرّة أخرى.



بعد مراسم الاستقبال، والكميات الكبيرة من المأكولات والوجبات الخفيفة التي لا يمكن تجنّبها، جاءت نشرة أخبار المساء، تجمع الحشد المرّحّب بنا أمام تليفزيون صاحب للغاية، كما لو كان هناك أمر بذلك. التزم الجميع بصمت غريب، على الأقل لفترة قصيرة. تمكّنت من معرفة أن الجيش الشعبي اليوغوسلافي يبذل محاولات للتوفيق بين مختلف الأطراف المتورطة في صراع سلوفينيا، حيث أرسل أبي في الميدان. لم أعلم أي الأطراف تلك المتورطة، ولا حقيقة نوع الصراع؛ لأن "دانيلو" و"ريستو" راحا يصيحان في السياسيين الموجودين على الشاشة، ثم في بعضهما بعضاً، ثم صاحوا بعنف في المذيع، كما لو أنه يقول شيئاً مهماً. لم تتحلّ "سافا" أو "كوسا" بالخجل، فكانا يشاركان في مناقشة متساوية في الضجيج. كل ما استطعت فهمه من المباراة الكلامية أن "سافا" و"دانيلو" كانا مقتنعين بأن تحضر "ريستو"، و"كوسا" والدي "ريستو" إلى "نوفي ساد"، بينما ترفض "ريستو" وتقول إن عائلة "جويكوفيتش" يجب أن تستمر حياتهم في المكان الذي ولدوا فيه. في الحقيقة لم أتابع الكثير من هذه المناقشة؛ إذ كانت حول السياسة، والصرب، والكروات، والسلافان، كما لو أنها تغطية رياضية لمسابقة بين الجمهوريات. كلما زادت حدة الصياح، قلّ فهمي، وإن كنت تعلمت أن علو النبرة من أجل الاستماع بوضوح. جلست على الكنبّة متكورّاً بجوار

أُمِّي في خوف، بينما كانت تجهد نفسها كي تسمع التلفزيون، لم تعبأ حتى بالتفاعل عندما ضرب بيديه "دانيلو" على الطاولة مقاطعاً رأياً يُقال. جلست "جوفانا" الصغيرة بجواري، وهي تأكل ساندويتشات جبن، وتبعثر فتات الخبز في أرجاء الغرفة. مثلها مثل أُمِّي تتصرف كما لو أن لا شيء يحدث حولها. إلا عندما دلقت ضربات "دانيلو" كوب اللبن الخاص بها، هنا فقط تحركت وطلبت من أبيها أن يزيل اللخبطة التي تسبب فيها، مما جعل الجميع يضحك. احتضن "دانيلو" ابنته وقبلها باعتزاز. جلس "ميشو" في الجانب الآخر من الغرفة، مراقباً والديه باهتمام، قبل أن يلقي بنظرات سريعة إلى أُمِّي وإبِّي.

كانت شاشة التلفزيون في ذلك اليوم مكتظة برجال الشرطة والجنود والسياسيين. وبحلول المساء، كانت قد تكوّنت لديّ فكرة بأن الموقف خطير حقاً. في الوقت ذاته، كان كل من "دانيلو"، و"ريستو" يدلي بتعليقات بذئنة أولاً بأول، يخبر كل منهما الآخر أن يقوم ليفعل ذاك أو ذاك، يصفان زوجتيهما بكذا وكذا، وهما يصبان شنابز ويشربان النُخب. استمر هذا لآخر الليل والساعات الأولى من الصباح، وهم على الحالة نفسها من النقاش، يعيدون الكلام نفسه. كررت "ريستو" كلامها عن موطن عائلة "جويكوفيتش":

- ستواصل أسرة "جويكوفيتش" الحياة في المكان الذي ولدوا فيه.

بينما يتساءل "دانيلو" مرّات عديدة بشكل متكلف:

- لماذا يستطيع السلوفينيون أن يتصرفوا كما شاؤوا، بينما لا يستطيع

الصرب ذلك؟

في لحظة ما، ظهر "سلوبودان ميلوشيفيتش" على الشاشة، انّضح لي على الفور أنه لا أحد في شقّة "رادوفيتش" يمكن أن يعلو صوته على كلماته أو يعارضها. لقد تبنّيا أفكاره، كما لو كانت أفكارهما، وردداها، ويبدو أن "سلوبو" يقول بالضبط أفكار "دانيلو" أو "ريستو"، ولكن بطريقة أدق، وأكثر حكمة مما ينشده. فقط كشرت "سافا"، وهزت رأسها كأنها تعتذر، موضحة أنها لا تستطيع أن تمنع نفسها، فهي ترى أن فيه شيئاً بشعاً وأنها خافت عندما رآته في المرّة الأولى؛ ربما لأنها دائماً تخاف من الناس الأكثر مهارة. بينما حذرنا "دانيلو" جميعاً لنلزم الهدوء؛ كي يسمع كل كلمة يقولها "سلوبو". بحلقت "ناتاشا" بعينها غير مصدقة.

وجود "سلوبو" يعني أن الأطفال يُطردون إلى المطبخ، ليتناولوا العشاء هناك أيضاً. وهناك تحدثنا أنا و"ميشو" للمرّة الأولى معاً. سألني إذا كنت ذهبت للبحر هذا الصيف، فأجبت أنه ذهبت مرّة واحدة، وقال لو أنه يسكن بجانب البحر، لذهب في مايو كله، ومرّتين في اليوم، وما ترك الشاطئ أبداً. أخبرته "ناتاشا" ألا يهذي؛ لأنه لا يعرف كيف تكون الحياة بجوار البحر، ثم تشاجرا قليلاً حول من يعرف أكثر عن الحياة بجوار البحر. اعترفت "جوفانا"، وهي تأكل ساندويتشات الجبن مرّة أخرى، بأنها لم تذهب مُطلقاً إلى البحر، ولكنها ستذهب العام القادم بنفسها، إذا لم يأخذها والداها. ضحك الجميع، ونالت قبلة من "كوسا"، التي كانت تقوم على خدمتنا في مطبخ جيرانها كأنه مطبخها. عدنا لاحقاً إلى حجرة المعيشة، حيث كان "دانيلو"، و"ريستو" يتجادلان بعنف، وتزداد سخونة الجدل بالشنازب، التي تجعل كلاً منهما أكثر اقتناعاً بما يقوله، وإن كان لا

معنى له. وبنهاية المساء، كان واضحًا جدًا لي أن "عائلة جويكوفيتش ستستمر في المكان الذي ولدوا فيه"، "قد يطرد السلوفان الصربيين، ولكن الكروات لن يستطيعوا".

عند لحظة معينة، بينما كنت متكئًا إلى أمِّي، غلبني النوم فجأة أمام التلفزيون. تقريبًا في اللحظة التي فهم فيها كل من "دانيلو" و"ريستو" و"كوسا" و"سافا" معًا أن "تيتو" كان يكره الصرب، وصاح "دانيلو"، ناسيًا أن أمِّي تجلس بجواره:

- اللعنة على السلوفينيين!



في الصباح التالي، استيقظت والحجرة خاوية. فحيث كان يُغالب أمِّي النوم بدت الآن خصلة شعر معقدة من شعر "جوفانا" المنكوش تطل من تحت البطانية. أحسستُ بالهدوء لما تيقنت أن الغرفة خاوية ولا شيء آخر. وللهشة أنني وجدت السبعة الآخرين في المطبخ، يشربون القهوة في صمت تام، ويتهامسون بكلمة أو كلمتين هنا وهناك، ويمشون على أطراف أصابعهم إلى الحمام واحدًا بعد الآخر. الوحيدة التي أحدثت صوتًا هي "ناتاشا"، كانت تضع سماعات أذن، تلك التي حجبت قليلًا صوت موسيقى الروك التي انبعثت من "الواكمان" الخاص بها.

سألتني "سافا" هامسة إذا كنت أرغب في الإفطار، فهناك بيض مخلوط بلحم الخنزير المقدد وكوب من اللبن على الطاولة. كان "دانيلو" يقرأ جريدة مكتوبة بحروف "سيريلية" لم أتعلم منها حرفًا إطلاقًا. انتهيت من الإفطار قبل أن أتفهم العنوان في الصفحة الأولى. كان "دانيلو"

يشد دائماً في كم "ريستو"، مشيراً إلى مقالة هنا، أو هناك، فينحني "ريستو" على
الجريدة لثانية، ثم يُومئ الاثنان إيماءة رضا، أو يهزان رأسيهما غضباً. ثم
يأخذان في تفاصيل أخبار اليوم معاً في صمت.

انحشر ثمانية أشخاص حول طاولة المطبخ في صمت. الساعة تقريباً الحادية
عشرة، يعني أنهم ظلوا هكذا لساعات عديدة، إذا كانوا قد استيقظوا في الساعة
السابعة. ليس من المرجح أنهم ظلوا هكذا في هدوء فقط لتجنب إيقاظي أنا
و"جوفانا"؛ فما حدث من هرج ومرج كالقرود أمام التلفزيون في الليلة السابقة
لا يتفق مع ذلك السلوك. يبدو أن الذين تجمعوا في المطبخ هذا الصباح مجموعة
مختلفة تماماً؛ فهم يراعون مشاعر الآخرين، متسامحون، متفهمون، لا يريدون أن
يفسدوا هدوء أطفالهم النائمين بشكل غير منطقي. لم يروا أنه من الصح أن يلقوا
بأطفالهم في قسوة الحياة، لكنهم آمنوا بفكرة أن "ندعهم ينامون، الشباب الحلو
حسن الحظ، ما دام يستطيعون!" في تلك الأوقات البائسة التي ولدنا فيها، كان
النوم الهادئ المطمئن واحداً من المزايا الوحيدة التي يمكن أن يقدمها كل من
"دانيلو" و"سافا" و"كوسا" و"ريستو" لأطفالهم. ربما كان هذا هو السبب الذي
جعلهم يمشون على أطراف أصابعهم لساعات، ويشربون الفناجين النحاس
الممتلئة بالقهوة التركي، ويقروؤون الجرائد، ويومئون ويهزون رؤوسهم، كل ذلك
دون صوت. لقد ابتكروا عالمهم الخاص بهم، حيث سكتت جميع التليفونات،
وأجهزة الراديو، والغلايات، وأواني الطهي بالضغط، والإنتركوم، وماكينات الحلاقة،
ومجففات الشعر، والتليفزيونات، وأجهزة طحن البن، وأجهزة إعداد
الطعام، والغسالات لبضع ساعات في الصباح كي لا يوقظوا "جوفانا" أو

"ميشو" أو "فلادان" الحلوين من نومهم، على حد تعبير "سافا" همسًا وهي تنظر إليهم في غرفة النوم.

قضيت أيامي في "نوفي ساد" محاولًا أن أحل لغز حقيقة عائلتي "رادوفيتش" و"جويكوفيتش". أتساءل مرارًا وتكرارًا هل هم أولئك الأشخاص الملتزمون بالهدوء في الصباح الحنونون كالرهبان حتى تستيقظ "جوفانا" التي تنام طويلًا، أم أنهم أولئك الوطنيون في المساء الذين لديهم السمات نفسها لمُصاصي الدماء، ويتجاهلون أطفالهم إذا حلت نشرة أخبار المساء، يسبون وهم يشربون الشنايز، ويعتفون السلوفينيين، ويلعنون المسلمين، والصرب الخونة، وأهل الجبل الأسود، والكروات، والغجر، واليهود، والألبان. فهمت من "ميشو" و"ناتاشا" أن هذا هو العادي، وأنهما لا يريان شيئًا غريبًا في سلوك آبائهم. في الحقيقة أصابهما الذهول من أسئلتني حول الموضوع.



منذ أن وصلنا أنا وأمِّي إلى "نوفي ساد"، قلّت مكالمات أبي، وكان يتكلّم مع أمِّي فقط التي تلخص هذه المكالمات بانتظام، وتقول إنها لا تتمكن من الاستماع بشكل جيد، ولكنها تقول إنه يقول بأنه بخير، وسيحضر قريبًا. ولكن من الواضح بالنسبة لها أنه في مكان بعيد تمامًا عن كونه "بخير". ولربما أدركت أنه لن يحضر قريبًا، ولربما قال أبي شيئًا في التليفون مختلفًا تمامًا، ولكن لم تشأ أمِّي أن تشركني في ذلك، ناهيك عن عائلتي "رادوفيتش"، و"جويكوفيتش".

من الواضح أنهم تجنّبوا الحديث مع أمّي بشكل مباشر، حتى لا يعذبوها، وأيضًا لأن الحديث في السياسة مع سلوفينية من كُرواتيا قد يمثل خطأ أحمَر تلك الأيام. لقد افترضوا أن لديها رأيًا حول كل شيء يجادلون فيه كل ليلة في غرفة المعيشة، ويبدو أن قبولها لكل ما يُخَمِّنه هؤلاء الصرب نظرًا لرأيها السلوفيني الكُرواتي المختلط. لذلك استمروا في عرض الأشياء على أمّي، ويسألونها إذا كانت تشعر بالبرد في الليل، أم تفضل النوم على الكنبه في غرفة المعيشة، هل تريد التلفون، أو تريد شيئًا ما من المتجر، أو تحب أن تأخذ جولة في القرية الجميلة، ومئات من الأسئلة التي تهدف إلى راحتها، وأيضًا لجعلها بعيدًا عن الاستفزاز فتقول شيئًا وتعبر عن رأيها. يبدو أنهم كانوا يتناسون وجودها أثناء نشرة أخبار المساء، ولكن لاحظت أنهم حريصون على ألا يثيروها دون قصد لتشارك في مناقشتهم، ولم يسألوها إطلاقًا عن رأيها. فإذا دُكر السلوفينيون أو الكُروات، يتظاهرون بأنها لا تنتمي إلى أي مجموعة، ويسألونها بدلًا من ذلك إذا كانت ترغب في مشاهدة المسلسل الأمريكي "توين بيكز" الذي يعرض على القناة الثانية.



قضيت أنا و"ميشو" أمسيات كثيرة في المطبخ. ولأن "جوفانا" التزمت غرفة النوم ولم ترغب في صُحبتنا، فكننا نلعب الكوتشينة، أو لعبة الحظ، أو نكتفي بمجرد الكلام. وعلى الرغم من أن "ميشو" أصغر مِنّي بعام ونصف العام، فإنه مهتم إلى حد كبير بأشياء غير عادية، لا يمت شيء منها بصلة للأحداث الجارية في بلدنا الذي على شفا صراع مسلح، كما ظلوا يقولون في

نشرة أخبار المساء. أراد أن يعرف كيف ننطق بعض الكلمات في "باولا"، وما الكلمات التي نستخدمها وهو لا يعرفها. لقد وجد أن جميع الكلمات الإيطالية التي يتلفظ بها الناس أثناء محادثاتهم مضحكة، وكان يجعلني أردد الكلمة العامية لـ"فوطة" sugaman في لغتنا؛ إذ إن وقع نطقها مضحك جدًا. كانوا يرسلوننا أنا و"ميشو" إلى المتجر، وسوق الخضار لنشتري الخضروات، وإلى جارنا من أجل العسل والمشموم، أو إلى "ميرزادا" مصفف الشعر. خلال الجولات المضنية التي يمكن أن تمتد إلى ساعات عديدة، أراني "ميشو" العجائب بمختلف أنواعها، كُنَّا غالبًا ما نلتصق بنافذة في متجر بيع كتب صغير في تلك المدينة الصغيرة. أراد "ميشو" أن يريني جميع المعاجم اللغوية التي يودُّ أن يشتريها. بقدر ما يعينني "هيمن" اللعبة الكارتونية، تعنيه القواميس الفرنسية - الصرب كُرواوية. لقد حاول بكل الحيل أن يأخذ أباه "دانيلو" ليشتري له قواميس. المشكلة الوحيدة، بجانب أن "ميشو" أقل منِّي في الدهاء واتساع الحيلة، هي أن سعر لعبتي البلاستيك ثمانية دنانير صربية، بينما سعر القاموس أربعون دينارًا صربيًا. لذلك احتفظ "ميشو" بقاموس جيب إنجليزي - صربي كُرواوي أهدته له جدته من البوسنة في عيد ميلاده التاسع.

من كل جولاتنا التي سرناها على أقدامنا، واحدة فقط حفرت نفسها في ذاكرتي. كان يوم الأربعاء، أتذكره لأن أبي كلمنا فيه آخر مرّة، حتى إننا بعدها صرنا نقول: "نيدلكو لم يتَّصل منذ يوم الأربعاء". الجو رطب بشكل فظيخ، كُنَّا أنا و"ميشو" نجلس بجوار أحد الأكشاك في سوق السمك. هناك امرأة مجرية كانت تباع الصينز، وكلما جاءها أحد من المجر الذين في "نوفي ساد" بكثرة، تكلمه بلغتها الأصلية. حاول "ميشو" أن

يقنعني بأن هذا هو الحال هنا، وأن اللغة المجرية أطرف لغة في العالم، وأن الثنُّصت على اللغة المجرية تجربة لا يمكن أن تفوتني.

لذلك تسكَّعنا في السوق، كُتفذين منبوزين، في انتظار سيدة الچينز حتى تتكلم باللغة المجرية. ولكن، كما لو كانت تغيظنا، راحت تنادي الجميع كما لو أنها صربية تعتز بنفسها:

- هيَّا، جرب هذا الچينز المضبوط، والعن الأزمة! هيَّا يا فتى ماذا وراءك؟ يا لعارك يا أخي! تعال هنا واصنع منك رجلاً، هيَّا يا جدو! ألا تحب أن تكون رجلاً على الموضة؟ يا مدام! عندي كل شيء لابنك أو زوجك أو حبيبك أو أي شخص آخر!

وهكذا، وهلمَّ جرًّا، حتى كدنا نحترق من الحرارة، وحتى تعبت من نفسها، وهدأت لثانية.

في تلك اللحظة، تقدم رجل عجوز يرتدي بذلة من ثلاث قطع، وكرافته، يبدو كمقدم على الانتحار البطيء بأناقة. وقعت عيناه على الچينز. لكنني "ميشو" بكوعه بشدَّة، ورأيت أنه كان على وشك أن يضحك، ولكنه دارى ذلك عن المرأة وزبونها الجديد، اعتقدت أنه سيضحك على صدار الرجل العجوز، ولكنه همس:

- اسمع!

وللمرَّة الأولى أتنبه أن سيدة الچينز والرجل الأنيق يتحدثان، ولكنني لم أسمع شيئًا، كأنهما يتعمدان ذلك. ولأن "ميشو" كان أقرب فكان يضحك بابتهاج، وافترضت أنه يسمعهما يتحدثان بالمجرية.

اقتربت منهم أكثر، لكن ما زلت أسمع فقط أصوات السيارات، وشابًّا على بُعد أمتار يبيع العُملة الأجنبية. في الوقت نفسه، اشترى الرجل ذو

الصدار الچينز وغاندر، وكل ما حددته هو اللغة الغريبة، المختلفة تمامًا عن الصربية.

في طريق العودة، ما زال يقهقه، علمني "ميشو" المفتون أن كلمة "في صحتك" بالمجري هي "egeshegedre". وراح يقلد المجريين السكاري، ويضحك، ما أضحكني هو "ميشو" وليس كلمة "egeshegedre". لقد أُعجب بأشياء لا يعجب بها أصدقاؤني في "باولا". بينما أخذ "ميشو" يردد الكلمة المجرية الوحيدة التي تعلمها أكثر من عشرين مرة، وجدت أن "باولا" أفضل من "نوفي ساد". وجدت أنه أكثر متعة أن ترى رجلًا بورم أحمر في رأسه في منطقة السباحة في "فلكان" عن أن تسمع أناسًا عاديين يتحدثون لغة أجنبية. وفكرت كم هو لطيف لو عدنا أنا وأمي إلى هناك بأسرع ما يمكن.

أمام مدخل عمارتنا، كان هناك شابان ينتظران، تفحصنا عندما اقتربنا. يلبس أحدهما قُبعة البيسبول وهو يدخن، أما الآخر فكان له شارب خفيف من شوارب سن المراهقة، يخشى أن يحلقه مخافة ألا ينبت مرةً أخرى. حدّق الأول فيّ وحاول أن يظهر بأنه رهيب، كما يفعل الأشرار في الأفلام الأمريكية، بينما أوقف الآخر "ميشو" الذي لم ينتبه لوجودهما لأنه كان مُنهمكًا في اللغة المجرية.

- "ميشو" يا فتى، هل هذا هو الكرواتي المقيم عندكم؟

أعرف إلى أين تقود هذه الأسئلة، فتحدّرت لثانية، أعرف أن مرشدي في "نوفي ساد" ليس واسع الحيلة. ولكن إجابة "ميشو" أذهلتني كما لم تفعل إجابة لا من قبل ولا من بعد.

- ليس كرواتيًّا. أبوه يقتل الكروات!

اندفع "ميشو" تاركًا المعتوهين المدهوشين، وبينما كنت أتبعه، ظللتُ أقنع نفسي طوال الطريق بأنني لم أعرف عمًّا كان يتكلم.



بعد ستة عشر عامًا، صحبتني إجابة "ميشو" كالموسيقى المزعجة طوال الطريق من "غورازدة" إلى "نوفي ساد"، على طرق البوسنة والصرّب الوعرة. كان يعرف هذا الصبي ذو العشر سنوات، والأصغر منّي بسنة ونصف السنة، ما تحدث به حينئذٍ، ولكنني قرّرت أن أتجاهل الأمر. كل طفل، مهما كان صغيرًا، كان سيكتشف عاجلاً أم آجلاً أن ضابطاً في الجيش الشعبي اليوغوسلافي، في الميدان في سلوفينيا، لا يمكن أن يكون هناك إلا لقتل الكُروات. على الرغم من أنه في منزل "رادوفيتش"، لم يُشر التلفزيون إلى ذلك إلا لما كان الصرب في خطر. الآن، عندما أفكّر في ذلك، على الأقل توقعت "دوشا" كل هذا، أو ربما عرفت أن عمليات القتل هذه وضعت نهاية لهؤلاء الذين قُتلوا، ولكن ليس للذين قُتلوا. كنت متأكدًا، في أيّام أغسطس الرطبة الحارّة، وأنا محاط بتلك الأخبار الأكثر وحشية، أن "دوشا" بشكل غامض تودع زوجها، الليلة تلو الليلة، وهي محشورة على الكنبه بين عائلتي "رادوفيتش"، و"جويكوفيتش"، تستجمع قواها لتشق

حياة جديدة. تستجمع قواها كي تهرب من مستشفى المجانين، حيث التلفزيون يشجع هؤلاء المجانين، يوماً بعد يوم، على الاعتقاد بأنهم أصحاء.

فُدْتُ سيارتي على الكوبري لِمَا بعد غابات "بيتروفاردان". غاصت عيناى في تيارات نهر "الدانوب" التي لا يمكن رؤيتها بوضوح. كانت "نوفي ساد"، التي في انتظاري في الجانب الآخر، لم تزل ساحرة، رغم بحثها الأبدي عن زمن أفضل. طفْتُ شوارعها المُتربة، وحاولت استكشاف أماكن رأيتهَا آخر مرّة منذ ستة عشر عاماً. بهذا الأسلوب، تجنّبت عمداً الوصول إلى وجهتي؛ منزل "دانيلو رادوفيتش". بدلاً من ذلك، شاهدت أهل "نوفي ساد" يتجولون في مدينتهم في يوم شتوي جميل، من مأواى الدافئ المتحرك. بخطوات سريعة، معتادين على برد "بانونيا" القارس، يتحركون من محلات تصفيف الشعر، إلى المخابز، إلى السوق والمحلات الصينية. لم أر هؤلاء الناس يلتفحون بكوفيات إطلاقاً، لم أتعرف إليهم في هذا الجليد كما هم في ذاكرتي.

سرعان ما تحوّلت نظرائي من الوجوه إلى الجدران، التي كانت ممتلئة بالخرابشات. صارت جدران "نوفي ساد" التي كانت جميلة في يوم من الأيام، تتوارى بشكل سيئ وراء حشود المواطنين المندفعين، تهدد الجميع؛ المجرىون، والألبان، والكروات، والغجر، والشواذ، والمتعهدون... حوائط "نوفي ساد" تؤمن بأن كوسوفو صربية، وأن الجنرال "ماديتش" بطل، وأن الشواذ مرضى، وفوق كل شيء أن "الوحدة فقط تنقذ الصرب". اشتعلت حرب جديدة على الجدران، بين رموز "شتتك" المرسومة، والصلبان المعقوفة النازية، بينما الناس المحليون كان من الواضح أنهم اعتادوا عليها، فيمرون دون أن يلاحظوها. ولربما اعتادوا أن يقولوا

"دعوهم والجرافيتي فهم مجرد أطفال"، ثم التزموا الصمت، وأشاحوا بوجوههم بعيداً عن هذه الكتابات على جدرانهم العتيقة، خلفية مدينتهم. أقتعوا أنفسهم أن هذا لا يخصهم، ينظرون إلى الأرض ويقولون "سيغسل المطر كل هذا".



صعدت درجات السلم التي أخذني عليها "دانيلو" بكل حماس إلى شقته. لم يزل السلم مُزرياً كما كان قبل ذلك. ارتسمت أمام عينيّ الذاكرة، كأنما لم يتغير شيء طوال هذه السنين. حتى خوفاً الذي كان يزيد مع كل درجة سلم، بدا كأنه صدى للخوف الذي انتابني في المرة الأولى.

لم يكن وصولي معلناً هذه المرة. لم أعد ابن "نيدلكو بوروجيفيتش" الممدوح، ابن عم "دانيلو". انقطعت صلتني بعائلة "رادوفيتش" من مدة طويلة، اقتربت نحو الباب كشخص غريب. طبقاً للقواعد غير المكتوبة، والناس يلتزمون بالقواعد غير المكتوبة أكثر من المكتوبة، يجب ألا أظهر دون هدية في يدي. ولكن القواعد في هذا المكان لم تعد تنطبق عليّ، أو هكذا أخبرت نفسي، ومن المرجح أن سلوكي غير المناسب كضيف يرجع إلى العالم الفاسد الذي جئت منه. ربما يقولون: "هكذا تجري الأمور في سلوفينيا"، في أحسن الأحوال، سيتساءلون عن أي ضرر متعذر إصلاحه دفعه هذا الصبي الصغير الجميل الذي عاش بينهم ذات مرة ليصبح "لاعب تزلج"، كما يقولون في سلوفينيا، مشيرين لحبهم لهذه الرياضة، وهو شيء غير متخيل لهؤلاء الذين يسكنون في سهول سلوفينيا.

أعتقد أن الشيء الذي سيكشفني هو تراجع الغريزي بعد قبلة التحية الثانية على الخد، ناسياً أن الصرب يعطون القبلة الثالثة. وأعتقد أن ما سيكشفني هو أنني لن أستطيع أن أحضن بنت عمي "جوفانا"، كما هو معتاد في هذه الثقافة الحساسة، وسأمدُّ يدي بدلاً من ذلك، مثل الصَّرَاف الذي زوَّد توًّا تصنيفي الائتماني. أعتقد أن ما سيكشفني هو أنني سأظلُّ أخاطب "دانيلو" و"سافو" رسمياً، حتى بعد أن قالوا لي إنه يجب أن أتوقف عن هذه التفاهات السلوفينية؛ لأنني واحد منهم، ويجب ألا أستخدم غير صيغة التخاطب غير الرسمية. أعتقد أن ما سيكشفني هو آلاف التفاهات التي زادت على المرّة الأولى، والتي ستفصلني عن هؤلاء الناس، وتجعلني مختلفاً وأجنباً. حينما وقفت أمام باب شقّة "دانيلو رادوفيتش"، أحسستُ بأنني سلوفيني أكثر من أي وقت مضى، أنني سلوفيني من "ساسي لراسي".



لم أستطع سماع أي شيء من وراء الباب. وهذا يؤكد أنه لا يوجد أحد في المنزل، وإلا لكنت سمعت حركة من أي فرد من هذه العائلة النشطة كالقروود، الأعلى ضوءاً في البلقان. أوشكت أن أستدير وأدق على باب الجيران وأسأل عنهم، حينما سمعت صوت خطوات قادمة نحوي، فتبعها مباشرة صوت قفل يفتح. انفتح الباب قليلاً، ورأيت رجلاً نحيفاً جداً، يكاد يكون "دانيلو"، وإن كان لا يمت بشيء لصورة "دانيلو" التي في ذاكرتي.

- أي خدمة؟

- "دانيلو"؟

- نعم، أنا "دانيلو".

- أنا "فلادان"، "فلادان بوروجيفيتش"، ابن "نيدلكو".

لم يظهر على الرجل العجوز أي رد فعل لما قلت، ولا يوجد على وجهه المُجَعَّد اليابس أي تعبير. أخذ يتفحَّصني وهو لم يزل ينظر من خلف الباب نصف المفتوح. وفجأة اقترب مِنِّي جدًّا لدرجة أنني تشممت أنفاسه الكريهة، وحدَّق فيَّ. بدا أنه ينقب في ذاكرته، ولكن بلا جدوى. اعتقدت أنه ضحية لشيخوخة مبكرة، وأني مُسحت من ماضيه بلا رجعة.

ولكن بعد ذلك أمال "دانيلو" رأسه بلطف على صدري، وطوقني بذراعيه، وحضنني بشدَّة، فحضنته.

- "فلادان"، أين كنت؟ لماذا لم تخبرني بأنك قادم؟ يا لها من مفاجأة!



توقَّفت الحياة تمامًا في شقَّة "دانيلو رادوفيتش"، كل قطعة من الأثاث كما هي، كأنما لم يمسه أحد طوال هذه السنين. ما زالت نتيجة تقويم مثبتة على باب الدولاب بشريط لاصق. والتليفون موضوع على مقعد صغير في الصالة، والمرأة لم تعلق، فما زالت مسنودة إلى الحائط. الشقة فوضوية الصمت، تذكَّرني لما كانت "جوفانا" نائمة، والثمانية يتهامسون في المطبخ، ألقى الضوء على الفراغ الرهيب، والهدوء القاتل كالحياة الساكنة.

تبعث "دانيلو" إلى المطبخ، حيث بقايا الطعام الموضوعة على الطاولة للعشاء، أو ما يشبه العشاء. رائحة الطعام توحى بأنه من أسبوع، والموقد ينم عن رجل لا يدخل المطبخ إلا لضرورة الحياة.

- اجلس يا "فلادان"، اجلس يا ولدي، لماذا لم تخبرني بأنك قادم؟

بسرعة نقل "دانيلو" الأطباق من الطاولة إلى الحوض الذي كان بالفعل مُكَدَّسًا، ولكنه استطاع أن يحشر طبقًا ومقلاة. لما دفس المقلاة، انتظر لحظة، ليعرف إذا كانت الأطباق ستستقر أم ستسقط بالماء على أرضية المطبخ. ثم رفع طفاية ملآنة من على الطاولة، وكنس بيده فتات الخبز إلى الأرض، وحاول أن يركلها تحت الطاولة دون أن ألاحظ.

- آه يا عزيزي، أتودُّ أن أحضر لك طعامًا؟

- شكرًا عمو "دانيلو"، لست جوعانًا، ما عليك إلا أن تجلس.

- تودُّ شرب فنجان قهوة؟

- حسنًا.

- قهوة أم كأس شنابز؟ أيهما تفضل؟

- اشرب أنت الكأس نيابة عني، لا ينبغي عليّ أن أشرب. ولنشرب القهوة

معًا. حسنًا؟

تحرك في المطبخ، مرتبِّغًا، يفتح الأدراج ويقفلها، لا يعرف أين وضع كئكة القهوة، ولا أين ترك البن، ولا أين خبأ السكر. حاول أن يستخرج ملعقة القهوة من تحت كومة الموائع غير المغسولة، ولكن لم يفلح، فتوقف، وعاد يحاول مرّة أخرى، ولم يفلح. كنت أراقبه وأتساءل ماذا حدث له طوال هذه السنين، لماذا لا يبدو كما أتذكره؟ كان نحيلاً للغاية لدرجة أنك لا تتعرف إليه، فقد تبدّل وجهه المدُّور، وسكن فيه الإنهاك والتجاعيد.

كان من المحزن أن تشاهده، فلقد بدا كأنها أهمل عمدًا. يده ترتعش وهو يشغل البوتاجاز، وحينما وضع البن في الماء الساخن، ولما صب الشنابز في الكأس، اعتذر بأنه لا يمتلك شيئًا آخر يقدمه. بنطونه واسع، دفس في وسطه قميصه الواسع جدًّا. لقد فقد كل همجيته السابقة، وابتلع

كرامته السابقة، كرجل كان ذات مرّة طائشًا وفتى متهورًا، تحوّل لهذا الكائن المتواضع، الذي لا يستطيع أن يخفي بؤسه عن زائر عابر.

- "فلادان"، يا ولدي، ماذا تفعل هنا؟

- أبحث عن "نيدلكو".

- ماذا؟ هنا؟

- في كل مكان.

- ولكنه ليس في "نوفي ساد".

- اعتقدت أنك تعرف أين هو.

صبّ "دانيلو" لنا بعض القهوة، وجذب كرسياً وجلس بجواري. الآن بدأت عيناه

تتخبّأ من رجل يبحث عن مجرم حرب، لقد انطبع لديّ أنني أخفته.

- كان هنا ذات مرّة، ولكن من مدة طويلة.

- هل هو على اتصال بك؟

- هل أنت جائع؟ يمكنني أن أذهب إلى السوبر ماركت و...

- لا داعي، أرجوك.

- هل القهوة مضبوطة؟

- مضبوطة.

- هل تريد بعض الحليب؟

- لا... شكرًا.

- يوجد هنا سُكَّر.

- لا... شكرًا... أحب القهوة سادة.

- بالضبط مثل "نيدلكو".

نظرت إلى ذلك الرجل، يبدو ككومة من الدخان الأسود القاتم، وضع يده النحيلة على يدي. ضغط عليها قليلاً، وحاول أن بيتسم، كما لو أراد أن يظهر لي أنه مسرور لوجودي معه.

- أقصد هل اتصل بك "نيدلكو" في الآونة الأخيرة؟

- أتمنى ألا تصدق كل هذا.

- كل ماذا؟

- هذه القذارة التي يتهمونه بها.

لم أمتلك إلا أن أهزّ كنتفيّ. فكلمات "دانيلو" جعلتني أشعر فجأة بعدم الارتياح. لقد غمرني شعور بالذنب، لكنني أدركت أنني لم يكن لديّ خيار لأفعل هذا. فلم أدافع مرّة من منطلق الغريزة عن أبي، لم أعتمد، ولو للحظة، على ما أعرفه عنه. ففكرة أن أبي مسؤول فعلاً عن قتل ناس أبرياء أصابتنني بالذعر، ولكن لم أفكر في أن أهرب من هذه الفكرة، لم ألقأ مطلقاً للإنكار، لم أحاول بتاتاً أن أقنع نفسي بأن هذا كذب.

على النقيض منّي، كان "دانيلو" حليفاً لأبي.

- لا تصدق، يا عزيزي "فلادو"، أرجوك لا تصدق هذا، فهذا جزء من لعبتهم.

بطريقة غريبة إلى حد ما، شعرت أن كلمات "دانيلو" جيدة، وشجعت الآن رغبتني المتزايدة في الإيمان بها، لإخفاء شكوكي وما وراءها من مخاوف.

- تستطيع أن ترى أنهم يطاردون من يختارون. وكما تعلم لا حرب دون ضحايا. إلى جانب ذلك، ربما كان في جيشه قلّة من جنود حقيقيين، ولكن معظمهم كان من الناس العاديين، الذين قُتلت عائلاتهم، وحُرقت بيوتهم. كانوا يائسين، غلبة لا أحد معهم، ولا مأوى. والآن أخبرني كيف يُمنع مثل هؤلاء الناس من الانتقام.

إنه يؤمن بكل كلمة، ويعطي انطباعاً بأنه متحدث يعيد صياغة أفكار متداولة بشكل جيد.

- لو أنهم يريدون أن يروجوا لهذه القصة، فعليهم أن يبدووا من أول السطر، ويسألوا أنفسهم مَنْ قتل عائلات وحرقت بيوت هؤلاء الجنود الذين كانوا مع "نيدلكو". إنهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك؛ لأنها ستسبب الأساس الذي بنوا عليه أكاذيبهم. لذلك فهم يحتاجون إلى "نيدلكو"، المزعوم بأنه قاتل جماعي ولديه خطة كبرى لمحو الفقراء والأبرياء. إنها مسرحية أخلاقية بشكل أنظف، وليست القصة كلها، من البداية حتى النهاية. إنهم يحتاجون إلى شيرر كرتوني، جنرال صربي يخرج من العدم ويبدأ في قتل النساء والأطفال والكبار بلا سبب. لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توجد بها روايتهم للواقع، فكرة أن الصرب فقط هم الذين يحاربون ويقتلون. هذا هو السبب الذي جعلهم يؤلفون محاكمة دولية في "لاهاي" منهم، حتى يمكنهم أن يسجنوا واحداً تلو الآخر من الصرب. لأنهم بهذه القصة عن الصرب الشياطين، سيستخدمون مصالحهم. لا أحد يريد أن يجمع ثلاث قصص كي يحصل على الصورة الحقيقية لما حدث. عندها سنرى مَنْ هم فعلاً. وماذا فعلوا. وعندها فقط ستُطرح الأسئلة الصحيحة.

للمرة الأولى منذ أن تحرك في شقته تظهر حيويته. لمعت عيناه. أعاد اكتشاف معنى وجوده مرةً أخرى من خلال هذه القصة.

- في هذه الحرب لا تُسرد قصة حقيقية من البداية للنهاية. إنهم دائماً يتحدثون عن "سربنيتسا". ولكن لا يتحدثون عن قُرى الصرب التي بعد "سربنيتسا"، وعن هؤلاء الذين ذبحوا وحرقوا هناك.

صَبَّ "دانيلو" قدرًا من الشنابز وشربه مرّة واحدة، كأنه غير مدرك لما يفعل. لقد كان مُنهمكًا تمامًا في قصّته، مقتنعًا بكل لفظة قالها.

- يجب أن تعرف ما هو هدفهم من البداية، منذ كوسوفو. إن هدفهم دائمًا هو تفتيت يوغوسلافيا وبيعها بهلاليم. ما كان "تيتو" ليفعل هذا، ولا "ميلوشيفيتش". وإذا لم يحدث هذا بالملاينة، فلا بُدَّ أن يتم بالقوة. لم يستطيعوا شراء يوغوسلافيا؛ لأننا كُنّا دولة كبيرة وقوية، فلذلك بدؤوا في تفتيتها إلى قطع صغيرة. ما أسهل شراء هذه المستنقعات الصغيرة؛ شراء كوسوفو الصغيرة، وقبلها سلوفينيا، وغدًا الجبل الأسود، و"فويفودينا" والبوسنة والهرسك. فرّق تسد، هذا هو مخططهم على طول الطريق. إنّما صربيا الأكبر والأقوى ترفض أن تبيع نفسها، فادّعوا أولاً أنها المعتدي، ثم وصفوها بالدولة الفاشية، واتهموها بمليون جريمة حرب، وخطف رئيسها، وفي النهاية، عندما ينهار هذا الكيان المسكين، يأخذونه مجانًا، ويأتون بشبه رئيس وزراء، هذا الـ"جينجيتيش" الضعيف، ويزعمون في الوقت نفسه أنهم ينقذون صربيا من نفسها. كل هذا جزء من مخططهم، يا "فلادان" يا ولدي. لقد اشترونا جميعًا. وكما ترى، إنهم ينقذوننا من أناس مثل "نيدلكو"، إنّما أنت وأنا والرّب والناس نعلم أنه لا أحد في حاجة لإنقاذه منه، فهو قاتل من أجل بلده مثلما يجب أن يفعل أي جندي. كما ترى، كل واحد مسموح له أن يحارب من أجل بلده، ما عدا نحن الصرب، نحن الذين حاربنا من أجل أنفسنا، صنّفنا بالمعتدين، والغزاة، والمجرمين.

بدأ صوت "دانيلو" يضعف مرّة أخرى، ومعنوياته المتحطمة تومض سريعًا. فقد أعادته كلماته للحياة مجددًا، وأرهقته في الوقت نفسه. مظهره

الهيل يتناقض تمامًا مع كلماته العدائية المتصاعدة. إنه الآن يشبه الرجل العجوز الذي يحكي مغامراته لأحفاده بصوت مُرتعش. مرّت نسمة هادئة على تجاعيد وجهه لا علاقة لها بكلماته. في الوقت ذاته، شعرت بأن كلماته الغاضبة جلبت له قسطًا من الراحة، فكلما أطل في الكلام، ظهر بحالة أكثر سرورًا. في لحظة ما، لم أكن متأكدًا من أنه سيتوقف.

- ألم يتصل بك "نيدلكو" إطلاقًا؟

- آخر مرّة كانت منذ عام. خاف أن تكون شقّتي مراقبة. هل تعلم عندما تسمع صوتك في سماعة التليفون؟ هذا حدث عندما اتصل، وهذا يعني أن تليفونك مُراقب. فلم يتصل ثانية. اتصل فقط عندما ماتت "سافا". اعتذر عن عدم تمكّنه من حضور الجنازة. كأنني لا أعرف مدى مصيبته.

- هل تعلم أين هو الآن؟

- كنت أهنئ أن تخبرني أنت بذلك.

- لماذا أنا؟

- حسناً... إمممم...

- ماذا تقصد؟

- اعتقدت أنه ذهب إلى سلوفينيا.

- لماذا؟

- لا أعرف... مجرد أحسستُ بذلك... أو ربما قال شيئًا جعلني أعتقد... لم أعد أتذكّر.

- هل أنت متأكد؟

- ماذا يتوجّب عليّ أن أعرفه؟ لقد قال لي إنه يريد الرحيل من هنا... أعلم

هذا، وذكرك، فاعتقدت...؟

- كيف ذكرني؟

- أوه يا "فلادان"... لقد مرَّ على ذلك وقت طويل.

- أرجوك.

حاول أن يتذكَّر، حاول أن يتذكَّر كلمات "نيدلكو"، لكنه في النهاية هزَّ رأسه فقط. كان حزينًا من أجلي؛ لأنه خيبَّ آمالي، وكان أكثر حزنًا على نفسه؛ لأنه يرى حياته تتلاشى في صمت، يلعن مصائب عمر الشيخوخة التي كبَّلتته مبكرًا في صمت. تلاشى أمني بسرعة، وفي الحال أصبح كل ما أريد هو أن أساعد هذا الرجل الحزين ليسترد جزءًا من احترامه لذاته قبل أن أغادر.

- كيف حال "جوفانا" و"ميشو"؟

- "جوفانا" في أمريكا.

- حقًا؟

- نعم.

- وكيف حالها؟

- بخير، على ما يُرام، أعتقد هذا.

- أين في أمريكا؟ في أي مدينة؟

- مَنْ يعرف؟ لقد انتقلت العام الماضي... "سياتل" على ما أظن.

كان "دانيلو" يزحف إلى الخلف في داخل نفسه ويغلق الباب. فتلك الحياة الصغيرة التي تراكمت فيه، تتقلص الآن، ولا حتى ذكر ابنته يمكن أن يوقظ شيئًا فيه. فكلما كانت القصة تخصُّه، كان أكثر إلهامًا، وكلما ابتعد عنها، تصح بلا قيمة.

- وماذا عن "ميشو"؟

- في بلجراد. يدرس.

- وماذا يدرس؟

- أعتقد أنني أعرف؟ غير مسموح لي بسؤاله عن أي شيء.

لم يستطع أن يُخبئ خيبة أمله هذه المرّة. فها هي صورة عن حياته آتية، صورة مرسومة على خطوط وجهه المنهك، الذي دبّ فيه العجز قبل الأوان. بمرور السنين، صارت شقته، التي كانت في يوم من الأيام تضجُّ بالنشاط والحياة، مقبرة تتبعثر فيها عظام الأحلام غير المحققة لتتعمّن كلها في الصمت المشؤوم. لقد توقّف زمنه وثبت في مكانه، مُكبَّلاً بمخاوفه من الغد، لم يقدر أن يجمع القوة الكافية ليمضي إلى الأمام. أفكّر كيف أن هذا الرجل، الذي عاش على حافة آمنة من الحرب، لم يرَ فعلاً نهايتها. على عكس "جوفانا"، كان أكبر سنّاً من أن يهرب إلى الجانب الآخر من العالم. من المستحيل الآن معرفة إذا كان مذنباً بأي شيء. لا أعرفه بما فيه الكفاية لأعرف إذا كان يستحق هذه الجثّة التي يعيش فيها، ولكن لأنه يجلس أمامي بلا روح، فهو يبدو مثله مثل أي شخص آخر من الضحايا الأبرياء لهذا الجنون اللا نهائي.

- فلتبقّ معي قليلاً.

- لا أستطيع يا عمو "دانيلو"، أوْدُ أن أذهب إلى "ليوبليانا". المسافة طويلة.

ابتسم "دانيلو" وأوماً. كان هذا مجرد شيء آخر من سلسلة الهزائم، كان يمثل لي هذا الشيء الكثير والقليل في الوقت ذاته.

- سر على مهلك. فالشرطة على الطريق.

- سأفعل ذلك، شكراً لك.

نهضت وتوجهت نحو الباب، بينما "دانيلو" لم يزل على الطاولة. بدا حتى أنه لم يقدر أن يودعني ولو بنظراته. أمسكت بمقبض الباب، واستدرت نحوه مرّة أخرى:

- ألم يتصادف وعرفت قصة "ميلوتن" و"آجنيس"؟

نهض دون أن ينظر إليّ، وبينما يقترب، لمحت التليفون الأخضر على طاولة صغيرة في الصالة، حيث وقفت "دوشا" وهي تتحدّث إلى "نيدلكو". فجأة رأيتها تتوقّف لحظة وهي في طريقها إلى المطبخ، تُحدِّق في هذا الشيء الذي لم يرنّ لأيام عديدة، ورأيت تعبيراتها المُستاءة، التي تفحصت بها وعذرت هذا الجهاز الأخضر الصامت. وتذكّرت - لما رأيتها في ذلك الوقت - عندما بدا لي أن انتظار رنينه سيتماد لفترة أطول.





لا أعرف بالضبط كم من الأيام مضت منذ ذلك الأربعاء حينما اتصل أبي
 لآخر مرّة ووعدنا بأنه سيأتي لنا، أو أي شيء آخر وعد به أمّي. وقد وقفت في
 الصالة وأومأت، قبل أن تقرر أخيراً بأننا لن ننتظر المكالمة القادمة. ربما أدركت
 أن اضطراب البلاد سيتصاعد حتماً إلى صراعات وأن الميدان كان رمزاً لطيفاً
 للحرب التي كان يعدها الجيش الشعبي اليوغوسلافي طوال هذا الوقت، على
 الرغم من أن جنوده ظلوا لمدة طويلة مقتنعين بأنها لن تحدث. ليس من
 السهل أن تقر بكل ما تراكم في نفسها طوال الأيام التي مرّت، أو تطلق ما في
 نفسها لصوت يتقطع ويطقطع في الطرف الآخر من خط التليفون. وخصوصاً في
 صالة شقّة يسكنها تسعة أفراد، فعلى الأقل سيمرُّ واحد بجوار التليفون كل
 دقيقة أثناء أحاديثهم.

حتى يومنا الأخير هناك، ظلت كل من عائلة "رادوفيتش"،
 و"جويكوفيتش" تسعى لتخفيف الآلام عن "دوشا"، ولو بقدر يسير، ولكن
 لم يفهم أحد منهم أن أي صراع عسكري سيكون قاتلاً بالنسبة لها، بصرف
 النظر عن مدته، أو المتورطين فيه، أو عدد ضحاياه، أو نتيجته

النهائية. وعلى النقيض منهم، كانت "دوشا" مدركة أنه لا يمكن لزوجة ضابط صربي أن تنتظر زوجها إلا في صربيا. وهذا يعني أنها تضطر لقبول الجانب الصربي كجانبها، وصربيا كوطن لها. لطالما كانت صربيا المكان الذي تحاول أن تتعد عنه بقدر ما تستطيع. والآن أصبح شبه مستحيل أن تختبئ منه. ذات مرّة، حينما كُنَّا نحاول أن ننام، وعلى الرغم من الحرارة المتذبذبة، قالت:

- آه لو أقدر، أن أرحل، مجرد أرحل، حتى لو لـ"ليوبليانا"!

هذا دليل على كم كانت تشعر بأنها حبيسة ويائسة في "نوفي ساد".

أعتقد أن أمِّي أرادت أن تنقل كل هذا إلى أبي، في المحادثات الطويلة في فندق "بريستول"، وفي مكالمات التليفون في صالة "رادوفيتش"، حيثما كانت تحاول مراراً أن يسمعا. ولكن في ذلك الوقت كان قد تم استدعاؤه إلى الميدان، ولم يكن قادراً على التخلص مما وجد نفسه فيه مهما كان. لم يجرؤ أبي في أي لحظة على إخبار أمِّي بأنه لن يتخلّى عن زيّه العسكري، وأنه سيظل ضابطاً في الجيش الشعبي اليوغوسلافي، حتى عندما لم تصبح بعد يوغوسلافيا، ولم يعد في خدمة الشعب كله. من المحتمل أنه لم يرد حتى يسمع ما كانت تخبره به، مفضلاً أن يطوي نفسه تحت جناح الضباط الآخرين، الذين كان رأيهم مفضلاً على رأيها؛ لأنهم كانوا يقصون عليه القصة التي يحب أن يسمعا. قصة أن كل شيء سينتهي حالاً، وأن الأمور ستعود لما كانت عليه من قبل.

مَن يدري أين كان العقيد "أمير موزيروفيتش" عندما كان لا يزال بإمكانه أن يقول له: "اذهب، اهرب بقدر ما تستطيع، هذه حرب لا تناسب الفئران، ناهيك عن البشر!" مَن يعرف، ربما بالفعل أخبره

"أمير" بذلك، ولكن "نيدلكو" لم يرد أن يسمع إلا أوامره، منتظرًا الصباح عندما يستيقظ ثانية من هذا الحلم القبيح، مُستلقيًا على سريره مرّة أخرى في "باولا"، يطفئ المنبه الفضي، هدية جارتنا "إنيسا"، في عيد ميلاده الثلاثين. لسوء الحظ، كان أبي قلقًا من أن يُرى جبانًا. لم يدرك مُطلقًا أنه في تلك الأيام الهروب من الجيش هو الأشجع والأجرأ من أي فعل آخر.

لقد تركه خياله الواسع معلقًا، وقتما كان يمكنه إنقاذه. لو أنه تخيّل فقط حياة جديدة، حياة من دون الرّبي العسكري، ولو لمجرد ثانية واحدة. لا يمكن أن يتخيّل "نيدلكو" نفسه، الضابط في ثالث أكبر جيش في أوروبا، في شخصية "نيدلكو" سائق الأجرة في نيويورك، أو "نيدلكو" المدير في محل أحذية في "ستوكهولم"، أو "نيدلكو" ناقل الأثاث في "تورونتو". كان بإمكان "نيدلكو"، في حياته السابقة، أن يتخيّل أي شيء، ولكن ليس من دون زيّه العسكري.

لا أدري متى أدركت أمّي أخيرًا أن الجنرال "بوروجيفيتش" لن يتخلّى عن جنون الرّبي العسكري. أعرف فقط أنها - في لحظة معينة - عرفت أن الرجل الذي سيعود من الميدان في يوم ما، لن يكون زوجها بعد ذلك، وأن السؤال الأهم؛ هل سيعود إنسانًا؟ ربما كانت أمّي تبحث أيضًا عن عذر لكل شيء قامت به زوجات الضباط الأخريات كواجب للشهيد برّنه بحبهن، وتفانيهن، ورغبتهن في أن يجمعن أسرهن معًا. أم تكن قادرة على الحصول على هذا العذر؟ في لحظات اليأس الشديدة، تتحول "دوشا" إلى إنسان عقلائي، لا يبالى بأي شيء، وحذر بشكل رصين، ومقاتلة من

أجل البقاء. فقد قرّرت ألا تكون شهيدة في قصة حياتها الشخصية لحظة هروبها من أبيها.

لذلك في النهاية كان قرار الانطلاق إلى سلوفينيا حكيماً ومدروساً جدّاً. لقد عرضته عليّ أمّي في البداية مجرد فكرة، ولكنني أيقنت بعدما قالت لي ذلك إن الصيف الذي نتوق إليه أنا وأصدقائي في "باولا" لن يجيء أبداً، على الأقل بالنسبة لي. ثم شرحت بعد ذلك نيتها لـ"دانيلو" و"سافا". أوجزت في الكلام، بعبارات واضحة، وبدت مصممة حتى إن المضيفين، الذين ظلوا محافظين على آداب الضيافة، لم يعترضوا.



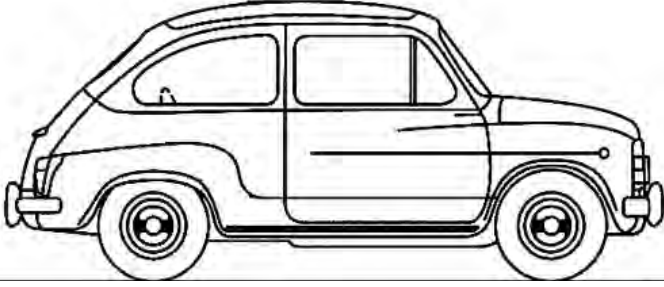
في الصباح التالي، جاء "دانيلو" يلهث وهو ينزل السُّلّم، وراح يصيح من الصالة:

- سيغادر الباص في الخامسة!

كان ذلك بمثابة صفارة إنذار لغارة جوية للصحة المجتمعة، الذين كانوا عاكفين على قهوتهم الصباحية لأكثر من ساعة. في الحال، هبوا على أقدامهم في حالة دُعر. اتّضح أنني ووالدي فقط كُنّا جاهزين بالفعل للرحيل، بينما الآخرون إما غير مصدقين، أو لم يريدوا أن يصدقوا أننا سنمضي مع هذه الفكرة المجنونة. ما كان لليوم أن يمرّ دون هرع عام، ونواح، ودموع، وأحضان، وقُبلات، وكلمات وداع فخمة تبدو مُفتعلة مثل عويل السيدات في الجناز الأوثودوكسية. ولكن لا يزال هناك حزن حقيقي محسوس بين عائلتي "رادوفيتش"، و"جويكوفيتش" لم يستطع أحد أن يخفيه من الجميع.

أثناء نزولنا على السُّلَّم وسط موكب طويل من التلويح وشهقات الجميع الذين ساروا خلفنا، شيء ما في كل احتفاء الوداع هذا جعلني، وأعتقد أمِّي كذلك، أشعر بأن كل ما يحدث فظيع. لم يكن في حسابي أن أعتبر هؤلاء الناس عائلتي، ولكن في اللحظة التي رتَّب فيها "دانيلو" حقائبنا للمرَّة السادسة في حقيبة سيارته الـ"زاستافا 101"، واصطَفَّ مع الباقي في مدخل العمارة، كالجيش الحزين، صرت أشعر بذلك. أصبحوا عائلتي التي لم تكن من قبل، وأصبحت حزيناً بالفعل لأنني سأتركهم.





وفقاً لـ"دانيلو"، كان جدِّي في الثانية والثلاثين من عُمره عندما أُصيب بأزمة قلبية، ففقد السيطرة على سيارة الشركة "زاستافا 750" وانحرفت عن الطريق. مات على الفور، تاركاً وراءه ابناً في العاشرة، "نيدلكو"، وزوجة مجرية شابة، "آجنيس". أكد أن أفضل أصدقائه دكتور اسمه "ميروسلاف"، جاء أبواه إلى "فويبودينا" من الهرسك بعد الحرب، ليزرع - تماماً مثل "ميلوتين" - الأرض التي تركها الألمان للأرملة الشابة، أنه من الغريب أن يصاب شاب مثله بأزمة قلبية مفاجئة. ولكنه أضاف بعد ذلك "قد يشيخ القلب بسبب ما رآته العينان". راحت "آجنيس" تردد هذه العبارة لكل من يقدم لها العزاء، ولكنها لم تعرف حقيقتها؛ لأن المرحوم زوجها لم يخبرها بما رأت عيناه. بعد أكثر من عامين بقليل، ماتت جدِّي بالسرطان، الشيء الثاني الذي لم يخبرني به "نيدلكو" مُطلقاً، إذ اعتاد أن يحتفظ بسرية قصص الأمراض كأنها أسرار دولة. ولم يخبرني أيضاً بأنه - بعد موتها مباشرة - دارت قَصَّتْها في كل القرية، عن الشابة التي تحطمت من الحزن. حتى صارت مقولة "حزين مثل آجنيس" موجودة

في قريتها حتى الآن، على الرغم من أنه لا يتذكّر أحد جمال أرملة "بوروجيفيتش" إطلاقاً.

وهكذا كان "نيدلكو" في الثانية عشرة عندما انتقل مع ابنة عمّ أبيه "فيدا"، قريبته الوحيدة على قيد الحياة، إلى "نوفي ساد". بعد أعوام، حكّت له "فيدا" حقيقة عائلة "بوروجيفيتش" منذ أن جاءت من "زليكا" القريبة من "توميسلافجراد" التي أحرقها الفاشيون من "الأوستاشا الكروات" في صباح أحد الأيام في عام 1942. لقد ألقوا بجُثث المذبوحين وأطلقوا النار على إحدى عشرة جثة من عائلة "بوروجيفيتش"، ألقوها على كومة من الجُثث يبلغ ارتفاعها أمتار عديدة، مكومة أمام منازلهم المحترقة، ثم وقفوا عليها ليروا ما فعلوه لمدة طويلة، مستمتعين برائحة الرماد الصربي.

على الأقل، كانت هذه هي القصة التي لخصها "دانيلو" نقلاً عن أمّه. ومن الواضح أنها كانت الوحيدة التي وثق فيها جدّي ليحكي لها القصة، القصة الحزينة عن كيف وجد كومة من الموتى أمام بيته، فيهم جُثّة أمّه، وأخته، وخالاته، وأخواله، وأربع جُثث من أبناء عمومته. في ذلك الوقت، كان جدّي الأكبر، "ميلوتين"، في العاشرة فقط؛ طفلاً بشعر أحمر وشم على وجهه، قادماً من المرعى. بعد عشرة أعوام فقط، وصف بإتقان مُحكم كيف تعرف إلى القتلة في زيّهم الأسود من حيث كان يختبئ. وبعد أن انتهوا ورحلوا، اقترب بحرص من الكومة، ووقف أمامها. أخذ يلمس بلطف وجه أمّه الميتة المُلطّخ بالدم؛ كي يتأكد أنه لا يحلم. ظل يشاهد هذا المشهد السريالي لمدة طويلة، معتقداً أن كل هذا مجرد لعبة. من المؤكد أنها ستنتهي حالاً وستعود الجُثث أحياء مرّة أخرى.



هذه هي القصة التي عرفها "نيدلكو" من "فيدا" بعد سنوات عديدة، وها أنا الآن بدوري أعرفها من ابنها "دانيلو". كانت تلك قصة أسوأ مرض في عالمنا؛ قصة الذكريات التي ستتبعني إلى "ليوبليانا"، والتي أعلم أنها ستتبعني إلى أي مكان سأذهب إليه.

قال لي "دانيلو" إن "الناس يعتقدون أن هذه أسوأ لعنة حلت بهم"، تبعتني كلماته هذه وأنا أسير في منحنيات جبل "فريشكا جورا" عبر سهول "روما" بصربيا، حتى قاطعتني بشكل عنيف ضابط جمارك كُرواتي. رأى هذا الرجل، وشعار النبالة يزخرف صدره، أن وجوده يتمثل فقط في منعي من إحضار أي زجاجة خمر من صربيا إلى أراضيهم، ولكن في خضم مهمته الوطنية، استوقفه ذكر "نوفي ساد":

- هل أنت قادم من "نوفي ساد"؟

- نعم.

- وكيف الحال هناك، في هذه الأيام؟

- بخير.

- كانت مدينة جميلة في يوم من الأيام. هل الناس ما زالوا يتمشُّون على

ضفة نهر "الدانوب"؟

- أعتقد هذا.

- ما أقبحهم! لو تعرف كم كانت جميلة. رائعة! والبنات! لا أعتقد أنه

يوجد مثل هذه البنات الآن. لقد دُمَّرت هذه المدينة. ولكن حينئذٍ...! ما زلت

أشعر رغبة عارمة في الانتقام كلما شاهدت نهر "الدانوب" في التلفزيون.

أذكر كل شيء كان يسير عليه هناك... لو أنك تعرف يا "فلادان". لا يمكن أن ترى ذلك بعد الآن. ولا حتى في أمريكا.

أعاد لي جواز السفر، ولكنني لم أكن متأكدًا إذا كان من المعقول أن أتركه في عز لحظات الحنين تلك. أخيرًا، أشار لي بالتحرك. كنت سأسعد باستئناف رحلتي على الطريق، لو أن سيارتي المتهالكة لم تقرر الإضراب في تلك اللحظة بالذات، التي قاطعت أحلام الضابط الجنسية عن "نوفي ساد"، وأرجعته إلى دوره مدافعًا عن عالمنا.

- وماذا بعد؟

من حُسن الحظ أن السيارة أدركت خطورة الموقف وأنقذتنا من أي عدوانية محتملة بعد حنين هذا الضابط المتحرش للضفة اليسرى لنهر "الدانوب" وكأنه دماسي. لا أعرف لماذا، ولكنني دائمًا أخاف من هؤلاء الناس الذين يصحون عاطفيين بهذه الطريقة. لقد انتابني شعور بأن مثل هؤلاء الرجال قُساة المظهر من البلقان، أولئك الذين تجلب أغانيهم الرقيقة الدموع، أكثر خطرًا من الوحوش الذين تجدهم في تلك البيئة الموحشة. في مُحَيَّلتِي، مطربو هذه الأغاني قادرين على الأعمال الوحشية، التي يمكن للناس الأقل عاطفة أن يتخيّلوها. يمكن أن أتصور ضابط الجمارك يدندن برقة على خلفية أنغام "التامبورिका" المتألثة، بينما يغتصب فتاة في الثالثة عشرة من "نوفي ساد"، ويعتبرها مسؤولة عن عدم قدرته على التمشية بمحاذاة نهر "الدانوب"، مع رقيقة بالغة وهما متشابكا اليدين.

حاولت ذات مرة أن أصف لـ "نادية" هذه الحالة العاطفية القاتلة المحتملة. سميتها "متلازمة العاطفة البلقانية الطفولية"، وعرفتها بأنها

"توابل مهمة" في عمليات قتل الإخوة والأخوات غير المعقولة، التي مورست بشكل طقسي في هذه الأنحاء منذ خمسين عامًا تقريبًا. لربما تم اعتبار آخر حلقة في سلسلة الإبادة الجماعية المحلية أنها عمدًا مع سبق الإصرار، كما كان ذلك واضحًا بطريقة وحشية. ولكن أثناء إنجازها، انتاب هؤلاء القتلة الهواة، بلا شك، حالة من الحنين. فحطموا الأكواب والرؤوس في الوقت ذاته، على خلفية موسيقى الأورديون الرقيقة.

هكذا كنت أتخيّل دائماً سفك الدماء في البلقان. بالنسبة لي، لم يكونوا قتلة مُعدي الروحانية ينفذون أوامر من فوق فحسب. لا، بل كنت أتخيّلهم، في ظل مخاوفي، يتصبّبون عرقًا، إخوة مخمورين، يطربون للأغاني نفسها التي اعتاد ضحاياهم أن يستمعوا إليها في حالات الحب، الأغاني نفسها التي يرقصون عليها في زفافهم. كان هذا أيضًا تشبيهي للحرب في البوسنة؛ كابوسًا ضخّمًا للحنين، وعردة دموية للألم النفسي. انتقام للواقعين في الحب، للصبيان غرباء الأطوار. ولربما عبارة "مَن يغني لا يؤذي" دخلت عقول المراهقين في زيّهم الرسمي، حيث غنوا، وأطلقوا النار، ورموا الجُثث في الخنادق، وعانقوا، وقبلوا وكشفوا أنفسهم البلقانية الحساسة لبعضهم بعضًا. كل هذا كان يمثل لي مجرد تعذيب وحزن من أولئك الناس البدائين شديدي الحساسية.



"تعلم أنه لم يعد له أحد، غيرك أنت ودوشا. عندما أخذوكما منه، تهاوى عالمه كله".

لا أدري من الذي أخذنا بالضبط، وإن كنت أشك أن هذه تمثيلية من تمثيلات "دانيلو" عن المؤامرات التي تخيلها ضد صربيا والصرّب. ولكن فكرة أنه ينقل رسائل ما زالت تُؤثّرني. قد يبدو حقيقياً أن هناك اعترافاً بسيطاً خفياً بأنه من المحتمل أن يكون "نيدلكو" قد ارتكب بعضاً من هذه الجرائم التي يطارّدونه بسببها. وأن هناك مبرراً ضمنياً لهذا.

مررت أثناء قيادي السيارة، بالساحة التذكارية الخاصة بسقوط جبهة "سيرميا". فجأة خطر ببالي بأن "نيدلكو" قد يكون واحداً من هؤلاء المُختلّين اجتماعياً، ومعه كتيبة من المعتوهين تحت قيادته، وقد شهد مرتكبي الجرائم في كل مكان. ربما عقله كان مُشوَّشاً بألم الابتعاد عن أسرته، ولم يمتلك إلا أن يسير وراء أمه، ويخضع له، ثم يُصعّده إلى فورة قتل.

يبدو أنه لم يعد من المستحيل أن أبي قد سوّى بالأرض قرية كاملة مكتظة بالنساء والأطفال. لقد رأيتّه وهو يشاهد الجنود الهائجين بعينين دامعتين، يستمعون لصرخات بربرية صادرة من المساجين المحكوم عليهم بالإعدام بجانب دندنات كتيبة من مُعَنُّ شعبي محلي. تخيلت كيف تقع توّسّلات الرحمة في أذن معتادة على أغاني حب قديمة، وصرخات هذه التوسّلات لا تثير سوى سُباتها العاطفي. لربما يعرف "نيدلكو" حقاً كيف يحرق الأحياء، وكيف تشاهد الأمهات أطفالهن يموتون، وكيف يقتل الجنود الصبية - الذين لم تنمّ لحياتهم - العواجيز الحَدَبُ، ولكنه لا يستطيع أن يجذب نفسه بعيداً عن هذا الجنون المؤقت. كان مُستغرقاً في ألم الشعور بأنه تمّت خيانتته، وغشّه، والاحتيال عليه، فزرع الموت ليعاقب الحياة التي سلبته من أبسط شيء أحبه. كان محبباً وزوجاً، وأباً مخدوعاً، إذاً فليطارد قاتل سعادته. ربما "نيدلكو بوروجيفيتش" في الليلة السلوفينية في

"فيتسينتس" أراد أن يقتل الحرب الملعونة نفسها، ويفرمها، ويحرقها، ويعذبها، ويهرسها، ويذبحها، ويقطع أوصالها، ويضعها على ركيذة أمامه. أراد أن يحطم كل شيء أدى إليها، كل واحد شجّعها، أو اشتاق إليها، أو حلم بها. أراد أن يقتل كل من كره، وحرّض ونادى بالموت. من المرجح أن "نيدلكو" كان يقتل ويحرق كل هؤلاء في تلك الليلة.

من يدرى، لو أن "نيدلكو بوروجيفيتش" استيقظ تمامًا من أوهامه، ووجد نفسه مغطى بالدم المُجَلَّب، واكتشف بدلًا من الحرب أنه فقط ذبح أربعة وثلاثين شخصًا بريئًا، وأنه في الوقت الذي تحوّلت فيه ناره إلى جمرات أكثر مما سبق، أضرمت قرية نار الحرب، وانتشرت دون توقف عبر نهر "سافا".



توقّفت على جانب الطريق في مكان بين مخرج "أويسيجك"، و"سولافونسكي برد"، وخرجت من السيارة. بالكاد استطعت التنفس. بذلت ما في وسعي كي أضع نفسي مكان "نيدلكو"، في عالمه الداخلي المضطرب، الذي ضاق به صدري. كنت أرتعش، والدموع في عيني، وأسناني تصطُّك. صفعت الباب وركلت الدرايزين حتى ألمني، ثم توقّفت. صرخت في الفضاء تجاه المجر، حيث تظهر البيوت من بُعد في الظلام. كانت الطريق خالية إلا من عواء الرياح اللا نهائي وهي تضرب في سهول "بانونيا". اعتقدت أن ليلة الثالث عشر من نوفمبر لا يمكن أن تكون مثل هذه الليلة. قليل من الأضواء تومض في الأفق الضبابي. قرى في انتظار نهايتها.

كنت غاضبًا جدًا. غاضبًا من الشخص الذي كان يعني لي الكثير في يوم من الأيام، ولكن في يوم ما تحوّل إلى وحش. رفضت في تفسيري الخاص بي أن أوّمن بتحوّله؛ لأنني ما زلت لا أريد أن أتفهّمه. فالتفهّم يعني التبرير، ولا أريد شيئًا في هذا العالم يبرر أفعاله؛ لأنه لا يوجد قَدْر شخصي بالفضاعة التي تبرر ما فعله.

أردت أن أتخيّل "نيدلكو" جنديًا مُتفانيًا رأى محو قرية من على وجه الأرض مجرد مناورة عسكرية أخرى، ضرورة لتحقيق هدف متوقع. التفكير في ضابط يتجوّل بين المنازل المُدمّرة ليتحقّق من أن جنوده نَفّذوا المهمة المُوكّلة لهم بحذافيرها - ولم يتركوا حتى إهمالًا سيدة ملازمة الفراش على قيد الحياة - أمر غير مفهوم على الإطلاق، وهذا ما هدّأني. فمثل هذه الشخصية لا يمكن تفهّمها، ولربما هذه الحقيقة أراحتني. كان من السهل تقبّل فكرة أن "نيدلكو بوروجيفيتش" تجرّد من إنسانيته بين عشية وضحاها، وتحوّل إلى آلة قتل ميكانيكية، ولذلك، لم يعد أي. من السهل تخيّل أن هناك شخصيتين مختلفتين تمامًا تحملان الاسم نفسه، وكانت ثانيتهما نتيجة مرض رهيب، أو صدمة، أو أيًا كان. في تلك اللحظة، يصبح أي شيء أسهل من ذي قبل؛ فكرة أن الناس يموتون بينما هو يفكر في "دوشا" وفيّ.

كنت على وعي تام بأنني يجب أن أجدّه؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يرفض هذه الفكرة الساذجة الطفولية، ويشرح لي ماذا يدور في عقلية شخص عندما يجد نفسه في خضم قتل جماعي. هو الوحيد الذي يمكنه أن يحررني من التورط في هذا السيناريو المُرعب. وفي النهاية، هو مُدان لي بذلك.



الشيء الوحيد الذي أتذكره من الرحلة الأولى إلى "ليوبليانا" هو يقظة زملائنا المسافرين. لم يحاول أحد أن ينام. لم يتدبّر رأس واحد من الإرهاق، ولا حتى للحظة. على ما أتذكر، كان كل من حولنا جالساً معتدلاً، ويترقب نافذ الصبر بشكل واضح. حدّقوا في الظلام الذي شققنا فيه طريقنا إلى وجهتنا ببطء. كانت أمّي بكل تأكيد مستيقظة تماماً طوال الليل، وتلجّ عليّ من وقت لآخر أن آخذ قسطاً من النوم، مرددة أن الرحلة طويلة جداً، وقد أصاب بالإرهاق إن لم أغلق عينيّ ولو قليلاً. ولكن فكرة أنني، في سن الحادية عشرة، سيكون لي أخيراً أجداد، الذين هم بالفعل في انتظارنا، فكرة مثيرة. كان المسافرون الآخرون ينظرون إليّ طوال الليل،

كما لو أنهم يتعجبون، كيف لَمَن في سَنِّي ولا يدرك الرُّعب الذي يشعرون به، لا يغالبه النوم.

لن تكون مدينة "ليوبليانا"، التي وصلنا إليها في أغسطس 1991، بعد ثلاث عشرة ساعة سفرًا، مشرقة وحاملة أبدأً مثلما كانت في ذلك الصباح. الجو لم يزل صيفًا، ولكن الهواء كان به قسوة الريح الشمالية. كنت غاضبًا من السائق، الذي كان يغفو على المقعد، أثناء انتظارنا لنستقل الباص إلى قرية أجدادي. لقد جعلنا ننتظر خارج الباص حتى دَقَّت الساعة السابعة والنصف بالضبط، موعد المغادرة. وساعتها فقط تَمَطَّى، وأشعل سيجارة، وخرج من الباص، ومنَّ علينا بفتح شنطة الباص. ثم أخذ يراقبنا بسرور خفي ونحن نناضل كي نرفع الأربع حقائب وصندوقين من الداخل. وبعد كل هذا، أخذ مِنَّا رسومًا وهو يشعر بالسعادة نظير مجهودنا، بالإضافة إلى رسوم إضافية للأمتعة.

وهناك فقط، في محطة باصات "ليوبليانا"، أمام مندوب مزعج لهيئة النقل العام لسلوينيا، سمعت أُمِّي تتحدَّث بلغة أجنبية. السلوفينية، اللغة التي كان ينبغي أن تكون لغة أُمِّي الأصلية، لو لم تصر على فرارها بعيدًا عن أسرتها، وتواصل حياتها باللغة الصربية الكرواتية المُكسَّرة، حتى لما كانت تتحدَّث مع طفلها. كانت "دوشا" تتعثَّر في الكلام وهي تحكي الحكايات الخرافية، وتنتهج لغة خاصة بها في أغاني الأطفال، حتى إن أي كان يجد المتعة في مشاركتها الغناء المليء بالأخطاء، حتى بعد سنوات عديدة، بعد أن تحسنت لغتها الصربية الكرواتية اقتربت من النغمة العسكرية. في ذلك الصباح المشرق، عندما سألت أُمِّي سائق الباص المزمجر بعض الأسئلة بالسلوفينية، لم أفهم كلمة واحدة. ولكن طوال

الطريق، انتابني شعور بأنني لا أعرف الشخص الذي يتحدث من داخلها. هذه المرّة الأولى التي أشعر فيها بأن أمّي غريبة عنيّ، ولما توقّف الباص أخيراً ونزلنا، مع قلة من الركاب الآخرين، أحسستُ بأنها واحدة منهم، واحدة من هؤلاء الناس الغريبة الذين يتحدثون بلغة غريبة.



كان تعبير وجه "دوشان بودلجار" عندما رأنا على عتبة المنزل، بست قطع من الأمتعة، تعبير رجل يريد أن يغلق الباب بسرعة ويتظاهر بأن كل هذا كان مجرد حلم. لم يكن جدّي بالشخص الذي يسعد بالدليل القاطع عمّا كان يراه صحيحًا، مثل ضغط "دوشا" الواهن على جرس الباب. لم يكن جدّي في حاجة إلى دليل ليثبت أنه على حق، وخاصة ليس بالشكل الذي أثبتنا به وجودنا. كان لديه روتين منظم بشكل دقيق، وأي تدخل، لا سيما غير المعلن، في جدولته الموضوع بإمعان، يعتبر كارثة. من حُسن حظنا، في ترتيبه الجنوني وخوفه من تفكير الجيران، لم يحمل نفسه على ترك نساء وأطفال على عتبة داره، حيث يكونون عرضة لجواسيس القرية فيروهم. أخيراً، هزّ رأسه هزّة تفهّمها أمّي بأنها دعوة لدخولها بأشيائها، ومن المفترض أنا من ضمنها.

حينئذٍ فقط، اندفعت "ماريا بودلجار" بفضولها المعروف نحو الباب. على عكس زوجها، الذي ابتعد عن الطريق بمجرد أن دعانا إلى الدخول، كانت عائقًا متحرّكًا. كانت مُستاءة للغاية لدرجة أنها لم تقل شيئًا، ولربما كانت خائفة من أنها لو تركت المدخل، سيفوتها شيء مما نريد أن نقوله لها. بالطبع لا أتحدث بالسלוفاينية وأمّي، بعد ثلاثة عشر عامًا، لم تحب أن

تبدأ محادثة تعلم أنها لن تنتهي بشكل جيد. لذلك نجحت "ماريا" في أن تمتلك نفسها بالقدر الذي جعلها تعطينا الشباشب في أيدينا وتمشي بنا إلى المطبخ، حيث "دوشان"، في الوقت ذاته، كان في انتظارنا، وقد رسم على وجهه تعبيرات رئيس الشرطة الصارمة. دلَّ هذا الوجه على أننا سنُستجوب، وأن الحكم سينزل علينا من فوق. ربما تعرف أمِّي هذا الوجه جيدًا، فقد جرَّدها من أسلحتها، وجلست على حافة الطاولة، كفتاة صغيرة خائفة. أشار لي "دوشان" لأجلس بجواره. بعد لحظات قليلة من الصمت، وبطريقته لفتح الحوار سألني:

- ما اسمك؟

قفزت أمِّي لتخبره، بصوت مُرتعش، وأضافت أنني لا أتكلم السلوفينية، ولكن "دوشان" أعاد السؤال بالنبرة نفسها دون أن ينظر إليها:

- ما اسمك؟

أخبرته أن اسمي "فلادان"، فابتسم على غير المتوقع، ومدَّ يده نحوي، وغير مُدرك لِقُوَّته، ضربني على رأسي. من هذه اللحظة حتى وفاته، كنت الشخص الوحيد الذي أظهر لي - قائد الشرطة السابق المُخيف هذا - من تلقاء نفسه علامات واضحة على المودة، أو ما قد يصنّفه العلماء في فئة الحب.

سألني بعد ذلك:

- أتريد أن تأكل شيئًا؟

وحرك يده كما لو كان يمسك بملعقة متخيَّلة. أومأت بالإيجاب فقال بسرعة، بنبرة صارمة:

- يجب أن تقول من فضلك.

ثم ابتسم، بلا شك أرجع افتقاري إلى السلوك الحسن إلى أبويَّ السيئين. ذلك ما جعلني أفسرُ أخيراً نظرتَه الحادَّة كنصل السكين عبر الطاولة إلى أمِّي.

لذا كانت الكلمة الأولى التي أنطقها بالسلوفاينية هي *prosim* أي "من فضلك"، التي رددتها بعد جدِّي، وجعلتني على الفور المُفضَّل لديه، حقيقةً أعلنها على الملأ بإيماءة تكاد تظهر، ولن تفهمها أمِّي أبدًا، ناهيك عن القبول. بطبيعة الحال، لم تعترف لي "دوشا" بذلك، ولكنني متأكد من أن علاقتها غير المُجدية كانت تتسم أيضًا بغيرتها من الاهتمام الذي كان يظهره "دوشان" لي، ضمن عوامل أخرى كثيرة. كانت تبتسم للمحاولة الأولى التي يتواصل فيها مع حفيده الذي افتقده طويلاً بابتسامات صفراء، من النوع الذي لا يستطيع أن يخفيها الشخص حتى لو أراد ذلك.



كانت هذه الزيارة الأولى لنا لبيت جدِّي، فكُنَّا نعوِّض الأيام المفقودة. في البداية، قرَّر "دوشان" أنني وأمِّي يجب أن نعيش من جديد، لحظة بلحظة، حرب العشرة أيَّام لاستقلال سلوفينيا عن يوغوسلافيا، طالما كُنَّا غائبين عنها دون إذنه. لذلك لُقبت "دوشا"، على الأقل على نطاق خاص، خاتنة الدولة، معتدية على سيادة دولة سلوفينيا الصغيرة، بالإضافة إلى ألقاب أخرى غير محببة خفية بين كلماته المنطوقة، وصيغ تعجب، وأصوات لا يمكن تحديدها تنطلق من "دوشان" نحوها. اتَّضح أن "دوشان" فقد بشكل لا رجعة فيه إيمانه بالاشتراكية ذاتية الحكم، وب"تيتو"، وبالحزب، وبالإخاء والوحدة، وبحركة عدم الانحياز، وبالطبقات العاملة، والكثير. كل هذا وابنته الوحيدة في الوقت نفسه تهرب مع ضابط في الجيش

اليوغوسلافي. رئيس الشرطة السابق، الذي بتَّ الرُّعب في يوم من الأيام في قلوب الذين تجاوزوا النظام الاشتراكي، يرحب بسقوط جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الفيدرالية، أصبح سلوفينيًا وطنيًا مؤمنًا بالحدود النموذجية. في خلال حرب الأيام العشرة، وقف بشجاعة في مواجهة الغزاة على الجانب الآخر من جهاز التليفزيون الخاص به. وعندما سار الغزاة بلا خجل مباشرة إلى منزله، في شكل ابنته الخائفة، أطلق على العدو ترسانته الوطنية. لذلك، بعد تلقيها ضربات تلقائية ومتكررة من "دانيلو"، و"ريستو"، وخصوصًا أثناء أخبار المساء، كانت "دوشا" تتلقَّى ضربات قاضية من ميول سياسية مختلفة من أبيها. بالنسبة له، كانت "دوشا" تمثل العدو، واحدة من صرب "ميلوشيفيتش" تحت سقف بيته، التي يضطر أن يسمع كل آرائها، وتعليقاتها، ومناقشاتهما، وإهاناتها. في أغلب الأحوال، كان دور العدو مُقسَّمًا بالضبط بين "نيدلكو بوروجيفيتش"، و"سلوبودان ميلوشيفيتش" اللذين لم يذكر "دوشان" اسم أي منهما. يبدو أن قصفه المستمر لم يؤثر على "دوشا" مُطلقًا، وشعرت بأن سلبية "ماريا" في هذه المعركة زادت الأمر سوءًا بالنسبة لها. هناك أيام سمعت فيها أمِّي وهي تبث آلامها لـ"ماريا" الصامته، تلومها على كلمات "دوشان"، توبخها على تشجيعها له بصمتها من وراء باب المطبخ الموصد. ربما كانت أمِّي خائفة من أبيها، ربما لم تحبه على الإطلاق، ولكنها لم تعبر عن احتقارها له كما تفعل مع أمها. ربما كانت كلمات "دوشان" تلدغ، ولكن صمت "ماريا" كان ييصق. وكان ذلك خيانة لم تتغلَّب عليه "دوشا" في تلك الأيام، شككت في أن هروب "دوشا" من البيت والبلد لم

يكن من "دوشان" بقدر ما كان بسبب "ماريا" وخضوعها، الذي لم تتقبله طبيعة "دوشا" العنيدة والتمردة.

بعد أيام عدة، وعلى غير المتوقع، أعلنت "دوشا" نهاية حرب الأيام العشرة مع "بودلجار"، وأخبرتنا جميعاً بأنها وجدت وظيفة، واستأجرت شقّة في منطقة "فوتسين" في "ليوبليانا". كل ما قاله "دوشان" لما سمع ذلك:

- لكل واحد شأنه الخاص.

وبالطبع اختفت "ماريا" في المطبخ دون تعليق. رأيته فيما بعد هناك، تحاول أن تخفي دموعها، قبل أن تعود إلى غرفة المعيشة، ورأيته مرّة أخرى وهي تحاول أن ترسم على وجهها اللامبالاة كي تُتيح لها المُضيّ في هذا الشيء الذي يُدعى الحياة.



وهكذا انتهى بنا المطاف أنا وأُمّي في ميدان "مارينكو"، الذي أصبح بعد ذلك مباشرة ميدان "روسجان"، في شقّة مساحتها اثنان وثلاثون متراً، كانت من المفترض أن تكون بيتي. ومع ذلك، فهذا لم يحدث مُطلقاً. شقّتنا الصغيرة ظلت جزءاً من عالم غريب، همّشني وجعلني أشعر بالوحدة كل يوم، حتى جاء اليوم الذي قلت فيه وداعاً لـ "دوشا". كي أعتبره بيتي، كنتُ في حاجة إلى شخصٍ مِنّي يكون معي. ولكن معظم الوقت كنت أتعاش مع امرأة متعبة وتائهة، واصلت الهروب مِنّي ومن حياتها حتى وجدت نفسها تنخرط في حياة "دراجان تشيريتش".

وضعنا حقائبنا الأربعة والصندوقين في 13 ميدان "مارينكو" بمساعدة "إيرفان"، سائق التاكسي الودود، الذي مثله مثل الكثير من اليوغوسلافيين

سابقًا. يحملون ذكريات جميلة عن "باولا" منذ أن أدوا خدمتهم العسكرية هناك. بعد ذلك بوقت قصير، أصبحت الحياة التي في انتظاري واضحة. في الوقت نفسه تقريبًا، كشفت "دوشا" عن خطتها التي فكّرت فيها طويلًا بلا شك وهي أن تتحدّث معي باللغة السلوفينية فقط من هذه اللحظة. بينما كانت تحاول أن تقدم تفسيرًا جوهريًا متعدد الجوانب لقرارها، من وجهة نظر نفسية واجتماعية، وغيرها، قرّرت في نفسي ألا أتحدّث معها بكلمة سلوفينية، مهما حدث. كان هذا المقاومة الأولى المباشرة منّي لعناد عائلة "بودلجار"، الذي ورثته "دوشا" من "دوشان" وورثته أنا بدوري منها. وبهذه الأحداث الأشبه بالمأساة الإغريقية، أدّى ذلك إلى أن أمًّا وابنًا لن يتحدثا معًا باللغة نفسها مرّة أخرى. تقاربنا وتباعدا في الحديث والحياة معًا، على الرغم من أنها حاولت أن تُبرّر قرارها في بعض الأحيان، موضحة أهمية الإلمام بالسلوفينية، ما دمت سأدخل مدرسة سلوفينية مع زملاء سلوفينيين.

سرعان ما أصبحت مبارزات العناد ملمحًا أساسيًا في شقّتنا الصغيرة، وفي المصعد، وفي الصالة، وحتى في المحلات. كانت "دوشا" بين جمهور المُشترين للخبز، والبائعة المتعبة، والناس الواقفة خلفنا في غضب، تكرر سؤالها:

- أتريد أن أشتري لك كعكة لفائف الخشخاش؟

أكثر من مرّة، بينما أظل أنا صامتًا، إلى أن يصيح أحد الواقفين:

- اضربيه، أو اشترِها له، لن ننتظر هنا حتى تعليمه!

مع الأسف، لم يخطر على بال "دوشا" أنني أحتاج إلى حليف، أو صديق، أو أمّ، أكثر من أن أحتاج إلى مدرس حسن النية يعلمني السلوفينية، يعتقد أن الأهم هو أن أكتب مقالات خيالية، وأعمل واجب

الجغرافيا للمدرسة بأسرع ما يمكن. لقد أقنعت نفسها بأنني سأصطدم بحاجز اللغة، ما لم تنقذني لأعوض أحد عشر عاماً لم أتحدث فيها السلوفينية، وتحولني إلى طفلها السلوفيني. كانت "دوشا" تؤمن بأن الاستخدام الصحيح لصيغة الفعل المزدوج، وصيغة الإضافة، يمكن أن تكون بديلاً مقبولاً عن الأب، والأم، والأصدقاء، وحتى البحر. على الأقل، هذا ما اعتقدته حينئذٍ. أنا الآن أقرب للتفكير أنها، بطريقتها الخاصة، وبحب ورعاية الأم، تدعوني إلى الانتقال إلى عالمها السلوفيني، متخيلة أن نجاح الانتقال، أو البدء من جديد، سيجعلني سعيداً ومسروراً مرةً أخرى، كما كنت في "باولا". كنت أصغر وأكثر حساسية من ألا أمتعض، وألا أعترف لها كم أرغب في السباحة في هذا المحيط الذي ألقته بي فيه. أخفيت حقيقة أنني أشاهد التلفزيون السلوفيني، وأردد الكلمات مع المذيعين والشخصيات الكرتونية، وأنني استوعبت كلمات الناس الغرباء في المصعد، وفي المحلات، وفي أي مكان آخر؛ لاستخلاص المعنى دون أن أسأل أحداً. وأخفيت أنني كنت أستمع لكلماتها باعتناء، وأحاول أن أفهمها وأتذكّرها.

حرصت على ألا أجعلها تلاحظ اهتمامي. كلما سمعت الباب ينفتح، حوّلت قناة التلفزيون بشيء من الحرص، مدرّكاً أن مشاهدي التطوعية للبرامج السلوفينية ستشجعها وتسعدها، وسترحح كفتها في مبارزتنا. ربما لم تسمع "دوشا" قولي "مع السلامة" عندما تركنا المصعد بعد أيام قليلة من وصولنا إلى الشقة. كنت فخوراً بنطقي السليم لكلمتي الثانية بالسلوفينية وتردديهما بوضوح وصوت عالٍ. عندما أركب المصعد، أتطلّع لاستخدامها، وكنت أشعر بالإحباط لو كان المصعد خالياً، فأنظر أمامه كي يأتي أي راكب لأقول له "مع السلامة" عندما أخرج من المصعد.

بالطبع، لا يتحدث كل مَنْ في المنطقة بالسلوفاينية، فالمعظم يتحدث بلغته الأم، كالمهاجرين الآخرين من أي مكان آخر فيما يُسمّى الآن يوغوسلافيا سابقًا. سببت عبارة "مع السلامة" بالسلوفاينية للبعض مشاكل أكثر مما سببت لي، فأحيانًا ينطقونها خطأ، أو غير مفهومة، أو لا ينطقونها بالمرّة. خلال ركوبي، في الأيام الأولى، في المصعد الذي أثار اهتمامي - لأنه لم يكن لدينا واحد في عمارة "باولا" - سمعت طُرُقًا مضحكة في نطق الكلمة. فبعضهم يلوي لسانه في أبسط الكلمات السلوفاينية، حتى الذين كانوا في الثلاثين، أو الأربعين، والخمسين. أحيانًا كنت أشعر بالأسى من أجلهم، وفي معظم الأحيان أضحك. في كل مرّة كنت أقطع عهدًا ألا أكون واحدًا منهم، وأن أتكلم السلوفاينية، آجلًا أم عاجلًا، بطريقة لا عيب فيها، لدرجة ألا يعرف أحد من أين أنا.



أصبح وضعنا يشبه الحال في فندق "بريستول" باستثناء مكالمات أبي التليفونية في آخر الليل، وذهاب أمّي للعمل في مركز طبي بدلًا من التمشية. لم أعرف ماذا كانت تفعل، كانت هناك ضابئة حول اسم مركز طبي. اعتقدت أنه اسم غريب لشركة سلوفاينية، ولم تتعب نفسها في توضيحه لطفل يبدو أنه غير مهتم به. لولا هذا الأسلوب الحتمي في أول يوم لي في المدرسة، لعدت مرّة أخرى لفترة الانتظار والتحمّل المؤقتة لغرفة الفندق 211، حيث انتظرت أن يبدأ العالم في الدوران للعكس، ليعيدني إلى شقّتنا في "باولا" وأصدقائي.

كانت أُمِّي تشاهد الأخبار كل مساء، بينما كنت، وظهري للتلفزيون متظاهراً بانهماكي في الكتب، أو الرسوم الكوميديّة، أستمع لكل كلمة، محاولاً فك رموز كل رسالة للكبار في هذه اللغة الأجنبيّة. ومساءً بعد مساءً، تتنهَّد أُمِّي بعمق كرد فعل صوتي وحيد. ظلت أسماء هؤلاء الذين في مركز مسرح الحرب كما هي، وإن كانت تنطق بشكل مختلف مما اعتدت عليه. كل يوم يصبح ما يجري في الواقع أقل وضوحاً بالنسبة لي. لست أدري لماذا، سواء تنهَّدات أُمِّي أم الطريقة التي أصبح بها مُذيعو الأخبار أكثر جِدَّةً. ولكنني اعتراني إحساس بأن الحرب تزداد سوءاً، بدلاً من تلاشيها. ازدادت مخاوفي على أي. اسمه لا يُذكر في الأخبار، ولا فكرة لديّ إذا كان ذلك حسناً أم سيئاً.

في ظل هذا التوتُّر المتصاعد، الذي خلقه معاً كل من أسلوب المدرسة في هذه البيئّة الجديدة، واختفاء أبي، حتى إن العناد الباسل الذي ورثته عن "بودلجار" استسلم للحظة، سألت أُمِّي:

- متى بابا سيأتي؟

وكانت الإجابة مفاجئة، وغير متوقعة عندما صححت لي الجملة:

- تقصد متى سيأتي بابا؟

حاولت "دوشا" أن تسحب كلمتها على الفور وتعتذر، ولكن دون أن تنطق كلمة، فقط بنظرة تظاهرت بأنني لم أرها، وتجنَّبْتُها. ولشعوري بالإهانة، تجنَّبْتُها تماماً حتى أغلقت أخيراً على نفسي الحِمَام، واتخذت قراراً حاسماً وهو ألا أسألها عن أبي نهائياً بعد ذلك.

حاولت "دوشا"، من وراء الباب المغلق، أن تشرح كيف لا تعرف متى ستنتهي الأمور، ولكنها متأكدة من أنه سيأتي قريباً، وأن هذا عمله وسيأتي

متى انتهى منه. كانت تتكلم بالسلفونية ولا أستطيع إلا أن أحمّن ما تريد أن
تخبرني به فبدأت أصيح، وأخيراً غطّيتُ على صوتها بصياحي:
- أنا لا أفهمك، لا أفهمك، لا أفهمك، لا أفهمك، لا أفهمك.
وأخذت أصرخ حتى سكتت تمامًا، وانسحبت بعيداً عن الباب وهي
مُحِبطة. شعرت بأننا نبتعد عن بعضنا بعضاً للأبد.





حتى بعد ستة عشر عامًا، عندما عُدتُ إلى "ليوبليانا" شعرت بأنها كما كانت من قبل، وأحسست بأن الهواء البارد القاسي وهو مُسلِّط عليّ يريد أن يُبعدي عنها. إنها المدينة التي تلجأ إليها "دوشا" وأنا عندما لا نجد مكانًا نذهب إليه. في كل مرّة أترك فيها "ليوبليانا" وأعود إليها ثانية، أشعر بأنه يعتريني الشعور نفسه بالقلق وكأنه يعتريني للمرّة الأولى، الشعور بأنه لا أحد ينتظري هنا، لا أحد يفتقدني. اعتدت أن أمل بأنه في يوم من الأيام، بعد هذه السنين، عندما أنزل من الطريق السريع مُتّجهاً إلى المدينة، أشعر بأنني عائد إلى بيتي. ولكن هذا لم يحدث قط، حيث في تلك الليلة، عند النظرة الأولى من على بُعد إلى الصورة الداكنة للمدينة التي أعيش فيها، اتّجهت بتفكيري إلى شقّتنا الموحشة.

لَوْح ثلاثة شبان في الجانب الآخر من الطريق لرفيقي سجين الكشك، ارتفعت ثلاث أصابع عاليًا رمزًا للتضامن مع الصرب. تأملت، لسبب ما، بروح معنوية مرتفعة، استفزازاتهم الساذجة. يرتدون ملابس باهظة الثمن، وهذا مُمتع بفضاعة. لربما اعتقدوا أن فتى "البوريك" كان يستمتع أيضًا. لكن عندما نظرت سريعًا من خلفي، وجدت أنه بادرمهم بابتسامة باهتة كالتى أعطائها لي. الابتسامة التي تخفي الإجابة عن السؤال إذا كان قد وهب حياته للعيش مدفونًا في ذلك الكشك الألومنيوم الأبدى، أم أنهم أعدوه لهذا المصير منذ الطفولة. كنت أسفًا من أجله، وإن أغاظني في الوقت نفسه؛ لأنه لم يجعلني أفهمه. شككت أنه غير قادر على أن يعتبرني مختلفًا عن أي من أولئك "فتيان البرجر الصربي". فكلنا نتساوى في عدم الأهمية بالنسبة لحياته غير المُعبَّرة. حتى أنني ظننت للحظة أنه يجد صعوبة في النظر إلى الشارع، كالمتهم في طابور المتهمين، لا يستطيع أن ينظر إلى الشاهد خوفًا من أن يتعرف إليه. نظرت إليه مباشرة مرّة أخرى، محاولاً أن أجبره على رد فعل، أن يتواصل بأسلوب آخر. ولكن خطر في بالي أن هذا الفتى لم يفعل شيئًا ليستحق استفزازًا آخر، لذلك سحبت نظرتي الاستفسارية. ولكن الضرر قد تم بالفعل إذ إنه - متوخيًا الحذر - تقهقر إلى الخلف وجلس على مقعد صغير بلا ظهر في أحد أركان الكشك، لدرجة أن كل ما استطعت أن أراه خصلة من شعره الأسود تبرز من خلف النضد.

انتهت قصتنا لهذه الليلة.



على الرغم من أن الوقت مُتأخّر، فما زلت خائفاً من ذهابي إلى البيت وأطرق باب "نادية". أعلم أنها ستستقبلني بعينيها المتسائلتين، متوقعة كلمات لم أزل غير قادر على قولها. لذلك ذهبت إلى رصيف قريب، أسفل مبنى البورصة، حيث كان شيء غامض يشبه الموسيقى ينبعث من مقهى. فكَرّت في تناول فنجان قهوة، وترتيب أفكاري في ركن مظلم هناك، وتخيّلت أن مَنْ فيها مهما كان لن يُعبرني أي اهتمام. لم أكن أبداً بالخطورة التي تجعل أي قوَاد مخمور يراني هدفاً لعقيدته الدونية، أو أشبه كائنًا تعيسًا يمارس عليه بلطجي من الدرجة الثالثة أي تقنية جديدة للترويع. فبنيتي كانت مثالية ليتجنّبوني.

لما اقتربت من البار، تحوّل الصوت الصاخب الغامض ببطء إلى خبطات تصم الآذان. وجدت في الداخل مجموعة من الشباب في ملابس رياضية يرقصون بجوار طاولة ممتلئة بالفودكا والـ"ريد بول"، مثل "شبان البرجر الصربي". ما نويت أن أقضيه مع هؤلاء التافهين انقضى، ولكن في مدينة تعاني من الإرهاق التقليدي لوسط أوروبا، لم يكن خيار حياة الليل المتاحة كبيرًا. كنت على علم بأنني، بصرف النظر عن تجربة ليلتين أو ثلاث أخرى في البار، سأضايق أيضًا بالاستعراضات الثقافية المختلفة التي تزدهر في الداخل. لذلك طلبت كأسين كبيرتين من البيرة، وجلست إلى طاولة خالية في الركن، حيث أستطيع أن ألاحظ كيف دفعت الموسيقى الصربية بالمسافرين الذين اصطحبتهم في قطار الليل إلى حالة تقترب من لذة الجماع، بينما الطفاية المفرغة بطريقة مهملة، الموجودة أمامي على الطاولة، تهتز مع الإيقاع.



بعد كأس البيرة الأولى قرّرت أن رقصات المنحرفين جنسيًا بجواري ليست كافية لتصرف ذهني. فأخرجت من جيبي خطابًا، ذاك الذي وجدته في شقّة "توميسلاف زدرافكوفيتش" في "برتشكو"، وبدأت في قراءته مرّة ثانية ببُطءٍ، حرفًا حرفًا، من البداية إلى النهاية، مدركًا أنني أفعل ذلك من اليأس. الخطاب هو الصلة الوحيدة المتبقية لي بأبي، ولا أقدر أن أقبل فكرة أنه لن يقربني من الجنرال "بوروجيفيتش".

أثناء القراءة، توقّفت أمام اسم "بويان كريجاي". تذكّرت كيف أنا و"نيدلكو" هتفنا له معًا. وكيف في منتصف الجولة الثانية من سباق التزلُّج في "وينجن"، وعدني أبي بأنه "لو الفتى السلوفيني هزم الفتى السويدي" سيأخذني للتزلح في المنتجع السلوفيني "كرانجسكا جور" في الشتاء التالي. استأنفت القراءة. كنت أنصفّح، أففز من فقرة إلى أخرى حتى - في لحظة ما - ابتكر الشبان الذين في الجهة الأخرى من البار فكرة جديدة للرقص على الطاولة، توقّفت فجأة. لاحظت أن شخصًا آخر تجاهلته حتى الآن ظهر في الخطاب:

"عزيزتي،

"ج. يجب أن ينطلق حالًا".

الحرف "ج." بلا شك يعني الشخص الذي حمل الخطاب إلى "دوشا" في "ليوبليانا".

بينما كان السَّكاري الحمقى الذين يُولولون، ويتشدَّقون باقتباسات من الأفلام الصربية القديمة، تُسمع من حيث طاولاتهم، مصحوبة بضحكات هستيرية كالضباع، بدأ قلبي في الخفقان أكثر وأسرع، وبدأ طنين يدور في مَخِّي المنهك. رُحْتُ أَفْكُرُّ في لو أن "دوشا" أرادت أن تخبرني بهمزة الوصل الوحيدة لها مع زوجها السابق، لفعلت ذلك. لذلك فإما لم تكن تعرف مَن المقصود بحرف "ج." أو أنها تعرف ولم تُرد إخباري. إنني في المركب نفسه على أي حال. بعد لقائنا الأخير في بار الإسعاف، لم تعد "دوشا" مُتاحة للحديث عن أبي.

تناولت كأس البيرة الثانية، سرت في حلقي بسرعة تفوق أي بيرة شربتها من زمن طويل، وأحسست أنها لن تكون الأخيرة. بعد يوم طويل من القيادة، تراكم كل الإرهاق تحت حالة من الغضب. أول كأس بيرة أطلقتني من قيودي، والثانية أسكرتني، بينما قد تدفعني الثالثة والرابعة وما بعدهما إلى منطقة خطيرة، من أجل صحتي وهؤلاء الذين بقربي مباشرة.

- ووووهووو، رائع! هيااااا!

في تلك اللحظة، نظرت حولي في المكان؛ لأن الجرسون رفع صوت الموسيقى، بناء على طلب السادة الذين يرقصون فوق الطاولة. ما زاد الموقف اشتعالاً تهشُّم كأسين على الأرض، حيث قلَّد الراقصون فوق الطاولة مشهداً من فيلم صربي أسكرهم بقوة تفوق الأغنية التي يدورون ويلفون على إيقاعها. لو في وقت آخر، لبدأ ذلك لي ممتعاً، ولكن في تلك الليلة كانوا مُتخلفين عقلياً مثل الموسيقى التي يرقصون عليها. لم يتجاوزوا الستة عشرة، وكانوا يرقصون على شيء يشبه رقص حفل الزفاف.

كان من الواضح أنهم يتتمون لجيل مجنون بفكرة البلقان، نجحوا في الوقت ذاته في خلط كل شيء خلطاً كاملاً؛ الخير والشر، والعقلانية والجنون، والتفاهة والأذى. الكل تساوى بالنسبة لهم. الشيء الوحيد الذي يهتم أنهم كانوا مثل مواطني المناطق الجنوبية في يوغوسلافيا سابقاً، فهم يلبسون، ويتكلمون، ويفتقون مثل الجنوبيين. لا تعنيهم الحرب، وجرائم الحرب. لا يعنيهم شيء في هذا العالم على الإطلاق.

- فقط ارفع الصوت، وارقص!!

نهضت، اتجهت نحو البار وطلبت مزيداً من البيرة. كي أكسب الموقف، اضطررت أن أعطي بصوتي على صوت الموسيقى، لذلك صحت في الجرسون ليخفض صوت الموسيقى، ولدهشتي، فعل ذلك.

- مزيد من البير...

- هيببيبيبييه أهلا!!!!!!

استدرت ورأيت أحد المهاجرين، أكثر ممثلي عمر الستة عشر فخراً بهذا واقفاً أمامي، أو ينبغي أن أقول وجدت قليلاً من البوصات تقف أسفل مني. كان من الواضح أنه مصمم على أن يثبت مزاجه البلقاني أمام أصدقائه، ويحقق معايير التفاصيل الوراثية لجدة جدته، كان بلا شك شجاراً جديداً. أمسك الكأس بيده بطريقة توحى بأن أصدق أنه سيهشّمها فوق رأسي.

- من سمح بذلك، ها؟

كأسان كبيرتان من البيرة أسكرتاني بحيث لم يبقَ عندي أي تسامح مع هؤلاء المراهقين الذين يريدون أن يقيسوا قضيبتهم بقضيبي.

بمجرد أن لمسني، اسودَّ كل شيء حولي ودفعتَه بكل قوتي، حتى انقلب إلى الخلف ووقع على كرسي، ثم إلى الأرض.

- لم لا تذهب وتُضاجع نفسك؟

في اللحظة التي قلت فيها هذه الكلمات، توقَّفت كل شيء من حولي. أخرست هؤلاء الشبان ونظروا إليَّ في حالة ذهول. كانت هذه لعنة "نيدلكو" المفضَّلة. انطلقت من فمي كما لو كان يتكلَّم من داخلي. بعد كل هذه السنين، سمعته يتكلم، وفجأة، أستطيع أن أراه، ممسكاً بيدي بشدَّة، ويجادل الفتى عند المدخل يدعوه لمسرح الساحة.



في مهرجان "باولا" السينمائي، وفي منتصف فيلم "المتطوعين"، دفعني ضحكي المستمر كي أذهب إلى التواليت. ولكن على الرغم من أن "نيدلكو" أفنعتني بالذهاب فإنني أردت أن أشاهد الفيلم كاملاً خشية أن يفوتني أحد المشاهد الممتعة. لما أخذ طاقم الفيلم والعُمَّال أماكنهم على خشبة المسرح لتحية الجمهور، ولما لاحظ "نيدلكو" بخيبة أمل غياب نجمه اليوغوسلافي المفضل، أخذنا طريقنا بسرعة نحو التواليت. ولكن كان هناك طابور طويل من الناس، يميلون بأجسادهم على قدم، ثم الأخرى، سبقونا إلى هناك. لم أستطع الانتظار أطول من ذلك. في البداية، أفنعتني "نيدلكو" بالتَّبؤُل في الظلام، معللاً ذلك بأنني طفل، والأطفال لهم أن يفعلوا ما يريدون. لكنني سمعت صوت أمِّي في رأسي تقول إن حثالة البوسنة فقط هم الذين يتبؤلون حول الساحة. لذلك لم يكن أمام

"نيدلكو" خيار سوى أن يأخذني لأقرب بار، حيث شققنا طريقنا إلى مبولة خالية، قبل أن يفوت الأوان بثانية أو ثانيتين.

لكن بعد ذلك، منعونا من دخول الساحة لنشاهد الفيلم التالي الذي أوشك على البدء. العادات القديمة تموت بصعوبة، فقد كرمش "نيدلكو" التذاكر وهو ينظف جيوبه ورماها على الأرض دون أن يدري. أصرَّ الشاب الذي على الباب على موقفه بحجة أن أي شخص يمكن أن يخلق قصة أنه خرج للتبؤل، على الرغم من أنني أشك أن هناك من يتهرب ويدخل الساحة في منتصف الليل وفي يده طفل في الثامنة. ازداد توتر "نيدلكو"، حاول في البداية بالطرق الدبلوماسية، وحاول بصبر أن يقنع الشاب بسلامة موقفنا. ثم لاحظت أن الفيلم بدأ بالفعل في الداخل. وهنا فقد أعصابه. للمرة الأولى والأخيرة أمامي، اسودَّ كل شيء في عينيه وثار كالثور على الشاب مقاطعاً كلماته الغاضبة بلعنته المكوَّنة من ست كلمات. ثم هدأ وأخذني تاركاً قاطع التذاكر مُتبيِّساً من الدهول، ودخلنا ووجدنا مقاعدنا في انتظارنا.

لا أتذكّر الفيلم الثاني الذي رأيناه في تلك الليلة، ولكن بالتأكيد رأيت وسمعت "نيدلكو"، بشكل واضح كأنه بالأمس، صارخاً: "لماذا لا تذهب وتضاجع نفسك؟" مثلما قلتها أنا. وكان التشديد على كلمة "تذهب" وباقي الكلمات كانت أقل حدّة، مما سمح للكلمة "تضاجع" أن تنساب في النهاية - مع تصاعد الغضب إلى النظرات - التي تصيب المحاور في مقتل، بعد أن شلّته اللعنة بحدّتها.



عندما عدتُ إلى الواقع، رأيت الجرسون يمنع المراهقين الهائجين، وفي حالة أشبه بعدم وعي، أحسستُ بشخص يسحبني إلى خارج البار. أردت أن أُخَلِّص نفسي منه، ولكنه كان أقوى. وجدت نفسي تحت عمود نور، ورأيت وجهًا مألوفًا لي:

- تأكد من الأماكن التي تختارها لتتعارك فيها، يا حثالة الجنوب يا سافل،

في باري... ها؟

- لا أعرف أنه بارك، يا حثالة!

- أووه، فلتذهب من هنا! لقد دعوتك مائة مرّة لنشرب معًا، وعندما

تظهر أخيرًا، تتراقص مع شبان صغار!

كنا نضحك بسبب الأدرينالين، تردد صدى الصوت في الشارع. ثم فجأة حَضَّنِي "دانيال" وبدأ يضحك، بطريقته الفريدة، بينما وقفت ساكنًا، مذهولًا. لم يتبعنا الشبان إلى خارج البار، وأيقنت أنهم الآن عرفوا مع مَنْ يتعاملون. ولكننا سمعنا صياحًا في البار، فطار "دانيال" إلى هناك. سمعته لفترة وهو يسيطر على الزبائن السُّكَّارى، ثم اتَّجهت نحو السيارة. قبل أن أختفي بالدوران، سمعت صوت "دانيال" يجلجل رغم الساعات الأولى من الصباح:

- "فلادان"! "فلادان"!!!

التفتُ ورأيتُه واقفًا أمام باب البار، وهو يُودِّع أحد زبائنه ليعود إلى أمه.

- اتصل بي غدًا يا أخي، هناك شيء مهم أودُّ أن أخبرك به.

- ماذا؟

- ستعرف غدًا، تعالَ إلى "فيفيتش" في الصباح، سنتكلَّم، يجب أن تحضر.

حاولت أن أرد، ولكنه عاد وأغلق الباب خلفه. "دانيال" كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن أدعوه صديقاً بشروط، على الرغم من أننا افترقنا لمدة سنين، لم أكن مهتماً بتجارته بعدم أمانة، ولم يكن مهتماً بجولاتي بلا هدف. بعد كل هذه السنين، أشعر أحياناً بأن الشيء الوحيد المشترك بيننا هو جلوسنا إلى التختة نفسها في الصف الخامس الابتدائي في المدرسة. أحياناً كان يتصل عندما يحنُّ للذكريات، ويريد أن يتحدث عن زميلتنا "ساندرا"، الأمر الذي كان يفعله من الصف الخامس حتى الثامن، وما زال يفعله حتى الآن. أحياناً كان يريد أن يُريني سيارته الجديدة حتى أرى - أنا الذي كنت أقوم بعمل الواجب عنه من الصف الخامس حتى الثامن - كيف يعيش حياة أفضل من حياتي؛ إذ أقود سيارة مُتهالكة عمرها عشرون عاماً. حتى إنه دعاني مرّة لأزور منزله كي أعجب بشقّته، وأعرف كيف يحسده جيرانه. كُنَّا غالباً ما نتبادل القيل والقال والمعلومات أثناء تناولنا قهوة معاً سريعاً، ربما من منطلق أداء الواجب وتطبيب خاطر. عمل جديد، طفل جديد، امرأة جديدة، موبايل جديد، قصة شعر جديدة، ثم "أراك العام القادم".

منذ شهور، دعاني لأرى باره الجديد. أخبرته بأنني سأحضر، ولكنني لم أشعر بالرغبة مُطلقاً.





اليوم الذي قابلت فيه "دانيال"، صديقي الحقيقي الوحيد في المدرسة الابتدائية، كنت أشقُّ طريقي بين حشد من الأطفال، مُطأطيَّ الرأس، آملاً ألا يلاحظني أحد وربما يمرُّ اليوم، ومُرُّ السنة، وأظل هكذا مجهولاً. كان أول يوم في الدراسة، والتلاميذ عند البوابة فرحون بلقاء بعضهم بعضاً مجدداً. لم أجرؤ على الكلام، ولم أحاول التَّفوهُ بكلمة سلوفينية، ولا حتى لُغتي الأم، على الرغم من أن معظم الزملاء يعرفون الصربية الكرواتية جيداً، وربما يتكلمونها. كنت ساكناً، ظللتُ أنجولُ في المدرسة بحثاً عن فصل 5. وجدته، دخلته، وقفت في ركن بجوار النافذة، وانتظرت.

دخل زملائي الجُدُّ ورائي، نظروا إليَّ متعجبين، ومنتظرين من يقدم لهم هذا الطفل الجديد. كانت الدقائق العشر التالية أكثر ألمًا، لعنت نفسي لأنني لم أنتظر المدرسة حتى تأتي، في المأوى الآمن نسبيًا في الممر المزدهم. ولكن فات الأوان، ترامت النظرات، وأشار بعض الأطفال بأصابعهم

نحوي وسألوا مَنْ أنا، وماذا أفعل في فصلهم. لِحُسْنِ حَظِّي لم يقترب أحد مِنِّي. وقفت ساكنًا تمامًا، نظراتي تتجنب النظرات الواقعة عليّ، ربما ظهرت بشكل غريب يكفي أن يدفع الآخرين للوقوف بعيدًا عنيّ، في انتظار السيدة "جوفان"، دون أن يتفوهوا بكلمة معي.

- أوه، أنت هنا يا "فلادان". أألسنت أنت "فلادان"؟ لماذا لم تحضر إلى غرفة

المدرسين لتراني؟ تعرف السلوفينية، أليس كذلك؟

بدأت منقذتي التعنيف بمجرد أن دخلت الفصل.

كانت السيدة "جوفان" مُدرّسة تاريخ مهووسة بالسلوكيات الحسنة، كما اكتشفت وقتها، تقضي معظم الحصّة عن معركة "ترموبيل" تخبرنا نحن الأشباح غير المهذّبين بأنه من الأشياء غير المقبولة البصق على الأرض، وإلقاء المفرعات في مواعين الطعام، وضرب الأطفال الأصغر سنًا، وإخفاء أحمية المواطنين في التواليت، وتحريك الطفايات في الممر. ادّعاء بأن تناول ثلاث قطع هامبورجر يُعادل وجبة خفيفة، والاحتكاك جنسيًا بالزميلة "ألما"، وإطلاق أسماء على مدرسة البيولوجي، والتبؤل بين الحشائش أمام المدرسة، تهريب أدوات الفصل من النافذة، وهلمّ جرًا. قدّمتني السيدة "جوفان" للفصل بإيجاز، وقالت إنني قادم من "باولا"، وما زلت أتعلّم السلوفينية. طلبت منهم أن يُساعدوني، ولا أدري لماذا، وما الذي أثار موجة من الضحك في الفصل. ثم أجلسنتني في صف المقاعد الثالث، بجوار "دانيال".

"دانيال شهيتش" بالتحديد لم يُعلّمني سلوفينية كثيرًا؛ لأنه بالكاد ينتظر أي فرصة للتحدث بالبوسنية مع أي شخص في المدرسة. اعتقد أنني هادئ الطبع، ورأى فيّ صديقًا محتملًا، مما يعني أنه لا يضربني حتى لو كان مزاجه عكسًا، وكل شيء من حوله يُوتّره. بدلًا من تعليمي

السلافونية، علّمني صيغًا مختلفة من البوسنية في لغتنا، وترجم لي التعبيرات غير المألوفة، كان في الوقت ذاته يحتقر ويعجب بلُغتي الكرواتية بالتناوب. كان يستعمل كلماتي الكرواتية مع الزملاء، وخصوصًا البوسنيين "بوريس" و"أرمين"، فكانوا يسخرون على حساب لكتني الغريبة، واستخدامي غير الصحيح "لحثة الجنب الصربية الكرواتية"، كما كانت تُسمّى اللغة في منطقتنا. كانت هناك بعض العبارات القليلة في لُغتي تعتبر عامة الاستعمال ومقبولة، وكانت الإيطالية، على عكس التركية، غير مناسبة بالمرّة. لذلك كان "دانيال" و"بوريس" و"أرمين" يغيظوني لأيام عدّة بلا توقّف، كلما أفعل ما يعتبرونه خطأً.

لكن "دانيال" علّمني بعض قواعد الوطنية الدقيقة التي يُتقنها. في اليوم الأول، سألتني عن اسم أبي، وفي الثاني أوضح لي أنني صربي؛ لأن "نيدلكو" اسم صربي، وكذلك "فلادان"، بصرف النظر عن اسم أمّي "دوشا" لأن الجنسية تتبع الأب. كان مُسلمًا لأن أباه مُسلم، وقال إن "دانيال" اسم مُسلم، وإنه كان يجب أن يُسمّى "عدنان" لولا أن أمّه الغبية كرهت ذلك. أخبرني "دانيال" - المفترض أن يكون "عدنان" - أن هناك سبعة من السلافونيين، واثنين من الكروات، وثلاثة من المسلمين، وثمانية من الصرب، وواحدًا مقدونيًا، وواحدًا ألبانيًا، وبعض الشواذ لم يقولوا بماذا يُدعى أبائهم، لذلك أخفوا هويتهم كي لا يغيظهم أحد.

كان هذا جديدًا بالنسبة لي لأننا، في "باولا"، كُنّا نعرف أن البعض له "جَدّة"، أو "نينة"، أو "تيتة"، ولا أحد يدري أن ذلك يعني شيئًا ما، وبالتأكيد لم نسأل أحدًا عن اسم أبيه كي نستنتج شيئًا غامضًا. كُنّا نعرف أن من له "نينة" يتكلم الإيطالية بطلاقة، ويذهب لجَدّته لتناول الغداء يوميًا،

ومن له "تيتة" يذهب لزيارتها في صربيا كل إجازة. القواعد هنا مختلفة بشكل واضح. كان "دانيال" يعرف تمامًا من أين ينتمي كل واحد منّا، فمن القرى البوسنية أو الكرواتية أو الصربية هاجر آباؤهم ليتمهنوا عملاً يدويًا في سلوفينيا، وكان أبوه، "سمير"، يشرح له بسرور أي شيء لا يفهمه.

كان "دانيال" أول شخص شرح لي بشيء من التفصيل ما يحدث في يوغوسلافيا المتفككة، وقال لي إن الصرب يريدون أن يمدوا أراضيهم حتى "صربيا الكبرى" التي تمتد حتى "كارلوباج". وإن كان لا أحد يعرف أين "كارلوباج" هذه، فهو يرى أن ذلك أمر مُرعب، ونصحتني بأن أفعل ذلك أيضًا، رغم كوني صربيًا. "بوريس" يرى ذلك مُرعبًا، على الرغم من أن أمّه صربية. أوضح "دانيال" أن زملائي "سريتشكو" و"نيناد" الجالسين في الصف الثالث يعتقدان أن "سولوبودان ميلوشيفيتش" الأفضل، وأن "صربيا الكبرى" يجب أن تمتد حتى أعتاب بيوتنا، لا "كارلوباج" فقط. ضرب "سريتشكو" زميلتنا "ألمّا" لأنها قالت إن الصرب أغبياء، لكنه لم يكلم "نيناد" لأن لديه صيغة صربية للصليب المعقوف، أربعة حروف سيرالية مكتوبة على مقلّمته.

ومع ذلك، المشكلة الكبرى في الفصل كانت مع الكروات، على حسب قول "دانيال"، خصوصًا "نيكول" و"أندريج"؛ لأنهم يعتقدون أنهم أفضل من الباقين. كانوا عدوانيين وقوميين شموليين، ولذلك فإن "دانيال" سيربيهم كلهم يومًا ما، هم ونكاتهم القبيحة. أخبرني أنه يجب أن أبلغه إذا عاملني أي واحد منهم بأسلوب غير لائق، حتى يعلمه الأدب مهما كان.

وعلى الرغم من أن حربًا أهلية مصغرة بمعنى الكلمة، ومعارك يومية حول "كارلوباج" نشبت في فصلنا، فإن كل الحدود القومية الناشئة تم

نسيانها بمجرد أن بدأت حصّة الألعاب. أسرعنا كلنا صرب، وكُرّوات، ومسلمون، وسلوفانيون، حتى الشواذ الذين لم يذكروا أسماءهم. أسرعنا إلى الفناء لنلعب كُرّة قدم. لم يعد هناك أهمية للكلمة من يكون هذا أو ذاك، فكل واحد يريد أن يكون في الفريق الذي فيه "ميلان"؛ لأنه أفضل لاعب مراوغ، وكل فريق يريد "آديز" صاحب المؤخرة الغليظة ليكون حارس مرمى؛ لأن مؤخرته الغليظة تصد الكُرّة. يحب "بوريس" أن يلعب مع "نيكولا" لأنهما مهاجمان متافهمان معًا. وأنا، إذ تحوّلت بشكل ناجح، بفضل "دانيال"، من زميل جديد من "باولا" إلى الصربي التاسع في الفصل، وفي أيّام قليلة تأقلمت معهم في الملعب، وبعد أهداف عدّة أحسست أنني معهم من زمن طويل. أصبح الصرب في مباريات كُرّة القدم هدّافين، والكُرّوات ظهيريًّا أيسرَ، والمسلمون حُرّاس مرمى، أما الشواذ الذين لا يذكرون أسماء آبائهم فهم الاحتياطي. اعتبروني هدّافًا مميّزًا ومنافسًا لـ "ميلان" في أحسن لاعب في الفصل، واختاروني ضمن التشكيل الأول عندما لعبنا أمام فصل D، للمرّة الأولى في الموسم. وعلى الرغم من أننا هزمنّا 5/2، فقد جرى "آديز" نحوي بعد تسجيلي هدف وصاح في وجهي:

- واصل يا حتالة!

وهذا يعني أنني صرت أخيرًا واحدًا منهم.



كي أندمج مع الحياة العامة إلى حد كبير، كان عليّ أن أتصادق مع الفريق الذي يتسكّع أمام عمارتنا، وأن أفعل ذلك باستمرار. وكان نظام الهسهسة المعترف به لا أستخدمه إلا مع الجيران الجُدُد الذين لا أستطيع

التواصل معهم بأي وسيلة. كانوا أكبر مئتي بسنة أو سنتين. ادَّعوا أن ساحة مخزن الدراجات تخصُّهم فقط، بعد سرقةٍ عديد من الدراجات منه، ألق الناس عن فكرة المكان المشترك للدراجات في العمارة، وقبلوا على مضمض تغيير استخدامها، كمكان يتسكَّع فيه الأولاد المشاكسون.

في كل مرَّة أعود فيها من المدرسة أو المتجر، وأتجاوزهم نحو المصعد، يقومون بتفتيشي كاملاً، ويخبرونني، بنظراتهم الشرسة، أن حالتهم الجسدية المتعبة في ذلك اليوم أنقذته من ضرب مُبرِّح يؤدي إلى تناثر جسمه قطعاً في ساحة الانتظار. كانوا عدوانيين في كل يوم، لذا بدأت أتجنَّبهم. فكنت أدخل العمارة من الجانب المقابل، أو أنتظر حتى يبتعدوا ثم أجري على العمارة.

في تلك الأيام، كانت تأتي سيارة شرطة تتحرك أمام عمارتنا، يبحثون عن واحدة من الإخوة "عززي" والشائعات تقول إن واحداً من الإخوة "دورتش" ضرب جاراً اشتكى من شيء ما. ولكن الأظرف قصة رجل مُسنِّ، جاء وفي يده عصا، إلى ساحة مخزن الدراجات ذات مرَّة وراح يبحث عن "بيجويج"، ابن عمِّ لإخوة "عززي"، ومدرب كونج فو. كان "بيجويج" مشهوراً بصورة له مع "جين كلود فان دام"، يحتفظ بها في سيارته. لوَّح الرجل المُسنِّ بعصاه وصاح في "بيجويج" بأن مثله المُفضَّل "كلما كبرت، يصعب وقوعك". رد عليه "بيجويج" وهو يتثاءب، كما قال أحد الشهود الثقة:

- جدو، مثلي المفضل؛ مهما كان من يسبب لي مشكلة فسوف يمشي برجل صناعية.

هناك حكاية تدور على الألسنة تصف موقفًا حدث أمام عمارتنا الجديدة، حيث لا مخزن للمخدرات والخمور، ولا أصوات موسيقى صاخبة تصدر من ساحة مخزن الدراجات سابقًا، على مدار الساعة. الصوت العالي للموسيقى اعتاد أن يحتل دائمًا البند الثالث من جدول سكان العمارة، على الرغم من أنه ترقى تدريجيًا إلى البند الثاني، وفي ربيع 1996، جاء على قمة مشاكل العمارة. ولكن راديو "زيجي" الأسطورة تعطل، وأصبح هناك حل سلمي بمعجزة طوال الأسبوع.

نجحت تقريبًا في اختراق المجلس النشط لمجموعة مُتنوعة موهوبة من المجرمين المحليين. عندما استوقفني "هاشم"، أصغر إخوة "عزيزي" ذات مرة أمام العمارة، كنت عائدًا من المدرسة، سألتني:

- مرحبًا، ما اسمك؟

ثم اقترب مني، وأخرج من جيبه علبة من الألعاب النارية الخضراء، واقترح أن أشتريها منه ثم أبيعها لأصدقائي. ولأننا نسكن في العمارة نفسها، حيث يسكن هو في السادس وأنا في التاسع، زعم أنه سيعطيني تخفيضًا، وبذلك أجمع مبلغًا كبيرًا من النقود. على الأقل حاول أن يقنعني بكل هذا، وفي النهاية باع لي جاره العلبة بسعر خمسة أضعاف السعر الذي يبيع به لزبائنه الدائمين.

أردت بشدة أن أكون واحدًا من عصابة العمارة، شلّة مخزن الدراجات، أو على الأقل أريد أن أعرفهم أكثر حتى لا يتعرض لي أحد منهم بالضرب دون سبب، فأنا لم أستطع رفض عرض ألعاب نارية كي أعيد بيعها. أخبرني "هاشم" بأن عمّه هرّبها من إيطاليا، وشرح لي "دانيال" بعد ذلك في المدرسة أن الألبانيين، و"عزيزي" من بينهم، اشتروها من مخزن

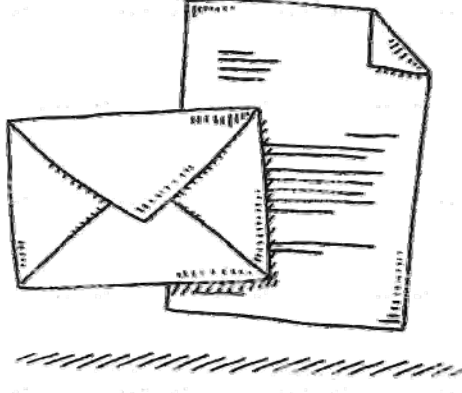
الشرطة بنصف ثمنها، حيث انتشرت السلع المصادرة، ثم يعاد بيعها بثمن فاحش. وأخبرني أيضًا أنه على أي حال يجب أن أنضم إلى هذه العصابة التي تضم إخوة "عزيزي" وباقي عصابة العمارة؛ لأنهم لا يتركون أي شخص لا يشتري بضاعتهم. لذلك لم أخبر "هاشم" بأنني عرفت أن الموضوع خدعة، ولا أنني لا أملك نقودًا لأشتري الألعاب، ولكنني تظاهرت بأنني أصدقه لما حاول أن يقنعني بأنه يعطيني مجرد دين، وأنني سأبيع الألعاب لزملائي، وسأصنع منها مبلغًا كبيرًا، وأنه عمل معي معروفًا؛ لأننا من عمارة واحدة، هو في السادس، وأنا في التاسع.

لذلك اشتريت منه مائة قطعة من الألعاب النارية الخضراء، وظللتُ جائعًا لأسابيع عدّة في الشهر التالي، فلم أشتري وجبة خفيفة في الصباح قبل ذهابي إلى المدرسة. راحت نقود الوجبة كقسط لـ"هاشم" نظير الألعاب النارية، التي خبأتها تحت المرتبة، فسببت لي القلق. خفت أن تنفجر في أي لحظة، ولكن خطتي جاءت بنتائج عكسية. فلم تفشل فقط في مصادقة "هاشم"، بل لم نتكلم كلمة واحدة معًا بعد ذلك، وأصبحنا نومي لبعضنا بعضًا فقط بعد عملية الشراء.

لما كان الجوع أسوأ شيء، واسيت نفسي بأنني عندما اشتريت المائة قطعة من الألعاب النارية، أمنت شر إخوة "عزيزي"، وبلطجتهم، وبالتالي قمت بعملية استثمار من أجل سلامتي. حاولت أن أقنع نفسي بأنني زبون لهم، ولا يمكن أن يضربوا زبونهم، ولكن "دانيال" ظل يحذرنني منهم في كل الأحوال؛ لأنني من الصرب، والألبان لا يحبون الصرب، بسبب كوسوفو. كلما ذكر أحد كوسوفو، تذكّر السائق "شيكليكم"، فهو من القرية نفسها التي منها والد "فاديل فوكري"، أفضل لاعب كرة قدم في

كوسوفو. حتى إنني فكّرت في أن "شيكليكم" يمكن أن يخبر "عزيزي" بأن
يبتعدوا عنّي؛ لأنني صديقه. ولكن أدركت أنني لا أعرف ما حدث
لـ"شيكليكم"، فهناك ناس يختفون من حياتك ببساطة. وكل مرّة أفكّر في أبي
أتساءل؛ أهو واحد من هؤلاء الذين اختفوا، ولن يعودوا أبداً؟





كان الوقت متأخرًا عندما أخذت أفكر مليًا في "دوشا" والحرف ج، ولكنني في النهاية جرجرت قدمي إلى البيت. نظرت إلى النوافذ الثلاث، مُتَمَنِّيًا أن أرى نورًا في إحداها، مما يعني أن "نادية" لم تزل سهرانة. شعرت في تلك الليلة أنني لا أريد أن أذهب إلى الشقة الكئيبة والهادئة؛ لأنني أعني أن غضب "نادية" في انتظاري. توقعت محادثة طويلة ومرهقة، أبوح فيها بشيء لم أقله لأحد. أردت أن تعذرنني "نادية" في تلك الليلة؛ لأنني أريدها أن تلقاني مُفعممة بالعاطفة، ولكن لما استدارت نحوِي وكنت واقفًا بجوار الباب شبه نائم، التزمت الصمت. أردت أن أخبرها بشيء عن "نيدلكو"، لكنني شعرت بأنني سأبكي مرةً أخرى بعد هذه السنين من الجفاء، لذا ابتعدت عن الدموع، وعن "نادية"، واتجهت إلى المطبخ.

- ماذا حدث؟ قل! أنت! تعال هنا! اللعنة يا "فلادان"!

بعد أن تسلَّحَتْ بنظرات حادة كسفرة الموسي، نزلتُ من على السرير
وبدت أنها غير مستعدة لقبول الدور الذي أتمناه؛ دور الصديقة المتفهمة. أو
على الأقل دون أن تطلب تفسيراً.

- ماذا بك، أجننت أم ماذا؟

لم أعرُ على دليل إرشادات جيد يوضح ماذا يفعل المرء عندما يعود صديقه
في منتصف الليل بعد غياب يومين بشكل غامض وهو عاجز عن نطق حرف
واحد. لا يوجد دليل يقول في أي مكان يجب على الناس أن يقرؤوا أفكارنا، على
الرغم من أنني في أمس الحاجة إلى هذا الآن.

- هل يمكنك أن تشرح ماذا يحدث؟

- رجلي العجوز...

- ماذا عنه؟

- ... لم يمت.

- ماذا؟ ماذا تقصد بأنه لم يمت؟ رجلك العجوز؟

- أجل!

- إذًا ماذا عنه؟

- لا أدري... مختبئ.

- ماذا تقصد بمختبئ؟

- مثل "كاراديزيتش"، و"مالاديتش".

- لحظة!... هل تقصد أنه...؟

- نعم.

- كيف عرفت؟

- إنهم يقولون ذلك.

- أين يقولون ذلك؟

- على الإنترنت.

- وهل تصدقهم؟

- نعم.

- حسناً، وأين كنت في اليومين الماضيين؟ لو كان من حقِّي أن أسأل.

- ذهبت لأبحث عنه.

- تبحث عنه؟ أين؟

- في البوسنة، وصربيا.

أدركت على نحو بطيء - بمساعدة بسيطة من السخط الذي بدا على وجهها - حجم أفعالي. توقَّعت أن ترحل "نادية" في أي لحظة اعتراضاً، أو أن تُصاب بهستيريا، أو تهاجمني بحداثها. لكن هذه المرأة البشوشة بشكل طفولي، التي أحببتها لابتسامتها البريئة، لم تكن موجودة في تلك الليلة. مَنْ تقف أمامي الآن امرأة نضجت دون أن ألاحظ. لقد كانت "نادية" شيئاً آخرَ مفروغاً منه في حياتي، لكنها أصبحت امرأة ترى بسهولة ما أنا فيه من عبث، ولا تحب أن تتورط فيه.

- يمكنني أن أنتظر.

- تنتظرين ماذا؟

- لتخبرني بكل شيء عندما تكون مُستعدّاً.

كان هذا أقوى من إلقاء حذاء على دماغي. لقد عرفت "نادية" بشكل ما ماذا تقول، وماذا تفعل حيال المواقف المستحيلة. أحسستُ أنها مستعدة أن تأخذني من يدي وتجعلني أفيق. ليس في نيتها أن تسيطر على غضبي، أو تهددني بشفقة تثير دموعاً. أرادت أن تقاتل، وللمرّة الأولى منذ

سنوات طويلة. يتملّكني هذا الشعور القصير الخارق على غير العادة مرّة أخرى بأن هناك شخصًا ما يقف جنبي، الشعور الذي افتقدته لمدة. في البداية، أخافني الأمر، ولكن وجودها بعث الطمأنينة، فاستمتعت بجلوسي ساكنًا بجوارها. على الرغم من أن الكلمات لم تزل بعيدة المنال.



لا ندري كم جلسنا هناك، و"نادية" ساكنة تنتظر أن أخبرها بقصة حياتي، بعد ثلاثة أعوام تقريبًا من علاقتي معها. ظلّت تنتظر أقدّم نفسي باسمي الحقيقي، ولكن محاولة أن أشرح لها مَنْ أنا بالفعل جعلتني أدرك أنني حتى أنا لا أعرف شيئًا. رُحْتُ أبحث عن الكلمات التي تُعرّفني، أو على الأقل تصفني، ولكن كلما تعمّقت قصّتي، ابتعدت عن حقيقتي. فكل فصل يفتح آفاقًا لمزيد من الأسئلة، وصرت أتحوّل إلى إنسان غريب في عينيها.

على الرغم من ذلك، أومأت "نادية" محاولة أن تفهم. لم أخبر أحدًا من قبل أنني أحبه، وليس لديّ دليل كيف تبدو هذه الكلمات، ولا كيف يكون الشعور حين نطقها. ولكن في ذلك المساء، عندما أخبرت "نادية" عن "نيدلكو" و"دوشا" وعن "ميلوتين" و"آجنيس" وعن قرى "زيليك" و"فيستنجيتشي" وعن "باولا" وبلجراد و"نوفي ساد"، عندما تحدثت عن نفسي للمرّة الأولى، أخبرتها بأنني... أنني أحبها حقًا. وما دون ذلك كان مجرد كلمات، غير مفهومة، ولا معنى لها، كلمات يمكن أن أختبئ خلفها. هذه الكلمات أخبرت "نادية" بالشيء الوحيد الذي أرادت أن تعرفه عنيّ.

تغلّبت في تلك الليلة على الصمت، الذي وقع في شره "نيدلكو" و"ميلوتين"، الصمت الذي أوقف قلب "ميلوتين"، وتحوّل فيه "نيدلكو"

تدرّيجاً إلى عبد لآلامه. حكيت لها القصة التي خاف جدّي وأبي من سردها. حكيتها من الجملة الأولى التي أعرفها، ولم أتوقف إلا عند آخر جملة أعرفها. شعرت مع كل كلمة تُنطق أن هذه القصة ليست لي، وأن هذا هو الشيء الوحيد الصحيح.

استمعت "نادية" لي. لم تسأل عن أي شيء، لم تتنهد، ولم تشجّعني بلمسة على كتفي. فقط استمعت، حرصت على أن كلماتي التي خرجت بصعوبة لم تذهب هباء، وأن حياتي لم تتلاش. ورغم أنها لم تظهر ذلك، أحسست أن الخوف ينمو في داخلها مع كل فصل من قصّتي، وأنها تفكر في نفسها، بنوع من الهلع، ما يمكن أن تجلبه لها قصّتي، أو بالأحرى ما يمكن أن تأخذه منها.

- هل تعتقد أن والدك مذنب؟

أوشكت أن أقول لا أدري، ولكن لما رأيتها تجلس أمامي، ببجاما مطبوع عليها ثمرات فراولة صغيرة، أصبح واضحاً أنني أستطيع أن أجيب بكل ما أرغب. لم أعد في حاجة إلى التبرير بكذبة صغيرة. فأومأت فقط.



- ماذا عن زوج أمك؟

- "دراجان"؟

- نعم.

كنا مستلقين على السرير، نحاول أن ننام. ولكن ضوء النهار بدأ يشقشق في الخارج.

- بم أخبرك؟

- لم تقل لي شيئاً عنه.
- ليس هناك ما يقال.
- ماذا تقصد؟ بالتأكيد يهملك أنها وجدت شخصاً ما.
- نعم وجدت، اللعنة، لكنه أسوأ من بقائها بمفردها.
- هذا ما تفكر فيه الآن. لكنك لم ترجع بذاكرتك إلى الماضي.
- لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يهمس.
- ماذا يفعل؟
- يهمس.

أحسّت "نادية" أنني لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك، وأنه لا فائدة من معرفة قصة "دراجان" مني. القصة التي لم تكن قصة، أو على الأقل لا أراها هكذا. فأنا أفكر فقط في صبي طويل، وداكن البشرة، وكثير يبدو أنه مُتبلدّ الذهن حتى إنني تصوّرتَه من البلطجية الذين يقفون لحراسة صالات الرقص في المدرسة، وهو يغمز بعينه لبنات في سن الثالثة عشرة من فصلي. لقد أحضر لنا ذات مرّة غَسَّالة أطباق جديدة. لم يسمح لـ"دوشا" أن تساعد، على الرغم من أنه كان يجد صعوبة في وضعها، ولما وضعها أخيراً في منتصف المطبخ، ومسح يده المتسخة في بنطلونه، صافحني وهزّ يدي قائلاً:

- أنا "تشيريتش"!

وكانها أسلوب قديم لتحية الناس، ربما كان مستخدماً في جيله. اعتقدت أنه حبيس الماضي، وللحظة، شعرت نحوه بالأسى، ولكنه ظل واقفاً في منتصف الغرفة، مرتبّكاً، ويبدل قدمًا بأخرى. نظر إليّ، ثم إلى "دوشا"، ثم تلعثم قائلاً:

- نعم... حسناً... إذًا... أظن... أراك لاحقًا... أو... نعم.

ثم انصرف. تمشّت معه "دوشا" نحو الباب، سمعته يحاول أن يكونَ جملة في الصالة، ولكنه فشل كالمرة الأولى.

في المرّة التالية التي رأيته فيها كانت عندما ذهبت "دوشا" معه لتناول فنجان قهوة في بار "بورساليانو". قابلتهما بالصدفة في طريق عودتي من منزل "دانيال". تظاهر ثلاثتنا بأن الموقف عادي تمامًا، وجلسنا نحن الثلاثة إلى الطاولة نفسها لفترة، نظر إلى بعضنا بعضًا، دون أن يحاول أي منّا في فتح الكلام. في الحقيقة، كُنّا جميعًا ننتظر أن أنتهي من شربي وأنصرف. في لحظة معينة، مال "دراجان" ناحية "دوشا" وهمس في أذنها، مما بدا لي أمرًا وقحًا وغير مقبول. عندما كنت طفلًا، كنت إذا همست لأي شخص على طاولة في وجود آخرين، يُوبّخني أبي ويقول: "من الوقاحة أن تهمس في وجود آخرين". وإذا كان مخمورًا، كان يصيح قائلاً: "الأمهات العاهرات فقط هن اللاتي يهمنسن!" لذا كان يتعيّن عليّ أن أذهب. نهضت مُشمئزًا من أن "دوشا" تخرج مع مثل هؤلاء الناس، وقلت:

- سأغادر.

وانصرفت. عندما سألتني "دوشا" بحرص، في ذلك المساء، عن رأيي في "دراجان"، كان غضبي من حُسن الحظّ قد تلاشى، واحتفظت برأيي لنفسِي. ومع ذلك، لم تخبرني "دوشا" بشكل رسمي أنها و"دراجان" متزوجان، ولكنها توقّعت أن أستشّف ذلك بنفسِي. لذلك بدأت تذكره مرّة بعد المرّة، وبكثرة، وبدأت تخبرني بانتظام بأنها ذهبت مع "دراجان" إلى مقهى كذا، وأنهما ذهبا معًا إلى السينما، وأنه مرّ بالصدفة عليها في العمل، وأنه دعاها لمشاهدة مباراة كرة سلّة معه. كانت بوجه خاص تؤكد على تلك

المناسبات التي يساعدها فيها، ربما كانت تتمنى أن يكتسبني. لكن منذ اللحظة التي همس لها في بار "بورساليانو" وهو بالنسبة لي إنسان حقير، حتى لما كانت "دوشا" تتكلم عنه بلطف، لم يكن ذلك يؤثر فيّ.

بدأ "دراجان" فيما بعد يزورنا في منزلنا بكثرة، ولوقت أطول، حتى إنه كان يجلس معنا أمام التلفزيون. حاول بكل ما يمتلك من قوة أن يكون لطيفاً معي، وأن يكتسب صداقتي. كان يستمع باهتمام، وبانتباه لكل كلمة أقولها، ومن الصدف العجيبة أن العروض والأفلام نفسها التي تعجبني كانت تعجبه. فعل كل شيء يمكن أن يفعله ليجعلني أحبه، ولكنه لم ينجح إلا في أنه تحوّل من "حقير" إلى "هامس"، وتلك ترقية معقولة. وظل هكذا.



في صباح اليوم التالي، جلسنا أنا و"نادية" على الكنب، وصلنا تدريجياً إلى حالة أشبه بما قبل الزلزال. أخذت تُدلك يدي، من وقت لآخر، تحاول أن تطف الجو بالتأمل أثناء الإفطار والمداعبة. لكنني لم أستمر في مسيرتها، فتوقفت فوراً ولحقت بي في حالة الشرود، والخمول الذهني. في لحظة ما، نظرت إليها فابتسمت لي برقة وعطف. لا أدري أنني ممنون لأحد في حياتي بقدر ما أنا ممنون لها لجلوسها بجواري تنتظر في صبر أن تستمر حياتنا. اقتربت منها، والتصقت بها وتركتها تحضني. أعطيتها قُبلات خفيفة فاستجابت "نادية" بقبلة. شعرت بأنها تتبطني بإخلاص وتفان وإرادة بأنها تفعل أي شيء من أجل أن تستعيدني إليها. احتضنتها بشدة ولمست خديها بشفتيّ لمساً رقيقاً. طوّقتها بيدي وأدخلت يدي تحت

البيجاما. استمتعت بلامستي جسدها، واعتصارها حضناً وتقبيلاً. لم تُمانع عندما انزلت يدي إلى أسفل ظهرها، إلى جسمها الدافئ، ووصلت يدي تدريجياً إلى ردفها، ثم دَلَّكت ساقها برفق. استجابت للمساتي بتنهيدات مسموعة بالكاد، اعتصرتها أكثر، ووضعت شفطيَّ على رقبتها. فكَّرت في أنني لا أريدها أن تتركني أبداً، وأني سأبقى في عناقها للأبد. استلقينا تقريباً بلا حراك، مندمجين، كل منَّا في الآخر. أخذت أُقبِّلها في رقبتها ووجهها، و"نادية" تحتضني بكل قوتها، وتتهدَّ بليونته، كأنها تهمس في أذني. تمنَّيت أن نتوقَّف عند هذه اللحظة، كي نظل متشابكين معاً بإحكام، يُطوِّق كل منَّا الآخر.

ظللنا مُستلقين، وما زال يُعانق كل منَّا الآخر، و"نادية" تُقبِّل خديَّ بانفعال، ثم أمالت رأسها إلى الخلف، وأغلقت عينيها. وضعت رأسي على صدرها، فسمعت دقَّات قلبها، وهو يدقُّ في هدوءٍ ببطءٍ. كان امتناناً وحُبّاً. لم أدر متى انتهى الأول ومتى بدأ الثاني، ولم يكن ذلك مهماً. فيكفيني أن أشعر بشيء جيد جدًّا، وهذا يتفوق على كل المشاعر الأخرى.



لم تخبرني "نادية" إطلاقاً، في ذلك المساء من يناير منذ ثلاث سنوات تقريباً أنها سمحت لعشيق كبير صربي يعزف موسيقى "بانك روك" بأن يأخذها لمنزلها في سيارته اليابانية القديمة. أخبرتنى "نادية" مازحة أنها أتت من منطقة ضبابية متعذرة المرور من مستنقعات "ليوبليانا". كنت في تلك الليلة مميّزاً، وحُرّاً، وملك نفسي، بينما كانت هي خبيرة ميكروبيولوجي واعدة، لم تستطع أن توقوف قهقهاتها المخمورة المُعدية.

عندما عرضت عليها أن أوصلها إلى قريتها، لم أكن جاداً، ولكن عندما ردت علي عرضي بابتسامة مغرية، ونعتتني:

- يا لك من نبييييييل!

لم أستطع أن أراجع. كانت لعبة قبلناها نحن الاثنين للحظة، لكن لم يشأ أي منّا أن يكون أول من يتوقّف. سيارتي هي من توقّفت أولاً في تلك الليلة، فبعد أمتار عديدة فقط، وقد تركنا الطريق إلى المستنقعات المتعرّجة، ونُهنا في الضباب. لم ترد السيارة أن تخطو خطوة إضافية في تلك الليلة المجهولة، وبذلك وقفنا أنا و"نادية" عاجزين عن التقدم.

فكّرت "نادية":

- استحالة.

ونزلت واختفت في غيوم الضباب، سارت بتأنٍ على أرض المستنقعات. أدرت الموتور، آملاً أن يحدث صوتاً يقطع شكوكها بأني غير صادق النية؛ لأنها الآن تشق طريقها إلى بيتها في هذه السكك بين المستنقعات، وحدها. ولكن هذا لم يكن سوى صرخات يائسة في الليل، تبيّنت أن قصّتنا انتهت إلى الأبد هناك، مع هذا المشهد الذي فرّت فيه جميلتي البريئة تلك وقد ابتلعتها تلك الليلة الثلجية من إنسان منحرف بسيارة قذرة.

ولكن فجأة، بزغت "نادية" من بين الضباب ونقرت على نافذتي المُغطّاة بالبخار. فتحتها، فقبّلتني على جيبني، وقالت:

- اكتب!

ثم تقدّمت لثملي رقم تليفونها، وشكرتني على توصيلها للبيت، واختفت مرّة ثانية. جلست في سيارتي المُتهالكة الباردة، غارقاً في الضباب، فكّرت أنه من المثير الاستمرار في اللعبة.



أخذ "دانيال" المفاتيح من يدي، وألقى بها لـ"آلان" وأخبره أن يغسل كومة الخردة اليابانية التي أقودها، وسحبني نحو سيارته الـ"أودي" الفضية. بعد لحظة، دفعني زيادته للسرعة إلى الخلف على مقعدي، فالسرعة في الشوارع الضيقة هي متعة "دانيال" في الحياة. يمتلك "دانيال" مغسلة سيارات في هذه المنطقة من المدينة، وكان في الحقيقة ناجحًا جدًّا. إذا ضمنت الاثنين لبعضهما، لكانت النتيجة مُبهرة. فليده سيارتان "أودي"، وطفلان، وامرأتان، وتليفونان محمولان، وستنان عقوبة مع وقف التنفيذ؛ لأنه فعل شيئًا ما لشخص كان يجب أن يفعله هو. من ناحية أخرى، كان هو قد فعل كل ما يمكن أن يفعله لأي شخص في أي وقت، ولكن فقط لهؤلاء المسموح لهم بدخول هذا البلد. فتح "دانيال" المغسلة منذ سبع سنوات، وعملت معه لمدة شهرين؛ لأنه لم يكن لي مكان أذهب إليه. استأجرتني، وهو مهووس جدًّا بالمعتقدات الشعبية، كي أنظف بفرك فضلات الطيور لأجلب له نوعًا من الرضا.

توقَّفنا أمام مخبز ألباني للكيك عمره ثلاثمائة عام، بجوار الكنيسة، حيث ما زالوا يصبون الليمونادة الصناعية في زجاجات مربعة. كان المخبز خاليًا، ولكن "دانيال" يعرف صاحبه، لذلك أخذنا كوين كيرين من الآيس كريم، وزجاجتي كولا مجانًا. لم يكن "دانيال" يشرب الخمر لأنه مُسلم، ولأن طبيعة عمله تتطلب ذلك، ولأنه أُصيب في حادثة تصادم من سنين بسببها، وبالكاد أنقذوه. أخذ عند لحظة معينة ينظر حوله، ليتأكد أنه لا يتصنَّت علينا أحد في هذا المكان المنسي من العالم:

- يا "فلادو"، ما اسم أخيك؟

- اسم أخي؟

- نعم.

- "ملادين".

- هل يسكن بالقرب من هنا؟

- نعم.

- إذًا ها هو ذا.

- هو مَنْ؟

- لا شيء، فقط شاهده قليلاً.

لا يعرف "دانيال" أن العلاقة بيني وبين "ملادين" ليست من النوع الذي يجعلني أشاهده قليلاً. صديقي الوحيد لا يعرف الكثير عني، في تلك اللحظة، لم أكن مئالاً لأخبره عن وضع أسرتي المُعقَّد، لذلك أوامأت فحسب. خرج الجرسون ليدخن؛ لأنه من المحتمل أنه استشعر روح المؤامرة في حديثنا، ولم يشأ أن يكون عبئاً علينا. كل المحادثات مع "دانيال"، منذ المرحلة الابتدائية، ترتدي عباءة المؤامرة، لذلك ربما كان موقف التدخين المثير آنذاك روتينياً؛ لأن "دانيال" زبون دائم عندهم.

- لا تخف من شيء، أنا فقط أخبرك لأنك زميلي. ولا أريد لأخيك الصغير أن

يصيبه مكروه.

- شكراً.

- سرق هو وزملاؤه عدداً من الموتوسيكلات، موتوسيكلات "موبيد"

و"سكوتر". عدد بسيط. انتهينا من هذا. سارت الأمور على ما يُرام.

أحضروا نصفها لي؛ كي... أبيعها. لكن قبل ذلك، كانوا، أولئك السّفلة،

يركبونها في المنطقة. فهمت؟ لذلك سألتهم بلطافة، ولكنهم كذبوا عليّ. اللعنة!
لا يمكنك خداعي. أعرف كل كبيرة وصغيرة تحدث هنا. لا أريد أن أكون هناك.
أعلم أن هؤلاء الصغار أغبياء، وسيتم القبض عليهم. يمكنني أن أتخلص من أي
ورطة، ولكنهم سينقلبون على بطونهم. أنت لا يمكنك أن تفعل ذلك. لذلك،
حذر أخاك يا أخي. فهّمه، وانصحه. إذا كنت لا ترغب في ذلك، هناك مَنْ
سيفعله.

بدا لي "ملاين" في آخر مرّة رأيتّه فيها مواطنًا عاديًا بشعر دهني. كان
يحاول أن يعطي انطباع المحارب المتعب من الدنيا، بعد أن خاض في الثالثة
عشرة ثلاث معارك بالأسلحة النارية أمام عمارتهم، وست مشاجرات همجية
باللكمات في المصعد، واثنتي عشرة مُداهمة بوليسية في البدروم الخاص به.
لذلك لا بُدّ من صفعات حقيقية توجّه إليه. ولكنني لن أعتد على تصريح
كتابي من والديه لأقوم بمثل هذا الإجراء التربوي.



كانت السيارة القديمة لامعة، من الداخل والخارج. رائحتها مثل رائحة
المراهق الذي غمس يده في كولونيا "أولد سبايس" للمرّة الأولى. حيّاتي "دانيال"،
وهو راضٍ عن نشاطه الإنساني، بإمهاء واختفى مرّة أخرى من حياتي إلى أجل
غير مسمى. في طريقي إلى البيت، حاولت معرفة ما يمكن فعله مع ما أدركته
بشكل غير مثير للدهشة إطلاقًا من غياب أخي غير الشقيق.

كان أمرًا متوقعًا تمامًا، ومُزيّفًا. حكايته مكتوبة بالفعل، وما كان على
ذاك الفتى إلا أن يقرأها أمام الفصل كله. سرقة الموتوسيكلات في الثالثة

عشرة تعني أنه سيصبح رجل أعمال في الخامسة عشرة، ويختفي في ظروف غامضة في الثامنة عشرة، ثم يظهر، بعضلاته ووشمه ويتباهى بقوله: "كنت في إجازة". حتى إن اضطر أن يُضفي الشرعية على ممارساته التجارية ولو ليوم، فحياته سوف تستمر على أريكة المراهنات أمام العمارة رقم 12. في الخامسة والعشرين، ما زال يستمع إلى موسيقى "التربو" الشعبية، ويعتقد أن سيليكون النساء وكوابح السيارات كقيلة بأن تقلب كيان العالم. في أفضل الأحوال، يمتلك له مكتبًا في مخبز الكيك الألباني.

عند هذه النقطة، خطر على بالي أن معلومات "دانيال" تفيدني بالفعل. تجاوزت المصنع الحراري، ولكنني قرّرت أن ألق. فيجب أن تكون "دوشا" في طريقها من العمل إلى البيت الآن، ومن المحتمل أن يكون "ملادن" في العمل الآن على الأريكة أمام العمارة.





أخبرتني "دوشا"، بابتسامتها التي لا تُنسى، للمرة الأولى، منذ أربعة عشر عامًا، بأنها تنتظر مولودًا وعلينا أن ننتقل مع "دراجان" "الهامس" إلى شقته في ميدان "بريجل". بينما ينتقل والداه، اللذان لم يُعلِّماه أن الهمس في الأماكن العامة وقاحة، إلى شقَّتنا لأنها أصغر. اسودَّت الدنيا في عيني. هربت مِنِّي كل حجبي، ولم أستطع أن أمنع شيئًا. كانت "دوشا" في ذلك اليوم وقحة، وبقرة، ومقرفة، وقبيحة، وحمقاء، وخنزيرة، ومعتوهة، وغبية، ومُغفَّلة، وعاهرة مرَّات ومرَّات. بالنسبة لي، أراحتني هذه الألفاظ. لا أدري ماذا أمقت أكثر في ذلك اليوم؛ حقيقة أنها موتت أبي ودفنته دون إذن مِنِّي، أم أنها من بين كل الرجال أعطت نفسها لـ"دراجان تشيرتش" من ميدان "برجل"، الذي لا يساوي شيئًا. أيًّا كان، دفعني ذلك إلى الصراخ الهستيري، حتى كدت لا أستطيع التنفس. هددتها وبعثت الأشياء من حولي في الشقة. دفنت "دوشا" رأسها بين يديها وأخذت تشهق، بينما كنت أصيح وألوح بيدي في وجهها. وأخيرًا أبلغتها، على الأقل عشر مرَّات، أنها تستطيع أن تذهب وتقضي شهواتها، ولكن لن

أتحرك إلى ميدان "برجل"، ولا أريد أن أرى طفلها، ولا أهتم بكل ذلك، ولو أدى ذلك إلى ألا أراها للأبد.

وعلى الرغم من ذلك، اتصلت "دوشا" بي من قسم الولادة، عندما ولدت "ملادين". لم أصيح فيها أو أستمها، ولكنني التزمت الصمت في التليفون، وتظاهرت بأنني لم أسمع أنها ولدت أحًا لي، بشعر أسود يشبهني بعض الشيء لأنه كان ممتلئًا مثلما كنت أنا. انتظرتها لتخبرني بما تريد أن تخبرني به ثم قلت:

- إذًا؟

وسكتت، ظللنا ساكتين إلى أن قفلت الخط.

رأيت "ملادين" للمرة الأولى عندما كان شعره الأسود يتساقط على عينيه. كان يغيظني لسبب بسيط أن "دراجان" كان يرى كل شيء يفعلُه ظريفًا. حتى عندما يمسك أنفي بيديه، ويصدر أصواتًا عشوائية تترجمها "دوشا" على الفور إلى رسائل فلسفية. كان طفلًا بديئًا ويتبول بلا تحكم، بالإضافة إلى ما يفعله مع أنفي. كان معجبًا بأعقاب سجائر "دراجان" في الطفاية الموجودة على الطاولة. حاولت أن أظهر في وجوده لا مُبالاة بقدر الإمكان. ولما كان هذا غير كافٍ، تجاهلت صلة الدم التي بيننا، مقررًا أنه ليس أخي. قرّرت بالفعل أن عائلة "دوشا" الجديدة لن تكون مقربة لعائلتي الجديدة، لذلك بدأت أنعمد تجنّبهم. عندما بدأ الطفل يقول "بابا" و"ماما"، طلبت "دوشا" أن أقابلها في مكان عملها. في مكتب الطبيب، بدأت توضح باعتذار متلعثم أن بعض الناس، لسوء الحظ، لا يستطيعون العيش بمفردهم، وأن الوحدة تتطلب نوعًا خاصًا من القوة الذاتية، التي لا تمتلكها، لذلك احتاجت إلى شخص

ما يشاركها حياتها. وأوضحت أنها اضطرت أن تكوّن أسرة جديدة، وأنني سأفهم ذلك عندما أكبر، وسأعرف أكثر عن هذه الأشياء. أضافت أن "دراجان" زوج ممتاز، وأب ممتاز أيضًا، يكدح في عمله وأمين. ثم دخلت في تلك الأكليشيات التي لا معنى لها. وفي نهاية المطاف، عندما وجدت نفسها لا تستطيع أن تستمر، ولا تجد ما تقوله لي، توقّفت وقالت إنها تتمنى أن نحب أنا و"ملاّدن" كل ممّا الآخر، وأن نصبح صديقين. ولكنني كنت في ذلك الوقت في أسوأ سني البلوغ، فلذلك أحببتها بأنهم الثلاثة، وأنا، لسنا "نحن"؛ لأنهم "هم"، وأنا سأظل "أنا". أضفت أنني، على عكسها، أستطيع العيش وحدي. وقبل أن أصفح الباب خلفي، قلت إنها لا تقدر أن تأمرني بحب أي شخص.

في المرّة التالية التي رأيت فيها "ملاّدن"، قدّمني "دراجان" بقوله:

- "ملاّدن"، هذا "فلاّدان". صافحه.

صافحت ذلك الصبي الصغير أسود الشعر، وقمحي البشرة، وواسع العينين السوداوين في محطةّ الباص. يبدو أنه في هذه اللحظة وافق أبوه على أنه ليس له أخ، وأنني واحد من كثيرين يتعامل معهم "ملاّدن". لذلك وقفنا هناك، ينظر كل ممّا إلى الآخر. راح "دراجان"، الأكثر منّي حرجًا، يستغل وجود ابنه ليتجنّب الكلام معي، وأخذ يثرثر معه بلطف:

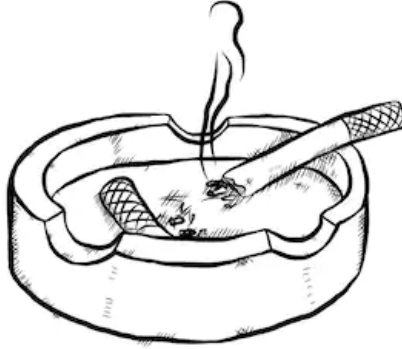
- كما ترى، هو كبير، ستكبر مثله عندما تذهب إلى المدرسة، وستلعب

بالكرة، وعندما تأكل بكثرة وتجد فتاة...

لحسن الحظّ جاء الباص الذي كنت أنتظره، ولم يضطر "دراجان" أن يستمر في سرد قصة حياة "ملاّدن" التي ارتجلها وتنبأ بها، مما جعله يبدو أحقر في نظري مما كان عليه.

لا أعرف كيف ولا متى شرحوا لـ"ملاذن" أنني أخوه نصف الشقيق فعلاً. ولكن لسنوات عدّة تصورت أنه لا يعرف معنى هذا، ولا كيف يتصرف مع شخص في مواصفاي. في المرّات القليلة التي تقابلنا فيها، كان يخفض نظراته أمامي خجلاً، ولا أدري كم تحدثت معه منذ أن كان صبيّاً صغيراً. لكنه عوض ذلك جزئياً، عندما تحوّل من صبي لطيف هادئ إلى مواطن غريب الأطوار؛ يقتحم البدرومات، ويكتب على جدران المصاعد. اعتقد أنها نكتة طريفة أن يرى أخاه نصف الشقيق واحداً من أصدقائه من عمارة 5، أو عمارة 8، ويتعامل معه على هذا الأساس.





- عمّ تتحدّث يا رجل؟ أي سكوتر؟

انتظرت "ملادين" في "سومبريرو"، بار في أطراف منطقتنا، فمن الصعب هناك أن نصادف "دراجان". وافق أخي على الذهاب إلى هناك، ولكن فقط بعد أن هدّدته بأنني سأخبر "دوشا" بسرقة الموتوسيكلات إن لم يأت. جلس بجواري، ولاحظت فعلاً أن حيويته قلت منذ آخر مقابلة لنا، إذ انتهج عادة "الهبستر" الصغار، الذين يعتقدون أنه من الأناقة أن تمشي ببُطءٍ، مثل آبائهم الممتلئين. كان "ملادين" مثلاً نموذجياً لضحايا شغب مرحلة البلوغ، لذلك لا فائدة من شرح أي شيء له.

- اتصل بـ"دوشا" كي تأتي إلى هنا.

- اتصل بها أنت.

- يا فتى! توقّف عن اللف والدوران! أعلم أنك كنت تقود موتوسيكلات

مسروقة، وأستطيع أن أبلغها الآن.

- لا تقل إنني سرقت موتوسيكلات، لم أفعل ذلك.

- هذه هي المشكلة.

- ماذا تريد؟

- اتصل بـ"دوشا".

- اغرُب عن وجهي!

ضربت الطاولة بيدي، ولكنه تراجع إلى الخلف لا إرادياً، كأنه معتاد على تفادي اللكمات. طار كرسيه في الهواء، ثم إلى الأرض واستدار نحونا ثلاثة من اللاعبين الواعدين في البولنج يجلسون إلى الطاولة المجاورة.

- أتريدني أن أستدعي "دانيال" هنا؟ أتريده يخبر "دوشا" من أحضر له

الموتوسيكلات؟

- من "دانيال"؟

تغيّرت نغمة صوته. وبدأت تحركاته البطيئة تتخذ السرعة العادية، فالتقط كرسيه وجلس أمامي.

- لم آخذ إلا موتوسيكل "موبيد" واحداً له، أعلم أنه رجل سافل.

- لا أهتم، اتصل بـ"دوشا"، وأخرجني من الموضوع.

- لماذا لا تتصل بها أنت؟

- لا ترد على تليفوني.

- أرسل لها رسالة.

- اسمع! ما بيني وبينها... لا علاقة له بك.

- لا أثق بك!

- أنا لا أكذب.

- أتحلف بهذا؟

- أحلف.



بينما كُنَّا منتظرين "دوشا"، بدأ "ملادين" يبوح بما داخله من إثر الملل. ودون قصدٍ منِّي، اكتشفت كيف أن "ملادين" وبعض الأشخاص أسماؤهم "فيتو" و"فيكتور"، وغيرهما، لا أعرفهم سرقوا سكوتر لفتاة في مركز المدينة ليتسلوا به. وأثناء عملية السرقة، لو فهمت "ملادين" بشكل صحيح، ظلوا يضحكون بطريقة هستيرية. اقتحموا في الليل جراج في الحي المجاور، كالسحرة. بلا شك "فيتو" و"فيكتور" اقتحما الجراج، فهما خبيران في هذه المهمة، بينما كان "ملادين" يراقب الجو، لربما جاء أي "مُخبرٍ مُغفَّلٍ" لن يتمكن من القبض عليهم". أخذوا الموتوسيكل، ولكن "فيتو" الجبان أحسَّ بالخوف، فأخذوا الموتوسيكل لـ"دانيال"، صديق شقيق "فيتو"، وشخصية "دانيال" هذا أحمق قذر. كل ما سيفعله هو أن يعيد دهن الموتوسيكل وإصلاحه، راقد في مكانه دون أن يفعل شيئاً، وسيذهب وراء الشمس يوماً ما. رددت عليه:

- نعم، من المؤكد هذا.



تفحصتنا "دوشا" على نحو غريب، ولكن "ملادين" تظاهر بشكل مقنع بأنه لا يراها تفعل ذلك، بينما حاولت أن أفهمها دون أي كلمة أنه ليس لديّ أي نية لتوضيح الموقف. لا أدري إن كانت فهمت أم أنها فقط أرادت أن تعرف لماذا هي في البار مع ابنيها. جلست دون أن تقول كلمة واحدة، ثم تظاهرتنا جميعنا أن ذلك أمر طبيعي.

- ذهبت لأرى "دانيلو".

- وبعد؟

- قال إن "نيدلكو" في سلوفينيا.

التفتت "دوشا" نحو "ملادين". ربما كانت تقرر أن ترسله إلى البيت، ولكنني أردت أن أعرف إن كان ذلك الصبي سيتأثر بالموضوع الذي نتكلم فيه بأي شكل. ولكنه كان مُهتماً بموضوعه فقط، أحسَّ بالملل ممن معه.

- هل تعرف أي شيء عن هذا؟

نظرت "دوشا" إلى ابنها الأصغر، ولكنه لم يُبِدِ أي انتباه.

- لا أعتقد ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- "فلادان"، لا معنى لـ...

- لا معنى لماذا؟

- لا معنى...

- لا معنى لماذا؟

نظرت "دوشا" إلى "ملادين" مرّة أخرى، ولكن يبدو أنها كانت تريد أن تميل عنّي، ونظرت إلى الجرسون، كما لو كانت تطلب المساعدة. أخذت تنقر بأصابعها على الطاولة، تذكّرت أن "دوشا" مدخنة، والنيكوتين يساعد في مثل هذه المواقف.

- هل يمكنني أن أنصرف؟

وجه "ملادين" نظرتة إليّ وانتظر إجابتي. يحتمل أنه أيقن أن لدينا أنا و"دوشا" مشاكل أكبر من سرقة موتوسيكل من الجراج بالليل والتجوّل به، فرأى أنه لا ضرورة من وجوده معنا. أومأت دون أن أجعل "دوشا" تشعر بلعبتنا المثيرة للتوتر تلك.

- لا تُورطني يا أخي!

خدعة رخيصة، ولكنها نجحت. لم يقل لي يا أخي من قبل، من المرجح أنه أحسّ أنني لا أرحب بكوني أخاه، كما لا أرحب بكوني ابن "دوشا". أشك في أن "ملاّدن" يدرك صعوبة مدى مقاومتي حتى لا أمثل شيئاً لأي شخص، وأشك أن يكون قد اكتشف رغبتني الحقيقية. ربنا كان يحاول أن يرتجل فقط، أو يريد أن يكتسبني.

راقبناه أنا و"دوشا" وهو يجرجر قدميه إلى مكتبه أمام العمارة وللحظة، ربما تأثراً بكلمة أخي، فكّرت في أن هناك شخصاً لطيفاً يتوارى خلف هذا المظهر، شخصاً أستطيع أن أتكلم معه بكلمة أو اثنتين. كان هذا رغبتني المخبوءة، التي ليس لها وجود محسوس في هذا الكائن المسمى "ملاّدن".

بمجرد أن اختفى الصبي عند الناصية، مدت "دوشا" يدها بسرعة في حقيبتها وأخرجت علبة سجائر، وأشعلت واحدة بيدٍ مُرتعشة، بدا واضحاً معاناتها بابتعادها عن السجائر. أسلوبها في تربية ابنها ما زالت سيئة التوجيه، وأعتقد أن الأمر أشبه بجحيم عندما يتعلّق بتعليم الآخرين. فكّرت في أن أسألها إذا كان ابنها يدخل بشراهة، فهذه أئفاه مشكلة في حياته. لكنني تراجعت عن ذلك. فهذا لا يمكن، ولا ينبغي أن يكون من شأني. قد أصبح "أخاً" بسبب حكاية تافهة عن سرقة موتورسيكل. حياتي مُعقّدة بما فيه الكفاية، من دون مشاكل أخي الصغير غير الشقيق الغبي.

- هل لديكم شنابز؟

- لا.

- إداً ويسكي، وكوب كبير من الماء.

لا أعرف إذا كان حائطها ينهار، أم أنها تخطط للجولة الأخيرة، وجهًا لوجه.
كل الاحتمالات متوقعة معها.

- "فلادان"...!

أحضر الجرسون لها الويسكي. أمسكت "دوشا" فورًا بالكأس، وقرَّبْتُها من
فمها. وضعتها على الطاولة مرَّةً أخرى في لحظة، وهي لم تزل ممسكة بها بكلتا
يديها، مما صرف يديها عن الارتعاش المضطرب. أخذت نفسًا عميقًا، لكنني لم
أسمع إلا سيمفونية من تنهَّدات متقطعة، تنم عن قلقها المتزايد. رفعت الكأس
مرَّةً ثانية، وأخذت رشفة من الويسكي، وأخيرًا التفتت إليَّ، ونظراتها تحوم في
المكان بعصبية.

- "نيدلكو"... دائمًا ما كان يعد فقط. وعدنا في "باولا" بأن نذهب إلى بلجراد
لأيام عديدة، ثم سينتهي الأمر ونعود على الفور. كان يقول دائمًا: "لوزا سيهتم
بالأمر" وأحسست بأنه فعلاً يصدق هذا. لكنني أنهيت حياةً بأكملها عندما
تركت "ليوبليانا"، وجئت معه إلى "باولا"، ولم أقدر أن أتخلَّص من إحساسي بأن
كل شيء يتكرر، بأن الأمور لن تنتهي، ولن نعود إلى بيتنا مرَّةً أخرى. بدا كل
شيء وكأنه النهاية، لذا لم أصدق كلمة مما يقول. من المحتمل أنه صدق أن كل
شيء سيعود في أيَّام عدة. ويصبح كل شيء كما كان. ولكنني لم أقدر. جلست
على ذلك السرير في ذاك الفندق ببلجراد، أستمع لوعوده وقصصه كل يوم، التي
تبدأ دائمًا بكلمة "غداً"، أو في غضون أيام. أصبحت كلماته لا معنى لها. أحسستُ
بأنه يقوله كي يقول أي شيء. أحسستُ بالفظاعة لو أنني تركتك في تلك الغرفة،
أحسستُ بالفظاعة لأنني أعرف أنك لا تفهم ما يحدث، وفي كل مرَّة أعود، أمسك
نفسي بالكاد عن البكاء أمامك. في كل مرَّة أدخل فيها الغرفة، أرى نظرتك

المليئة بالأمل، وأرى خوفك، ووحدتك، ولكن أخاف إن بدأت في التوضيح أسقط على الأرض وأنخرط في البكاء، مما سيجعل كل شيء أسوأ. قلت لنفسي لا ينبغي أن أبكي أمامك، لم أرد أن أقتل الأمل الضعيف الذي كان لديك. وبدلاً من ذلك، رحلت أتجوّل في بلجراد، أبكي أمام الغرباء، وهم ينظرون إليّ في اندهاش، فأفر منهم. منذ صباي وأنا أتقاتل مع أبي بعناد ولا أبكي أمامه. لم أشأ أن أعترف بهزيمتي أمامه، مهما كانت صفعته تؤلمني، واعتدت أن أخفي آلامي. ولكن في يوم من الأيام، جلس رجل عجوز بجواري على مقعد في حديقة أمام المسرح، ليقرأ الجريدة. كان رجلاً محترماً بحق، بقميصه مغلق الأزرار وحذائه الرائع. أتذكّر أن الجريدة ذكرت شيئاً عن الحرب بين الجيش الشعبي اليوغوسلافي والدفاع القومي السلوفيني، حول "ليوبليانا"، فلم أستطع أن أمهالك أكثر من ذلك، بكيت بصوت مرتفع. فنهض الرجل العجوز وجلس على مقعد مجاور. ومن هناك ابتسم لي وأوماً بالتحية. في تلك اللحظة، ذكّرني بأبي الغبي والأحمق، الذي لا يفعل ما هو مفروض أن يفعله، وأردت أن أجلس بجواره وأضع رأسي على جِجْرِهِ. شعرت بأنني مغلوبة على أمرِي، كطفل صغير. عندها أيقنت أنني في حاجة إلى شخص ليحضنني، ويبعث فيّ الطمأنينة، ويخبرني ماذا أفعل. ولكن ليس لي أحد. فكل أهلي إما في "باولا" أو "ليوبليانا"، ولا أعرف في بلجراد غير "جوكا"، وآخر مرّة رأيته كانت وهي في السابعة عشرة، لذلك لم أجرؤ على أن أطرق بابها، خشيت أنها قد لا تتعرف إليّ. خفت أن أفقدها هي أيضاً، فلم أتصل بها مطلقاً. اقتنعت، في ذلك الوقت، بأنه لا يوجد شخص أكثر منِّي شعوراً بالوحدة. أخبرت "نيدلكو" بأنني لا أستطيع مواصلة ذلك الوضع، وأنني

سأرحل، لا أعرف إلى أين، ولكن لا بُدَّ من الرحيل، وأنني سأتركه وأخذك معي، ولو إلى "بنجلاديش" لو استدعى الأمر. فالتزم الهدوء فقط. اتصل بي والتزم الهدوء. أحياناً يظل صامتاً لمدة رُبْع ساعة قبل أن ينطق بحرف. وكان هذا يقتلني. كرهت صمته، كرهته من كل قلبي، كرهته لأنه ساكت. فهو أفضل حتى ولو ينطق بوعوده، وإن كدت أُجَنُّ منها. كاد هذا الصمت يقتلني. لم أستطع أن أستمع هكذا، بدأت أبلغه بالألّا يتَّصل بي إذا لم يتكلم، إلا أنه داوم الاتصال وظل ساكناً. طلبت منه أن يتكلم، أن يقول أي شيء. كنت أزداد غيظاً، هددته، جرَّبت معه كل شيء، ولكن لا فائدة. ذات يوم، أخبرته أنني سأذهب إلى "دوشان" و"ماريا" في سلوفينيا، وأنني لن أتصل به بعد ذلك. كنت جادّة بالفعل، لكنه لم يصدر أي رد فعل. هذه المرّة الأولى التي أخاف فيها مما لا يستطيع البوح به، مما لا يريد أحد أن يقوله بصوت عالٍ وبوضوح، مما تبتُّه أخبار المساء بين السطور، مما تستطيع أن تقرأه في صمت، ما يريد أن يقوله المذيعون، ولكن غير مُصرَّح لهم. تصوَّرت كل شيء، وسمعت بعض الأنباء من زوجات الضباط الآخرين، فصار خوفي أكبر. لم يعد بإمكانني أن أبقى في هذا الفندق، بين هؤلاء الناس. لم أرد أن نكون واحدة من أسر هؤلاء الضباط بعد الآن. ثم جاء ذلك الصباح للإفطار... وكل ما قاله: "ستندلع حرب". سألته ماذا يقصد بهذا، فهزَّ كتفيه، وهزَّ رأسه ونظر بعيداً. لم يقدر حتى أن ينظر في عينيّ. أحسست أنه يريد أن يقول لي ارحلي، أن أتركه وأنساه، أن أفر لأبعد ما يمكن، لأنقذك وأنقذ نفسي، لكنه لم يستطع أن يتفوّه بكلمة. كان امرأة في زِيّ عقيد، ولكن ما زال امرأة، حتى أسوأ منّي. لديه أوامره، وحياته العسكرية، ويتقبل أي شيء، وكل شيء. استسلم

ذلك الصباح، ربما قبل ذلك، وربما من أول يوم جاء فيه إلى بلجراد، ولم أدرك ذلك. أو لم أرغب في فهم ذلك. فتعريفه الوحيد لقيمة الذات هو زُبُّه العسكري ورُبُّته، ولكنني ما زلت أرى زوجي، أبك، "نيدلكو" مدفونًا فيه. أعرف أنه لم يعد يعيش لنفسه. فهو فقط العقيد "بوروجيفيتش"، جندي جاء يومًا ما ليعمل، فاستقبلته الحرب، جالسة على مكتبه، وتبتسم له. ليس لدي فكرة لماذا وافق أن نذهب إلى "دانيلو" في "نوفي ساد". لا أعرف، ربما لتغيير شيء ما، لنقل شيئًا ما. اتضح لي فيما بعد أنه فعل ذلك لأنه لم يعرف ماذا يفعل، ولم يستطع الاستمرار في وعوده معي بأن الأمر "غداً"، أو "في غضون أيام" سيتغير. لعله يجب أن أكون ممتنة له؛ لأنه لم يرد أن يكذب أكثر من ذلك. لكنني كنت يائسة، ومُحِبَّة، وغضبانة منه لأننا عشنا هذا. ولكن بدلاً من ذلك، أعطيته إنذارًا أخيرًا. أعطيته مهلة عشرة أيام ليختار بيننا أو الجيش. شعرت بالذنب لأنني كنت أبتزُّه بك، غير أنني فكَّرت أن هذا السبيل الوحيد للوصول إليه، وليأخذني على محمل الجد. إلا أنه أوماً فقط، وأتذكَّر أنني أردت أن أضربه، كرهته للغاية، ولو أننا وحدنا لانقضت عليه وخنقته، عندما أيقنت أن أمامي احتمالين فقط: إما أن أثار جنونًا، وإما أن أذعن للأمر. أذعنت، لم أكن أنا التي ذهبت إلى "نوفي ساد"، كانت "دوشا" أخرى، لا تسمع ولا ترى، تجلس فقط على الكنبه، محشورة بين هؤلاء الناس، تُحدِّق في التليفزيون شاردة الذهن. هذه الكنبه، وهذا التليفزيون هما كل ما أتذكَّره. أعلم أنني أرحت نفسي فصار على الأقل لديك صحبة، وأنت لم تعد في حاجة إليّ، فـ"سافا" كانت تطبخ لك ما تريد. وأتذكَّر مكالماته. فقط يقول إن كل شيء سيكون على ما يُرام، لكنه لم يُرد أن يتكلَّم إليك، وطلب مِنِّي اختلاق سبب. ربما

هو أيضًا انغلق على نفسه ورأى من الأسهل عليه ألا يسمع صوتك لأنه سيعيده إلى حياته الماضية. فعلاً، كل مكالماته في "نوفي ساد" تكرر نفسها. أخذ يعيد ما يفعله، وأنا أعيد ما أفعله. توقفت عن سؤاله عمّا يحدث في الساحة، وهل سيهرب من الجيش، ويهرب معنا. أصبحت فقط أعد الأيام وأخبرته ذات يوم أننا سنذهب إلى سلوفينيا في اليوم التالي. كذبت وقلت بأنني اشتريت التذاكر، وأنا جهزنا أغراضنا، فلم يعترض، وسأل فقط: "أين ستقيمان؟" بمقدوري أن أظل أسمع هذا السؤال، التافه، الغبي، والمؤلم. تقبل رحيلنا بمذلة، مثلما تقبل الحرب ودوره فيها. قررت عند هذه اللحظة أنه آخر مرة سأسمح له بأن يجرحني، لذا طلبت منه ألا يتصل بي مجددًا وأني لا أريد أن أعرف عنه أي شيء. فقال: "وهو كذلك، وهو كذلك، وهو كذلك". كان يمزقني في حياتي، ولم أستطع أن أصرخ، أو أركل بقدمي، أو أضدم رأسي بالحائط، لم أستطع أن أفعل شيئًا في هذه الشقة المليئة بأقاربه. أردت أن أقتله، وأقطعه بيدي. وهو كذلك؟! قال "وهو كذلك" واستغرق في سكوته مجددًا. من المحتمل أنني لم أدرك أنه أراد متعمدًا أن يبعدنا عنه، يبعدنا عن هذا المكان. بالطبع لا يمكنني أن أعرف كل شيء يعرفه ولا أن أفهم ما يدور معه، أو حوله. لكنني لم ولن أفهم على وجه الخصوص خضوعه واستسلامه، إلى اليوم، لا أستطيع أن أفهم ذلك. رضاه بحقيقة أنه تخلى عن الكفاح من أجل نفسه، كما لو أنها لا تعني شيئًا بالنسبة له. ما يؤذيني أنه فقد الأمل فيّ، ولكن لا أتقبل فكرة أنه فقد الأمل فيك أيضًا، أنت، ابنه. لا يمكن أن أعفر له ذلك. أردت أن أعاقبه على ذلك، وأصفه بالمتوحش، القاسي، المتبلد. عندئذٍ أخبرته بأننا سنذهب إلى سلوفينيا، وأني سأخبرك بأنه مات، وأنه لن يراك بعد ذلك.

فكانت إجابته "ربما يكون ذلك أفضل". لم أصدق هذه الكلمات، ولم أرغب في أن أفهمها. لم أرغب في معرفة أي سبب في هذا العالم يجعل رجلاً يرضى أن يكون ميتاً في عيني ابنه. لم أجرو على التفكير في أي سبب لذلك، فظيع، مُرَوِّع. كنت على يقين من أنه كان يبالغ، يؤدي دوراً درامياً، مثلما يفعل الرجال. انظر! ما زال التفكير في هذه الكلمات يُوتّرني، ولكن في ذلك الوقت كنت أرتعش بشدّة لدرجة أنني بالكاد استطعت أن أمسك بسماعة التليفون. لعلمك، لم أكن جادّة، أردت أن أوّله كما هو يؤلمني. أردت أن أجرحه لينزف قليلاً. ولكنه تقبّل موته. ففكّرت في نفسي بأنه ليس الرجل الذي تزوّجته. إنه شخص آخر يتّصل بي، يتظاهر بأنه هو. شخص يريد أن يستغفني، ويستضعفني عن عمد. لأنني لم أعد أتعرّف إليه مرّة أخرى. لربما لو رأيته مجدداً، ونظرت إليه في عينيه، أو لمستته. لا أدري، لربما اختلف الأمر، ولكن بهذا الأسلوب أحسستُ بأنني أهجر شخصاً مجنوناً، غريباً عنّي، شاذاً، صوتاً أجنبياً ينطق بأشياء مبهمّة وغير منطقية. وإلا ما امتلكت الشجاعة وجلست في ذلك الباص. ولا جرؤت وتركت بيت والديّ. ولكن على الرغم من كل هذا، لم أستطع دفنه على الفور. في البداية، قطعت اتصالي به فقط. اعتقدت أن هذا كافٍ ليُجعله يفهم إلى أي مدى قذف بي، قذف بي بعيداً، حتى إنني طرقت باب "دوشان بودلجار". "نيدلكو" الوحيد الذي يعرف مدى صعوبة ذلك عليّ، مدى الإذلال، والتحمل لأرى شماتة هذا الرجل الخفية مرّة أخرى، وخضوع "ماريا" القميء. بعد كل هذا، كان الأمر أسوأ بمائة مرّة من ذي قبل. لم أستطع إلا أن أكرههما أكثر من أي شيء. لم أعد على استعداد أن أتفاهم مع أي منهما، وعلى الأخص، مع نظراتهما اللائمة... كل ساعة

قضيتها في ذلك البيت كانت جحيماً بالنسبة لي. لم يسألاً إطلاقاً عن زوجي، ولا ماذا حدث له، أو إذا كان كل شيء على ما يُرام. لربما مات، لا يهمهما ذلك. لم يهتمما بي. بدا لي أن "دوشان" تقبلك فقط ليريني كم كنت مخطئة في كل شيء في حياتي. عندما تشعر باليأس كما شعرت به أنا في ذلك الوقت، في ذلك المنزل، ستجد كل شيء يخبرك بأن الدنيا كلها تتآمر ضدك. رأيت أننا يجب أن نهرب من هناك أيضاً؛ لأنني شعرت بأن حياتي هناك في ذلك المنزل ستعود مجدداً من حيث انتهت ذات مرة. نعم يا "فلادان"، بينما كنت أجري هنا وهناك، نسيته. نعم نسيته. ولكم أشعر بالأسى لذلك. لقد نسيته يا "فلادان". أعرف ذلك الآن. أعلم أنني تركتكم خلفي، على الرغم من أنك كنت تمسك بيدي كل الوقت، وتجري في هذه الدنيا المجنونة، خلفي. كنت جزءاً من تلك الحياة، لم أستطع منع نفسي، ولا تدري كم كنت حزينة، ولكنك كنت، كنت بالنسبة لي، الحياة التي أهرب منها. أعرف هذا الآن. ولكن شعرت حينئذٍ بضرورة أن أنهي هذه القصة، وإلا سأموت. لم أستطع أن أكون جزءاً من هذه القصة على الطرف الآخر من التليفون. شعرت بأن كل شيء انتهى، ولم نعد موجودين، وأنه لا وجود لـ"باولا"، و لا لأسرة "بوروجيفيتش"، وأردت أن أواصل، في أي مكان آخر، أي مكان من دون "نيدلكو". لكنه بدأ يتصل من جديد، أراد أن يعرف كيف تسير حياتنا الطبيعية. وبدأ يتظاهر بأن كل شيء كما هو، ويسألني الأسئلة التافهة، عن المتاجر، الجيران، الجو، وكل هذه التوافه. أوشكت على الجنون، وهو يريد أن يعرف ماذا سنتناول على الغداء. اعتقدت أنه فقد عقله. عندما أفكر في ذلك الآن، من المحتمل أنه احتاج إلى انطباع عن الواقع لوضع دقائق، صورة مسموعة عن الدنيا، حيث ما زال

الناس يذهبون إلى المتاجر، ويطهون الغداء. حاول أن يظل متماسكًا، ولكنه كل يوم يبدو أنه سيكوباتي. أعلم أنني كنت فظيعة معه، أخبرته بكل شيء، ولكنه هكذا كان يبدو لي. بدأت أخاف منه، أخاف من صوته الهادئ، وأسألته عمًا نشاهد في التلفزيون. لعلمك، لم نتحدث، ولو لمرة واحدة، عن الحرب. إطلاقًا. ولا كلمة. لم يحاول أن يشرح لي أي شيء. ولم أسأله مطلقًا عن أي شيء. أحيانًا كنت أحاول أن أتخيّل عقيدًا يتّصل بزوجه من ميدان المعركة، بعد معركة شرسة تركت عشرات الجُثث من الأولاد الصغار، يتحدث معها عن البحث عن عمل، عن قيمة الإيجار، ودهان الجدران. ورأيت ذلك الرجل المجنون أمام عينيّ، ولم يشبه هذا الرجل الذي أحببته أكثر من أي شيء في هذه الدنيا. وبدأت أتأكد من أن شعوري برغبتني في الابتعاد عن هذا الرجل الذي على الطرف الآخر من التليفون يزداد. لم أرغب بوجه خاص أن يكون لك علاقة به. ازداد كرهني للتحدث إليه مع كل مكاملة، وكنت أوشك أن أقطع المكاملة. عند لحظة معينة، لا أدري ماذا قال، فهناك الكثير، أيقنت أنني لا أريد أن أراه بعد ذلك والأكثر أنني لا أريدك أن تراه. لم أستطع تفسير ذلك حينئذٍ وما زلت لا أستطيع، ولكن لست نادمة أيضًا. فما زلت أشعر بأنه الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله. بالتأكيد سمعته، ثم ستعرف بعد ذلك عمًا كنت أتحدث، وتفهمني. كان عليّ أن أخبرك أنه مات. كان عليّ أن أدفنه. لو أنك سمعت محادثة من محادثاته العديدة، لو أنك سمعت صوته الهادئ، لأيقنت أنه لا خيار لي. اضطررت لذلك. من أجلك أنت اضطررت أن أدفنه...

واصلت "دوشا" كلامها، واستمرت في قصّتها، لكنني لم أسمع غير الكلمة الوحيدة غير السلوفينية التي قالتها لي خلال وجودنا في

"ليوبليانا". شاهدت شفاهها تتحرك، ما زالت تحكي قصتها، التي تأخرت كثيراً كي تفسرها لي. شاهدتها أخيراً تنفتح معي بعد ضياع كل هذه السنين، لكنني لم أسمع غير صوتها البعيد يردد كلمة واحدة "مات، مات، مات".





- مات!

قالتها مرّة ثانية، بعدما لم أستجب لما قالته أولاً بشكل مفاجئ:

- بابا مات!

كالعادة، استجبت لكلماتها السلوفينية بالصمت. ربما أدركتُ أن صمتي هذه المرّة لم يكن عدم فهم من باب التمرد. أو لم تكن مستعدة لهذا الموقف الذي تدرّبت بلا شك عليه في ذهنها على مدار شهور، وهكذا عبرت عن نفسها بشكل غريزي، كما لو عن طريق الخطأ، في لغة مهجورة لسعادتها التي ماتت من زمن. على أي حال، أخبرتني أمّي بأكثر الأخبار صدمة يتخيّلها صبي في الثانية عشرة، وقالتها بلغتين.

في الأيام الأولى من شهر فبراير البارد، اشترت لي كُرة قدم، وصفتها بهدية متأخرة لكل الإجازات التي فاتتنا، وأجبرتني بشدّة على الخروج إلى

ملعب المدرسة الجليدي لألعب بها. هناك، وحدي تمامًا، بالقفزات والجاكت الشتوي، في مظهر يتيم وحيد في العالم، شرعت وأنا شارد الذهن أن أضرب حارس مرمى غير مرئي. منصات مسفلتة خالية، مهجورة منذ منتصف أكتوبر، تقف صامتة من حولي، بينما أركل كرتي الجديدة، الهدية التي لم أكن أحلم بها؛ لأنني أعلم أنه لا يوجد نقود لشرائها. ظننت أنها محاولتها اليائسة لتبعدي عن الشقة لسبب أو لآخر، أو محاولة لمساعدتي، بطريقتها الخاصة، كي أتأقلم مع أندادي أمام العمارة. حتى إنني اعتقدت أنها ومضة من غريزة الأمومة، التي اعتبرت أنها انقرضت من زمن، ولكن لم أفكر أنها وسيلة لبهجتي قبل أن تحطم يومي، أسبوعي، سنتي، عمري كله.

هكذا، في درجة حرارة ثلاثة تحت الصفر، كنت أركل كرتي الجديدة، ويدي مدسوستان في جيبِي، شاعرًا بالأسف لهذه المرأة التي لم تعرف كيف تتقرب من ابنها، وانتهى بها الأمر لتشتري له كُرة قدم وترسله في البرد القارس، كجزء من خطتها أن تجعله يبتهج قليلًا. كنت على وعي من إحساسها بالواقع الذي في غير محله، وافتقارها إلى إدراك أن ملاعب الرياضة في فبراير خاوية، وأن التصوير بأحذية الشتاء غير مُمتع بالمرّة. لقد شعرت بالأسف لهذه المرأة التي تمنّت أن تجعل ابنها سعيدًا فجعلت منه مُعقلاً.

بعد أقل من ساعة، عُدتُ من الملعب فوجدتها بوجهها المليء بالدموع، مما أكد هاجسي. لم تنتظر حتى أخلع حذائي، وتدفاً يداي، ويسترد حذاي لونهما. لم تنتظر حتى أفك الكوفية، وأخلع طاقة الرأس، ولكنها اندفعت:

- بابا مات!

ثم كررتها، في حال لم أسمع:

- مات!

لم أجب، ظل وجهي كما هو، بينما بدأت "دوشا" تشرح كيف مات. أتذكّر أن الكلمات كانت تتدفّق منها، لكنني لم أستمع وذهبت إلى غرفتي، وسحبت علبة "هاشم" للألعاب النارية الخضراء التي ما زالت في حالة جيدة من تحت المرتبة، وعدتُ مسرعاً إلى الخارج. أخذت تنادي بصوت عالٍ كي أعود، ولكن في تلك اللحظة، أردت أن يبدأ العالم في الفرقة. اضطرت أن أفرقع، وهذا كل شيء، ولم أشعر بشيء آخر.

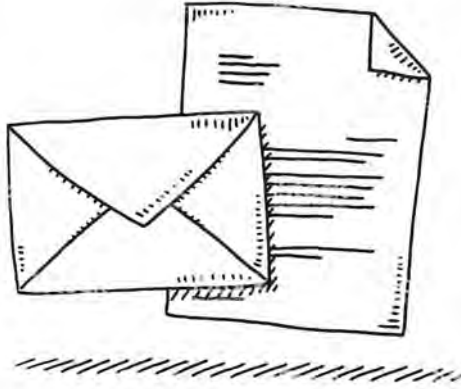
أعتقد أنها جرت ورائي، ولكنني كنت أسرع منها، اندفعت نحو ملعب الكرة، الذي ما زال مهجوراً ومن السهل أن أختبئ فيه من أي شخص يريد أن يتلصّص على طقوس الحداد الخاصة بي. هناك مائة قطعة من الألعاب النارية في العلبة، مائة قطعة نارية خضراء قوية تملأ المنطقة بالدويّ، واحدة بعد الأخرى، وأنا جالس تحت شجرة بجوار الملعب، أشعل وأقذف، ولا شيء في ذهني. كانت تفرقع، تنفجر فعلاً، وتظل طويلاً، نعم كانت هناك بعض القطع لا تشتعل، ولكن لم أهتم بالأمر. الولّاعة التي خطفتها من يد "دوشا" أحرقت أصابعي، ولكن لم أعبأ بذلك. شعرت بالحاجة إلى الفرقة والاشتعال والابتهاج وتمنيت ألا تنفذ قطع الألعاب النارية، كي تفرقع أكثر قوة حينما أشعلها بسرعة أكبر.

تبقيّ معي عشر قطع، لما جاء رجلان من الشرطة واقتربا مِنِّي وسحباني إلى سيارة الشرطة، وأخذاني إلى القسم. سألاني أين أسكن، وما اسمي، وطلبوا رقم تليفون المنزل، واسم أبي، وأممي، وكثيراً من المعلومات

الشخصية التي أعطيتها لهما مطيعًا، أملًا ألا يسألاني لماذا جلست تحت الشجرة وأشعلت تسعين قطعة من الألعاب النارية.

لم أعرف إذا كانت "دوشا" وضحت للشرطة في التليفون ما حدث بالفعل، لكنها عندما وصلت إلى قسم الشرطة لم تقل كلمة واحدة. حضنتني فقط وأومأت لهن. ربما كانت عاجزة عن الكلام؛ لأنها لم تتكلم أيضًا عندما عدنا إلى البيت. حاولت في المساء أن تكلمني مجددًا عن موت "نيدلكو"، ولكي تجعلني أشعر بالارتياح أيضًا، ولكن لم أستمع، وتركتها تحضني، معتقدًا أن هذا يريحها أيضًا. في الصباح التالي، تظاهر كلانا بأننا استيقظنا لنبدأ يومًا طبيعيًا تمامًا، دون أن نتحدث عن الألعاب النارية ولا الشرطة ولا الآباء المتوفين. على حد قول أمِّي، مات "نيدلكو بوروجيفيتش" يوم 17 فبراير 1992. وهذا ما كان.





أعادتني قصة "دوشا" إلى مكان لم أزره من وقت طويل. كتمت في نفسي توقيت موت "نيدلكو"، ولسنوات عدّة لم يوجد ذلك اليوم البارد من فبراير بالنسبة لي. يجب أن يظل أبي مدفوناً في أعماقي؛ لأن ليس له مقبرة أخرى، ولأن موته ينبغي ألا يصل إلى كل أفكارى ومشاعري اليومية. كانت "إما"، واحدة من أول صديقاتي في المرحلة الثانوية، الوحيدة التي استطاعت أن تنتزع مِنِّي معلومة أن أبي ليس له مقبرة. سألتني أكثر من مرّة كيف أحتمل هذا. وحكت لي عن جدّتها، التي أصبحت بلا أخ ولا أب بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت تحنُّ، لأكثر من خمسين عاماً، لمقبرة تركع عندها، وتضيء شمعة بيضاء صغيرة، وتصلي عندها وتتلو

أسماءهما في صمت. ظللتُ أدّعي أنني لا أحتاج إلى مقبرة لأبي، وأن أبي مات، وقصته انتهت بالنسبة لي.

هكذا أعادتني "دوشا" إلى حيث يعود كثير من الناس، ولكنها أعادتني من حيث فررت ذات مرّة كي أهرب من أحزاني. بينما كنت أستمع لها وهي تحكي لي عن الأوقات العصيبة، ظللتُ أرجع إلى تلك الشجرة بجوار ملعب كرة القدم، مشغلاً الألعاب النارية الخضراء، واحدة بعد الأخرى، فتفرقع بجوار رجلي، إلى أن بدأت أضعها على الأرض بجواري تمامًا. لو امتلكت مزيداً من الألعاب في ذلك الوقت، وسمحوا لي بإشعالها، لفرقت عاجلاً أم آجلاً، على ما أعتقد، في حِجْرِي، وفي يدي. كنت أبعد بها الألم وفي الوقت ذاته، أسترجعه. وفي النهاية، ربما فاز الجزء الذي في داخلي، الذي أراد ألا يحزن، والذي قاوم الألم.

ولكن "دوشا" أيقظت أيضاً الجزء الآخر من جسمي، الأكثر حساسية وضعفًا، وجلست هناك بجواره، عاجزاً عن الاستجابة لكلماتها. لقد أعادتني إلى جذع الشجرة بجوار ملعب كرة القدم الجليدي، وبدأ كل شيء من جديد. فقط في تلك اللحظة التي لم يمت فيها أبي فعلاً، شعرت بأنه مات. مات على مدى ستة عشر عامًا.

سحبت خطاب "نيدلكو" من جيبتي ودفعته في يديها.

- من أين جئت بهذا؟

- من "برتشكو".

أخذته وبدأت في قراءته، راقبت وجهها باهتمام، ولكن لم أتنبئ منه شيئاً.

- مَنْ يكون "ج.ج"؟

- وكيف يفترض لي أن أعرف؟

- ألم يحضر لك هذا الخطاب؟

- لا، لم يحضر أحد خطاباته، كانت تأتي عن طريق البريد، وكانت تُرسل من سلوفينيا، في أطرف بيضاء عادية تُشتري وتُرسل من هنا. من دون اسم أو عنوان. لم أعرف إطلاقاً من يرسلها. واعتقدت أنه من الأفضل هكذا.

لا أعرف إذا كانت تعاستي حقاً أثرت في "دوشا"، ولكنني أحسست أنها تعتذر لي، وأنها فعلاً آسفة لعدم قدرتها على مساعدتي.

- ربما...

- ماذا؟

- لا شيء.

- أخبريني!

- ربما "بران" يعرف شيئاً، سأبلغه ليقابلك.

كان "بران" هو الملازم "برانكو ستانيزيتش"، الذي اعتاد أن يأتي إلى "باولا" في إجازة كل صيف، ويحضر معه براندي "بلوم" لأبي. كان في ذلك الوقت الجنرال "ستانيزيتش". كان الرجل الذي تمنى "دوشا" أن يساعدها في إيجاد عمل عندما جئنا إلى "ليوبليانا"، ولكن لم تعثر عليه، على الرغم من أنها اتصلت به في المنزل والعمل، وعلى الرغم من أنني كنت أقضي أحياناً كل أوقات ما بعد الظهر أطلب رقمه باستمرار، ولكن دون رد. أخيراً، عثرنا على السيد "ستانيزيتش"، فقد بدأ يظهر في التلفزيون، استبدل بزيّه العسكري بذلة زرقاء جميلة. بعد ذلك بوقت قصير، فقدت "دوشا" فيه الأمل، وتحررت من التزامي بالاتصال.

في ذلك الوقت، أصبح السيد "ستانيزيتش" نجماً على الموائد المستديرة، ومناقشات التلفزيون، يخاطبه الصحفيون برهبة واضحة، على الرغم من

أن ألقابه المدونة على شاشة التلفزيون أصبحت أكثر غموضًا كل سنة، وكذلك كلماته. على الأقل هذا ما ظهر لي، محاولاً أن أرى فيه "بران" الذي اعتاد الشواء على الشاطئ مع "أمير" و"نيدلكو" ويغلبه النوم في الشمس بعد الغداء، بينما أنا وأبناؤه كُنَّا نحركه إلى الظل كي لا تلسه الشمس. أردت أن أتعرف فيه على الشخص الذي كان يرتدي القناع الأصفر المزود بأنبوبة التنفس الخاص بابنه الأصغر، وكان يجمع الأصداف الصغيرة لساعات عدّة متواصلة، بينما تظهر مؤخرته البيضاء من الماء كالجبين الإيطالي؛ الرجل الذي جعلنا نغني جميعًا الأغاني الحماسية في المساء، إلى أن يسقط مخمورًا، فيرفعه "أمير"، و"نيدلكو" إلى سيارته "اللادا"، التي نسحبها إلى "باولا" لأن زوجته ليس لديها رخصة قيادة.

بصرف النظر عن المجهود الذي بذلته، لم أستطع أن أرى "عمو" الطريف في السيد "ستانيزيتش"، فقد كان يحب أن يتكلم كثيرًا عن التغييرات الاجتماعية والديمقراطية، والذي بفضل ما زلت أغني "بين الوديان وفوق التلال" باللهجة السلوفينية. كان "بران" هو السيد "ستانيزيتش"، حتى عندما ظهر فجأة في المرحلة الأخيرة من تفكك أسرتي، كذلك ظهر في قصة زفاف بلقانية درامية هزلية أنذرتُها.

لكن ذلك لم يكن سائدًا في كل الظروف الأخرى، فحفلات الزفاف التقليدية كانت تكتظ بالعواطف التي يعبر عنها الناس بوضوح، وقصّات شعر مأساوية، وبذلات رخيصة غير مضبوطة، وكرافات مربوبة بطريقة غير مهندمة، وخليقة موسيقية، ربما كان الغرض منها أن تُبعد ثقلي الدم المتطفلين. أتذكر حفل زواج في حي صربي نموذجي، حيث اتجه أهل قرية صربية نبذها الله إلى ساحة سلوفينية مسفلتة ليستقروا

بين العمارات للاحتفال بزفاف ابن أو أخ أو ابن عمٍّ أو حفيد أو ابن أخت أو ابن عمّة أو جار أو صديق سلوفينية. كان "دراجان" بهذه المناسبة، عليه اللعنة، وقد وجد فئاته السلوفينية، وربما الآن - عليه اللعنة - سينعم بسعادة أبدية، ويعيش عمراً طويلاً، موفور الصحة.

احتلت سيارات ضيوف الزفاف ميداننا، تبدو من شُرفتنا أشبه بالكعكات الكبيرة المتنقلة على عجل مزخرف بشكل مبالغ فيه، وراح عازفو الأورديون يعزفون في الجراج المخصص للمعاقين، والذين جاؤوا من مسافات بعيدة، بتأشيرات حصلوا عليها بصعوبة، ليسيروا بأُمِّي من مدخل إلى آخر، الكل يعلو صوته ب"أغنية من الوطن". كانوا في الوقت نفسه يُمرون بزجاجات الشنابز المربعة، ويعدون أنفسهم بسرعة للمهرجان، الذي يتوقعون أن يكون قَمّة الحفلات. وراحت الفتيات الصغيرات، اللاتي صرن يشبهن أمهاتهن بفضل أحمر الشفاه، يرقصن بأذرع متشابكة على الموسيقى الشعبية أمام ساحة مخزن الدراجات. وأخذ الشبان، الذين استبدلوا بملابسهم الرياضية الإلزامية جواكت آبائهم الواسعة، يهتفون لهم من مسافة معقولة، بينما أعمامهما يقدمان لهما المشروبات، ويربتون بفخر على ظهريهما. أما الخالات من كل الأعمار ضبطوا فساتينهن الضيقة، متظاهرات بأنهن لم يستطعن أن يشتريتا فساتين جديدة تناسب المناسبة التي وعد بها أزواجهن ذوو الشوارب منذ 1987. قلّة من الأطفال، عليهم زينة مثل أشجار الكريسماس، راحت تجري هنا وهناك، وآباؤهم الصغار يسكون بهم خشية أن يصلوا إلى الطريق العام، وفي الوقت نفسه أخذت فتاتان الصور بأكثر من عشرين كاميرا مختلفة.

كان عازف الأورديون يعزف على حسب طلب العم "بلاجويا" من "جنيف"، وبهذه الطرقات العتيقة، عاد الضيوف الأكبر سنًا إلى أيامهم الخوالي الجميلة، عندما خرجت من العمارة مع "دوشا" المرتبكة الخائفة، ووجدت نفسي فجأة وسط هذه المجموعة من الناس الغرباء الذين لم تكن لدي أي فرصة من قبل لأقابلهم.

كنت في الخامسة عشرة، كل شيء في هذه الدنيا كان مُزعجًا. ولكن بالنسبة لي، أن تتزوج أمي أمام كل الناس في تجمُّع عام من العمَّال الصربيين المهاجرين لا يختلف كثيرًا عمَّن يجد وسيلة للانتحار الاجتماعي والعذرية الأبدية. لذلك ارتديت أردأ وأقدم جينز عندي كنوع من الاحتجاج، وأسقطته إلى أسفل وسطي بكثير، ووضعت على رأسي كاب فريق "شيكاجو بولز"، بنية متعمدة توحى لهؤلاء المتخلفين أن هناك عالمًا لديه معرفة كبيرة ويمتلك عجائب كثيرة من الكهرباء، ومياه الصنبور، و"مايكل جوردون".

كانت آخر لمسة في ملابس الزفاف الخاصة بي سماعات أذن أرتديها. كانت يمكنها أن تثير غضب "دوشا" في أي يوم آخر، ولكنها لم تهتم في يوم زفافها هذا؛ لأنها ببساطة لا تهتم بي في هذه المناسبة، ولا بأي شخص آخر، تجاه هذا الأمر. كانت في ذلك اليوم مجرد مراقب لا يُبالي ملوكب السيرك الذي اقتحم في البداية، وهو يلوِّح بأعلام الصرب، قلعة "ليوبليانا" للاحتفالات المدنية، ثم اتجه نحو الكنيسة الأرثوذكس في ظل حماس الزفاف. وفي المشهد الأخير، احتلوا مطعمًا لأحد المصانع على طريق المطار. في مكان ما بين المنشآت الصناعية المتدهورة والسكك الحديدية، استقبلتنا مجموعة خنازير صغيرة جاهزة للشواء، ومطربون تغلب عليهم سمرة

الشمس، وسبعة جرسونات بزّي مهترئ، يتشاءبون بشدّة، يقدمون نوعين من الطعام وثلاثة أنواع من المشروبات.

طوال هذا الوقت، كانت أفكار "دوشا" في مكان آخر، ولكن الضيوف الصرييين فسّروا شرودها بالفرحة الغامرة؛ لأنها سلوفينية ستتزوج من صربي أصيل. وتم تفسير صمتها بمقولة إن المرأة لا تستطيع أن تتغلب على حظها السعيد، وأن ثلاثة على الأقل من أصحاب قصّات الشعر المنفوش الفخورون أقسموا بأنهم أيضًا لم يتمالكوا أعصابهم في أهم يوم في حياتهم، ولم يستطيعوا أن يتكلموا لمدة ثلاثة أيّام بعد زفافهم من الإثارة. لذلك أومأت "دوشا" وابتسمت، بينما حشد صربي من الأعمام وأبناء العم والقذرين الآخرين ذوي الشعر، معظمهم لا ينتمي لنا، يشاهدونها، وزوجاتهم يعطين النصيحة عن الحياة الناجحة بجانب قطعة من اللحم الصربي الجيد.

استطاع "دراجان" حديث العهد بالزواج أن يقترب منها في ذلك اليوم فقط ليضع الدبلة في إصبعها ويقسم أنه يقبلها زوجة شرعية، ثم خطفه أقاربه مرّة ثانية، كي يلقوا عليه النكات البلقانية بأقصى ما يمكنهم وهم يشربون الخمر القوية، وكلها تدور على المغفل الساذج الذي سمح لامرأته أن تقنعه بأن يتزوج. ولكن، عكس "دوشا"، تقبل "دراجان" هذا بصدر رحب، وشارك في الشرب والرقص. ولم يكن - هذا أسوأ ما أدركته "دوشا" - أكثر التزامًا من المشاركين الآخرين في هذه المناسبة.

في ذلك اليوم التعيس، كنت مُستاءً جدًّا، ولكنني شعرت بالشماتة بنظرتها الهلوعة التي تُخبئها ببؤس، وهي ترى زوجها الجديد، بقميصه

الواسع غير المُزَرَّر، يدس المارك الألماني في جيب قميص عازف الأكورديون. يصيح وقد حزنه اثنان من أصدقائه قائلين:

- هذه آخر أممممسية لنا.

أخذ يرسل لها قُبَلاته المخمورة من الجانب الآخر من مطعم المصنع. كنت أصغر من ألا أستمتع بسقوطها المفاجئ، على الرغم من أنني مقهور بنوع آخر من الانزعاج. كلما أُفكَّر في هذه العروس المتجاوزة السن نسيبًا، وهي تجلس بمفردها على طاولة الزفاف الطويلة، المليئة بعظم الخنزير والأكواب البلاستيك، وهي تبتسم بلطف للمبتهجين وهم يدعونها لرقصة "كولو".

الشيء الوحيد الذي خفف عني هو أن هؤلاء الصرب المرحين كانوا على حق عندما رُؤوا في إنسانًا من كوكب آخر، وأنهم، بعد محاولات عدّة فاشلة للتواصل معي، انصرفوا عني. تركوني أجلس في ركن بالسماعات في أذني، وأعطيتهم الفرصة ليتكلموا عن نظرية "لكم أفسد الغرب الأطفال"، ويؤكدوا على "أنه من المنطق تمامًا عدم التواصل معهم". للمرة الأولى أجد نفسي في دور ممثل عن السلوفيين كما كنت بوضوح في أعين الضيوف الصرب. وعلى الرغم من ذلك، فاليوم كان طويلًا وشاقًا جدًّا، وبعد أن وافقت أخيرًا "دوشا" على انصرافي، انصرفت دون أن أنظر إلى الخلف إلى هؤلاء السكارى الذين أرادوا أن يودعوا "ابن دراجان الجديد" بعد تجمعنا الذي لا يُنسى.

عند خروجي، اعترضتني خطوات سريعة لرجل في بذلة زرقاء رائعة، قضى المساء جالسًا في الركن بهدوء، عند وقوفه بجوارني فقط تعرفت إلى وجهه المألوف الذي يظهر في التلفزيون. سألني السيد "ستانيزيتش" إذا كنت أعرف من هو. ثم بدأ يتحدث بطريقة غريبة وودودة وحماسية عن كيف ينبغي أن أسمح لأمي بممارسة حياتها، وأني سوف أفهمها حينما

أكبر، وأن أبي كان سيرضى بذلك، لو أنه لم يزل على قيد الحياة. لم أستمع له، ولم آخذ كلمة مما قال مأخذ الجِدِّيَّة؛ لأنني مقتنع بأنه شخص آخر تناول كمية كبيرة من الشراب تلك الليلة.

بعد ذلك بقليل، قمت بإجراء علاج ذاتي في البيت، مع تشغيل موسيقى لفريقي المفضَّل "بابليك إنيمي"، ومشاهدة بعض الأفلام الرومانسية الألمانية، التي تساعد على ممارسة العادة السرية، قبل أن أعط في النوم على الكنبه أمام التلفزيون المتوهج. كان ذلك ضعفاً لا بُدَّ منه، يستطيع من خلاله "جراند ماستر فلاش" والنهود الألمانية الممتلئة أن تمحو صورة وصوت اليوم السابق، بما في ذلك صوت "برانكو ستانيزيتش".



لمدة أربعة أيَّامٍ وخمس ليالٍ من شهر عسل "دوشا" في الجبل الأسود، اكتشفت أنني، في الشقة الهادئة الآمنة والخالية، لست وحيداً أكثر مما كنت عليه معها، وأنه لا يوجد شيء أسميه عائلة. فأبي لم يزل ميئاً، وأمِّي مُفتقدة، ووصلت لنتيجة أنه لا يوجد أحد يسألني، باهتمام حقيقي، كيف حالي، ما الذي يضايقني، وما مشاكلي.

تخرَّج زملائي في المدرسة الابتدائية، بمن فيهم "دانيال"، إلى مدارس التجارة، والنجارة، والبريد، وبرامج ثانوية مهنية أخرى، وكأنه ما بين يوم وليلة. بينما انتهى بي الأمر في مدرسة القواعد، بين وجوه شابة من مدن صغيرة مختلفة، حيثما يعيش معظم الأطفال السعداء من مختلف أنحاء العالم. أطفال لم يسمعو إطلاقاً بـ"أركان"، قائد مليشيا المتطوعين الصرب أثناء حروب يوغوسلافيا، أو أين تقع مدينة "فوكوفار" الملتهبة.

نظر إليّ هؤلاء الأطفال نظروا في رهبة؛ لأنني من أسوأ جزء في المدينة، ولأن اسمي "فلادان بوروجيفيتش"، ولأنهم ما كانوا ليفرقوا بيني وبين ضيوف زفاف "دوشا" و"دراجان". ليس هناك شيء مشترك بيني وبين هؤلاء الأطفال الذين قابلوا أصدقاء لا يُحصىون حتى قبل الدراسة. بالمقارنة بهم، يبدو أن زملائي السابقون لا ينتمون للجنس البشري. يرتدون الجواكيت المحشوة في البناطيل الواسعة، ويسمعون الموسيقى "التكنو"، والشعبية، وكانوا على استعداد ليتشاجروا مع أي شخص لا يؤمن بأن الطفل يجب أن يُعمد بموجب القانون.

مارس أطفال من الثانوية العليا التزلُّج في فرنسا، ولعبوا التنس، وزاروا عواصم أوروبا الوسطى، ومارسوا التزلُّج وجربوا البلياردو. هؤلاء كانوا أطيب وأمهر ويستمعون للأساتذة أثناء الدروس، ويخافون من أي اختبار شفوي غير مُعلن، ومن الغياب بلا عذر. هؤلاء الأطفال لا يهتمون مُطلقًا بالصرب، والكروات، والمسلمين، ومعظمهم لا يعرف الفرق بينهم. لا يسألون أحدًا عن اسم أبيه، ولا يتشاجرون حول مَنْ بدأ القتال في البوسنة. ليس لديهم أبناء أعمام جُنُدوا في الحرب، ولا أعمام تُركوا بلا ساقين، أو أجداد وجَدَّات تم نفيهم، ولا خالات قُتلن بالقذائف. أما جَدَّات هؤلاء الأطفال اشترين "سكوتر"، ووعدهم أعمامهم بالعمل في شركاتهم، وأعارهم أبناء الأعمام مذكرات المناهج.

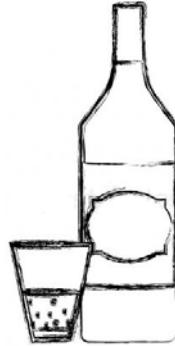
كان اكتساب صديق منهم أصعب من التواصل مع صديق من القدامى. بينما "دوشا" تستمتع بشهر العسل، لا أجد مَنْ يتَّصل بي أو أقبله بعد الدراسة. كنت معزولًا نوعًا ما عن العالم، محشورًا في شقَّتنا الصغيرة، أفكّر في وحدتي وأشعر بالأسف لحالي لمدة طويلة من الليل.

أنتظر بفارغ الصبر منتصف الليل، عندما تبدأ البرامج الإباحية، أُلهي نفسي بممارسة العادة السرية بغير حماس، وأنغمس في يأس رهيب بعد كل رعشة. قد يكون من المبالغ فيه إذا قلت إنني افتقدت أُمِّي، ولكن على نحو ما شعرت بالسعادة بوجودها، عندما عادت وأخذت مكانها في فضاءنا المشترك.

في تلك الفترة، قرّرت أن أهرب، على الرغم من أنني غير مُهيأ لهذه الخطوة، فلا خطة، ولا أعرف إلى أين، أو كيف. ولكن عند هذه النقطة تراءى أن هذا هو طريق المستقبل. عمري خمسة عشر عامًا، وأعتقد أنني كبير بما يكفي أن أهتم بنفسِي. وأعتقد أن كل ما أحصل عليه من أُمِّي هو ثمن الغداء. الفكرة الوحيدة التي سيطرت عليّ وأنا أعددُ أشياءي نحو المجهول هو العمل للحصول على قيمة الإيجار. إذًا عليّ أن أبدأ العمل فورًا.

هذه المشاعر اعترضت تقدمي إلى الأمام، ودفعت قراري للخروج والعيش في عالم البالغين، وبقواعدهم. كان هذا نوعًا من تمرد المراهقين، حيث لا يوجد مَنْ يوقفه. عندما كنت أضرب دماغي في الحائط، لم يفوقني أحد بصفتين، ويوضح لي أن فكرة الاستقلال بنفسِي فكرة مجنونة، وقد تجلب الدمار.

في قَمّة حالة الاستياء، ملمت أغراضي في حقيبة، كأني طالب سيذهب في رحلة بالمدرسة. ربما لم تأخذ "دوشا" قراري مأخذ الجدّيّة، وفكّرت في أنني سأعود بعدما أهدأ، ثم نتكلم في هدوء بعدها. أشك في أنها كانت ستجعلني أرحل لو اعتقدت لحظة أنني لن أعود. لكن "دوشا" لا تعرف ذلك، ولا أنا أعرف إلى أين سأذهب. كل ما أردته هو أن أبعد عنها، أبعد عن هذه الخائنة، أبعد عن كل شيء، ولا أدري إلى أين ستأخذني رحلتي الصبانية.



رَبَّيت لي "دوشا" لقاءً مع "بران ستانيزيتش" في شركته، في حي مُحاط بالأشجار في "ليوبليانا". استقبلني سكرتير على خلق، قدم لي بعض القهوة والعصير، وهو يبتسم لي كل بضع دقائق، ويخبرني معتذراً أن اجتماع المدير سيستمر أطول من المتوقع. أخذت أتَنقَل بعصبية من مقعد إلى آخر في غرفة ذات رخام رمادي لأكثر من ساعة، قبل أن يظهر أخيراً السيد "ستانيزيتش" ويدعوني، بغطرسة ودون اعتذار، لأتبعه إلى مكتبه. كان يبدو رسمياً كما في التلفزيون، أو ربما يمكن تمييزه بشكل أقل. تساءلت كم من شنابز "بلوم" يكفي لتحويل هذا البروقراطي العصبي إلى الإنسان الذي في ذاكرتي.

لم يلتفت إليّ مباشرة. بدلاً من ذلك، ظل يطَّلع على بعض الأوراق التي تنتظره على المكتب. توقَّفت عند باب المكتب، أترقبه، حتى أشار لي بيده، فجلست. ثم دفن نفسه في الأوراق مجدداً وتصفَّحها، كان يعود دائماً إلى

الورقة الأولى، ويقرأ مقاطع منفردة، ويقارن بينها ويفعل ما يفعله رجل بربطة عُنُق في مكتبه مع كومة من الأوراق. أثناء ذلك، تنامي بداخلي شعور بأن هذا الرجل ينحني إلى الوراء كي يريني أن هناك أشياء أكثر أهمية بالنسبة له في العالم من زيارتي. ولكن بعد ذلك، تكرّم عليّ وترك الأوراق لثانية والتفت إليّ:

- تكلم معي.

- أبحث عن أبي "نيدلكو بوروجيفيتش".

ثبْتُ أخيراً نظرتة المرتابة عليّ لفترة أطول، أحسستُ بأنها خطوة ناجحة.

- وصلت إليّ بعض المعلومات أنه قد يكون في سلوفينيا.

- أي معلومات؟

- عمو "دانيلو" أخبرني بأن آخر اتصال من "نيدلكو" كان من سلوفينيا،

وواحد من خطاباته ينمُّ عن ذلك.

- أوه، إذًا ما المطلوب منّي؟

- فكّرت "دوشا" أنك تستطيع مساعدتي في العثور عليه.

- حسناً يا "فلادان" اسمع.. دعني أخبرك بصراحة. في سلوفينيا لا نُخبئُ

الأشخاص المتهمين بجرائم حرب. هذا ببساطة. لا أحد يستطيع أن يقدم له

الدعم اللوجيستي والمالي الذي يحتاج إليه شخص متهم من قبل المحكمة

الدولية كي يعيش سنوات الاختباء بسهولة. هذا الدعم ينبغي أن يكون من

مؤسسة، لو تعرف ما أعني. القول إن "نيدلكو بوروجيفيتش" في سلوفينيا

يعني أنه يتلقى العون من قيادات سياسية محلية، أو على الأقل من جهات

أمنية محلية. أعتقد أنك أنت شخصياً ترى هذا غير منطقي.

مثل هذا الدعم المؤسسي في الأنظمة الأوروبية غير ممكن فعلياً، ما

بالك مع القوة المُشْتَتَّة، والتشريعات المنظمة بشكل جيد، وسلطات الرقابة الكفؤة، من الناحية العسكرية والأمنية. بجانب ذلك... يا "فلادان"، صدقتي أنه ليس من مصلحة أحد، ولا سيما القادة السياسيين المُعاصرين، أقصد فعلاً، ليس من مصلحة أحد أن يُخبئ مجرم حرب.

عاد ينظر في الأوراق. بالنسبة له، انتهى لقاؤنا تقريباً.

- إذا كان هذا كل ما تريده فأخشى أننا انتهينا. كما ترى، لسوء الحظ، لا أستطيع مساعدتك في العثور على "نيدلكو".

- لقد أرسلت إلى "دوشا" هذه الرسائل، أليس كذلك؟

- لا أستطيع مساعدتك، صدقتي، لو كان بإمكانني لفعلت. من أجل "دوشا".

- يمكنك على الأقل أن تخبرني بمن أرسل لك خطابات "نيدلكو" من البوسنة.

- "فلادان"، أتمنى ألا تعتقد أنني على اتصال برجل اتهمته محكمة العدل

الدولية في "لاهاي" في أي وقت. هذه اتهامات خطيرة. أتعرف ذلك؟

- في خطابه يشير "نيدلكو" إلى رجل يدعى ج، الذي أحضر رسائله إلى

سوفينيا. إنه على اتصال بهنا. أرى أنك الرجل المناسب.

ساد الصمت في المكان، ولكنه صمت يختلف عن الذي كان منذ دقائق. أفاق

"بران ستانيزيتش" فجأة من غيبوبة البيروقراطية، والجو المليء بالتوتر.

- كيف حال العمل يا "فلادان"؟ أما زلت تعمل في صيانة الماكينات؟

- نعم.

- هل أنت راضٍ عنها؟

- نعم.

- ما زلت أعتقد أنك ينبغي أن تنهي دراستك بأسرع ما يمكن. ولكن... أهم شيء

أنك تعمل بشكل جيد، وأنت سعيد. لك صديقة، أليس كذلك؟ "نادية"؟

لقد مرّ زمن منذ أن سألتني "دوشا" آخر مرّة عن لقمة عيشي، وأشك أنها تعرف شيئاً عن رغبتني المتأخّرة في الحصول على تعليم جامعي. وأنا على يقين بأنني لم أخبرها باسم صديقتي. وهذا يدل على أن السيد "ستانيزيتش" يعرف عنّي أكثر مما ينبغي، وأنه إذا أراد تخويفي بهذا الأسلوب، فهذا عمل جيد. نظر كل منا إلى الآخر، وحاولت أن أخفي الخوف المتنامي بداخلي، وأرسلت في المقابل نظرة تهديد واحتقار. ولكن "بران" أعطاني ابتسامة ودودة. لقد هزمني في لعبته، وأصر على أن يريني أنه على وعي بأنه فعل ذلك.

- انظر يا "فلادان"، أعلم أنك تريد العثور على أبيك، وأنه من الصعب قبول حقيقة أنه مطلوب في جرائم حرب. أتفهم كل ذلك. ولكن هذا لن يُجدي. إذا سألتني، سأجيبك بما أعتقد. إنك ستجد "نيدلكو" عندما يريدك هو أن تراه. ليس قبل ذلك. أفهمت؟

- وما الذي يجب أن أفعله في غضون ذلك في اعتقادك؟ أحمّد في الهواء؟
- لا أعرف يا "فلادان"، فعلاً لا أعرف. حاول أن تعيش حياة طبيعية. هذا كل ما أستطيع أن أقوله.

لم أستطع تخيل ما يعنيه ذلك، أن أجد "نيدلكو" عندما يريدني هو أن أراه، وأعرف ما الحياة الطبيعية. كل ما عرفته أن "بران" سكة مسدودة، وأني عدتُ إلى نقطة الصفر. لذلك انتابني هذا الشعور، طوال قيادتي للسيارة، بأنني أسير في الاتجاه الخطأ، وكلما اقتربت من غايتي، أشعر بأنني أريد العودة مرّة أخرى. ولكنني أصبحت حائرًا في كيفية مداومة البحث عن أبي الهارب، ولا أريد أن أدير ظهري لكل ما ينتظرنني في البيت، من دون خطة. لذلك دخلت الشقة في ذلك اليوم كمهزوم، يبتعد عن مشهد

المعركة الخاسرة، خاويًا وتعيسًا. الأمر كان أكبر من مجرد إحباط، تقبّلته "نادية" كما يتقبّل الناس أي خبر غير سار من شركائهم. عودتي إلى المنزل هذه المرّة هو استسلام إجباري، لا أتقبّله. قرأت نظرتها في عينيّ هزيمة أخرى مؤلمة، وكانت تحمل أيضًا بوحًا، بوحًا بأن في انتظارنا أيّام عصبية.



من يدري كم عشت فيما يُسمّى بالحياة الطبيعية، مُدرّكًا أن الأيام تجري لأن الأربعاء يأتي بعد الثلاثاء، ثم يأتي الخميس بعد الأربعاء. عدت للعمل في صيانة ماكينات بيع القهوة، تناولت الغداء في منطقة "ستيجن" الصناعية، قضيت الوقت بين حاويات التخزين. اتصلت بـ"نادية" بعد العمل وسألتها إذا كانت تريد شيئًا من المتجر، وذهبت إلى السوبر ماركت عبر الشارع، وابتسمت للبائعات اللاتي يعرفن أنني سأشتري رغيفًا مدورًا وخبرًا أبيض وحليبًا خالي الدسم، قائمة المشتريات التي يعتقدن أنها تخبر بكل شيء عنيّ، وربما فعلت. وبدأت أذهب إلى الكلية مرّة أخرى، وأستمع إلى المحاضرة بلا هدف كما كان من قبل. كنت أشرب بعض البيرة بين الحين والآخر مع زملائي الجُدُد والقدامى، الذين كانوا يستعدون لامتحانات وتبادل الملاحظات. ولكن الأوقات القصيرة مرّت سريعًا مع الأيام التي كافحت لأستمر فيها، أنتظر شيئًا ما أو شخصًا ما، ولكن لا شيء يتغير، كل شيء كما هو. الأربعاء كالثلاثاء، والثلاثاء كالإثنين.

انتظرت "نادية" بصر حتى تبدأ أيامي في الحركة مرّة أخرى، ويعالج النسيان مخاوفي المتزايدة. لم أرد أن أذكرها بتلك الأيام، فلم تكن ذات فائدة، انهزمت في معركتها مع الذكريات. كنت أستيقظ فقط لأعرف أن

اليوم يشبهه البارحة، وأحس بأن "بيل موري" ربما مات، في ذلك الفيلم الذي انحسر فيه ذات يوم ولم يخرج.

توقَّع "بران ستانيزيتش" أن أعيش شبه حياة طبيعية، وربما تخيَّل أنني أدفن أبي الحي مرَّةً أخرى، وهذا ما لم أستطع فعله، على الرغم من أنني تمَّيَّنت ذلك أحيانًا. لم أستطع إقناع نفسي بأنني لن أراه أبدًا، أن أقتل أملي وأنا واعٍ، الأمر الذي أرفضه وأحتقره، ولكن لا أستطيع إنكاره. تقبَّلت فكرة أن جزءًا مِنِّي يريد أن يرى أبي، فطلعتُ أتطلع للقاء في وقت ما، وفي مكان ما. في الوقت المناسب، سمحت لنفسي بهذا الضعف البسيط، وتقبَّلته لأنه مِنِّي، وعللت لنفسي أنه مجرد طفل بداخلي، يتمنَّى أن يمسكه أبوه من يده، ويذهب به ليرى "ماكي" في سوق "باولا".

من اليأس، لجأت إلى الكمبيوتر مرارًا وتكرارًا، وكتبت اسم "نيدلكو بوروجيفيتش" و"توميسلاف زدرافكوفيتش" على "جوجل" مرَّات لا تحصى. فأقرأ الأخبار نفسها عن الاسم. بدأت أبحث بشكل هاجسي عن أي أخبار جديدة. لذلك وضعت الأفعال في البحث: "أعطى نيدلكو"، "رأيت نيدلكو"، "أتحدث مع نيدلكو بوروجيفيتش". كتبت اقتراحًا بعد الآخر ظنًّا مِنِّي أن هذا سيفيد. بدأت أتصفح بحثًا عن معلومات عن "بران ستانيزيتش" أيضًا و"أمير موزيروفيتش" وحتى "دانيلو رادوفيتش". كنت أقضي أحيانًا الليل كله أمام الكمبيوتر أبحث في "جوجل". الأسماء نفسها، الاقتراحات نفسها، مرَّةً بعد المرَّة: "أعطي الجنرال بوروجيفيتش"، "أرى الجنرال بوروجيفيتش"، "أتحدث مع الجنرال بوروجيفيتش"، الصفحات نفسها بالترتيب نفسه، مرَّات ومرَّات. بحثت عن الضرب في مناطق مختلفة، وفي كل منطقة على حدِّة. من أفغانستان إلى زيمبابوي، لم

أفوت أي بلد. كان هذا إدماناً، وهوساً أخافني، ولكن لم أستطع أن أتوقف. واصلت في كل محركات البحث: "أعطي الجنرال بوروجيفيتش"، "أرى الجنرال بوروجيفيتش"، "أتحدث مع الجنرال بوروجيفيتش".

استطعت في بعض الأحيان خلال النهار ألا أفكر فيه لوقت طويل، كانت هذه البلاهة تبدو جيدة، ولكنني مدرك أن ذلك مجرد خدر عاطفي، وستعود الذاكرة، مع الأفكار والمشاعر. كانت هناك لحظات أفقد فيها الأمل، وأخاف ألا أستطيع الخروج من هذا الفراغ، وهناك لحظات أتساءل كم من الطاقة استهلكتها، وكم من أيام غامضة استيقظت عليها. هناك لحظات فكرت فيها في كل شيء، بما فيها ما لم أملكه. خلال ذلك الوقت، بدأت أشعر أن "نادية" بدأت تخاف من أن الصمت، الذي انتشر بيننا في تلك الأيام العادية، يبتلعنا في النهاية. خافت أن نظل صامتين إلى الأبد وأن كل شيء لنا في نهاية المطاف سيصبح أبكم.

حاولت أن تتكلم معي، ولكن كان يتضح أنها تحاول أن تقتل صمتي بكلماتها، وغالباً كانت تفشل. أصبحت محادثاتنا نادرة، وتزيد من إحباط "نادية" إذ حاولت أن تملأ الفراغ الذي بيننا. كانت تشغل التلفزيون، وتشغل الموسيقى، وتعمل أي شيء يحدث صوتاً، بداية من وضعها للملابس في الدولاب انتهاءً بغسل الأطباق، كانت تفتح النوافذ على آخرها في عز الشتاء، لتجلب أصوات المدينة الباردة إلى داخل الشقة. ولكن حتى الضوضاء التي تصم الآذان بسبب مرور "ليوبليانا" الذي يعجُّ بالحركة لم يقدر أن يسكت كلماتي غير المنطوقة.

شعرت نحوها بالأسف، بل وبالضيق، حيث تصر على محاولاتها اليائسة. وكم شعرت بالأسف لما رأيتهما تخفي قلقها عني. أحسست أنها

استسلمت ولحقت بي في شرود الذهن أكثر من أي وقت مضى. كنت مؤمناً بأنها فقدت إحساسها بالزمن أيضاً، وأن أيامها صارت واحدة. غير أن "نادية" لا تستحق هذا، فلم يكن هذا قدرها، بل قدرتي أنا. ليس من حقي أن أشاركها فيه، حتى إنني فكّرت أنه ينبغي أن أستجمع قوتي وأبعدها عني. ولكنني أناني جداً، وفي الوقت نفسه أنا في هذه الأثنية أضعف من أن أبعد صديقي المقاتل الوحيد بعيداً عني. بدلاً من ذلك، استنزفتني الخوف من رحيلها، وأخذ الخوف ينمو كل يوم، حتى أصبح بارانويا خاصة بي. وسرعان ما أصبحت لا أجرؤ على فتح باب شقّتنا عندما أعود إلى البيت، مرعوباً من أن العزلة الموحشة التي أعرفها جيّداً تعود مرّة أخرى.





بدا الأمر يزداد صعوبة بمرور السنين على رئيس الشرطة السابق "دوشان بودلجار". صار من الصعب عليه أن يخفي تلك الومضات الخفيفة من أمارات فرحه عند زيارتي النادرة له. وأحياناً، كان يبدو جداً بالفعل. ولكنه بدأ، لإصابته بالسُّكَّري والقلب، يُعاني سرطان المعدة، وبعدها تركت البيت مُحْتَجًّا، لم أجد إلا إياه ملازمًا للفراش يرحب بي. و"ماريا" أيضاً، مع وجود زوج يحتضر، ليس لديها أدنى رغبة في توفير مأوى لمراهق هارب.

لا تحب السيدة "بودلجار" الزيارات غير المعلنة، فعندما فتحت الباب لي، أوشكت أن تغلقه بأقصى سرعة، معتقدة أنني ساعي بريد أو بائع من

الباب إلى الباب. لم تستطع نظرتها المندهشة أن تخفي حقيقة أنها تفضل رؤية غريب، أو حتى عرافة غجرية على رؤية حفيدها وفي يديه حقيبتان وعلى ظهره ثالثة. يبدو أنني أنا و"دوشا" فقط نذكر "ماريا" بذنوبها، ومن يدرى ربما كانت ستصديني بعيداً، لو أن نظرتها المندهشة لم تستغرق وقتاً طويلاً لدرجة أنها أثارت فضول المتطفل العجوز. قطع الصمت المربك بيننا وصاح من على سريره:

- مَنْ هذا يا "ماريا"؟ مَنْ هذا؟

لذلك لم تجد "ماريا" خياراً غير أنها تسمح لي بالدخول، وهي تصيح على الأقل ثلاث مرّات حتى السقف بأن "فلادان" هنا. قبل أن تختفي في مكان ما في المنزل، أخبرتني بقواعد المنزل بسرعة:

- "دوشان" في الدور العلوي. اذهب سلّم عليه، إنها لا تضايقه طويلاً، لأنه

ضعيف.

سعدت إلى الأعلى ووجدت جدّي بالكاد يمكن التعرف إليه. في خلال الأشهر الثلاثة منذ أن رأيتَه آخر مرّة، وهن كالوردة الذابلة. سحب المرض منه الحدّة والسُّخْرية والغضب، وكذلك الحياة. والآن يرقد أمامي على فراش الموت تقريباً كالرجل العجوز الحلو الحنون. نظرت إليّ عيناها بامتنان صادق، وامتدت يده بصعوبة لتلمسني، همس:

- "فلادان"...

بدا سعيداً لأنني جالس بجواره، ليس لديه قوة ليتكلم كثيراً، ولكن عندما حاولت أن أنهض، اعتصر يدي بقدر ما هزّ رأسه. لذلك جلست بجواره لمدة ساعتين تقريباً، قبل أن يغلبه النُّعاس وأستطيع الذهاب إلى الحِمّام، مستمعاً لنصيحة "ماريا" بأن "دوشان" يجب أن يستريح كثيراً،

وقد فسرت ذلك لاحقًا بأنها غيرة من فرحته بوجودي. بمجرد أن استيقظ "دوشان"، دعاني إليه، فجلست على طرف السرير حتى المساء. وفي لحظة ما، بدأت أخبره عن زواج "دوشا"، وعن "دراجان"، وعن حملها وأنني لا أرغب في العودة إلى "ليوبليانا". أخبرته بكل شيء، وهو يستمع، ناظرًا إليَّ بعطف، وأخيرًا أمسك بيدي وهمس:

- ابقي هنا، ابقي هنا.

وما إن قال ذلك حتى دخلت "ماريا" الغرفة وأحضرت له الطعام والأدوية، فاضطرت أن أتحنّى جانبًا. لذا لم أرها وهي تغير له الحفاضة، وتمسح مؤخرته. ولكن استطعت أن أسمع من خلف الباب المغلق كيف لخص لها "دوشان" قصتي كلها في جُمْل قليلة. من أجلها، قام بتعديل أي حقيقة ليست في صالحه، وأخبرها بأنني سأعيش معهما، ثم أمرها بأن تعد السرير الذي في غرفة "دوشا" لي. عندما نام "دوشان" بعد ذلك مباشرة، أخبرتني "ماريا" بشكل رسمي أن سريري جاهز، وأنها أعلمت "دوشا" بأنني هناك. وأضافت بأنه ينبغي أن أذهب إلى المتجر غدًا كي أشتري ما أودُّ من طعام، فهي لا تعرف ماذا يأكل الشباب.



وهكذا قضيت الأيام القليلة الأخيرة من حياة "دوشان بودلجار"، جالسًا بجواره، ممسكًا بيده، ومستمتعًا بقليل من الحب من نظراته المتعبّة. كان يضعف أمام عينيّ ويجد صعوبة أكثر في الحديث يوميًا، إلى أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة، وصرنا نتواصل باللمس فقط. في مقابل أن أظل بجانبه، أخبرته بكل شيء عن "باولا"، وعن أصدقائي هناك، وعن

شاطئ "جولدن روكس" والصخور المرتفعة التي كُنَّا نقفز من عليها في البحر، وعن الساحة والألعاب النارية هناك، ومدرستي الابتدائية وزميلتي "ميرانا" وأنها أول حب (والذي تسبب في أن أكرس نظَّارتها)، وعن "ماي"، و"هيمنان" للعب البلاستيكية، ووحوض السفن، والسفن الضخمة التي كانت تدشن هناك، وعن ثكنات "نيدلكو"، وعن القس المجنون الذي جرى وراءنا بعيداً عن ملعب الكنيسة الذي اعتدنا أن نلعب فيه كُرة القدم، وعن جارتنا "إنيسا" التي اعتادت أن تدعوني بطفلها الصغير. حتى إنني صدقت، لمدة طويلة، بأنها ولدتني بدلاً من أمِّي. أخبرته عن "أمير موزيروفيتش" الملقب بـ"لوزا"، وعن "دوشا"، و"نيدلكو"، ورحلاتنا على الساحل وأفضل بيتزا في المدينة. كل يوم كنت أحكي له عن أحداث من طفولتي، ولكن لم أمتلك الشجاعة لأحكي له عن أوقات أخرى أقل سعادة. فلذلك كانت قصصي تنتهي دائماً قبل "الانتقال" وعربة "شيكليكم".

ذات يوم، توقَّف "دوشان" عن الإيماء وهو يستمع. وفي اليوم التالي، توقَّف عن الابتسام، في الثالث لم يعد قادراً على الإمساك بيدي، وفي اليوم الرابع مات، دون أن يرفع عينيه عني ولا حتى عندما كانت "ماريا" في الغرفة. كنت على يقين من أنها كانت أكثر تألماً لارتباط "دوشان" الأخير بي قبل موته.



بعد موت "دوشان"، تحدثت "دوشا" مرَّات عدَّة مع "ماريا" عبر التليفون، ولكنها لم تحضر إلى البيت ولا الجنازة. بررت "ماريا" غيابها

للناس بكلمات سخيفة، عن كيف أن ابنتها لا تحتلم المقابر، وأنها تتعب أثناء الجنازات. يذكرني هذا بالقص الطويلة التي حكاها "دوشان" للناس عن سفر "دوشا" للدراسة في "ليوبليانا". عندما أسمع السيدة "ماريا" تحكي قصتها مراراً وتكراراً، أتساءل متى وجد الناس الحاجة إلى بث صورة الأسرة المثالية، وهل الأسر الفعلية العملية موجودة، أم هو تظاهر فقط، كما تتظاهر "دوشا" و"ماريا"؟

بالإضافة لنا، حضر الجنازة عدد قليل من الجيران، الذين جاؤوا من منطلق واجب القرية، وقليل من أصدقاء "دوشان"، الذين كانوا يعدون الناجين الباقين، وابنة ابن عمّ "ماريا"، "ليديا"، إلى جانب عمّال المقبرة. كانت جنازة متواضعة، دون تأبين، ولا تراتيل، ولا أي شكلية أخرى. بعد وضع الجرة في المحراب، رشمت "ماريا" الصليب، وأوقدت سيدة شمعة، ووقفنا بجوار المقبرة قليلاً في صمت حزين، ثم انصرفنا كل في طريق. تساقطت حبات الثلج الخفيفة طوال اليوم، وهبّت الرياح الباردة. كان الجو كثيباً، كما يليق بجنازة.

أعادتنا "ليديا" أنا و"ماريا" إلى المنزل، حيث تناولنا الفول المسخن وشوربة الشعير، ثم ذهب كل منّا إلى غرفته. رنّ التليفون بعد الظهر، ووصفت "ماريا" الجنازة لـ"دوشا" باختصار. جاءتني في المساء لترايني وتخبرني بأنه من المناسب أن أعود إلى أمي لأنها تفتقدني. طلبت منها أن أبقى معها يومين، ووعدتها بأنني سأعود إلى البيت مرّات عديدة، حتى وافقت "ماريا" على مضم.



بعد يومين من جنازة "دوشان بودلجار"، غادرت منزل جدِّي بعد وداع سريع، كأنني ذاهب إلى المتجر، لامرأة لم تستطع أن تكون جدَّة لحفيدها. لكنني لم أعد إلى شقَّتنا. بدلاً من ذلك، ذهبت إلى غرفة صغيرة في دور أرضي في أطراف "ليوبليانا"، ربما تشبه التي آوت "دوشا" من سنوات عدَّة مضت. سحبت كل المال الموجود في دفتر التوفير، وبعض الدولارات التي وضعتها "ماريا" في يدي عندما رحلت. دفعت إيجار أول شهر. أوضحت لصاحب العقار الذي أراني السكن دون إسهاب، أنني طالب من خارج المدينة، أدرس القانون الروماني، ولا أريد أن أكون في سكن الطلبة؛ لأنه يخلو من الهدوء. وأكدت له أنني لن أسبب له أي مشاكل، ولكنه رمى مفتاح الغرفة في يدي وقال إنه لا يهتم بما أقرؤه هنا، ولكنه سيرسلني إلى المكان المهجور الذي جئت منه ثاني يوم تأخير للإيجار.

وهكذا في الخامسة عشرة، وجدت نفسي أرقد في غرفة طلبة باردة، شاعرًا بأن الحياة حرقت جُثَّتِي، وبعثرتني في الريح، ونثرتني في الكون. لم أستطع أن أرى لي عُشًّا في أي مكان، ولا أرضًا أستقر عليها، أنقبها، وأخترق أعماقها ببطء. كنت وحيدًا في قارَّتِي الصغيرة، التي انفصلت بلا رجعة من الكبيرة، ولم أعرف كيف ولماذا صرت هناك. لقد فصلتني مسافات لا يمكن اجتيازها عن باقي العالم. لهم أسماؤهم، وبيوتهم، وعائلاتهم، ومساكنهم الروحية، التي عرفتهم وحددتهم. كانوا من مكان ما، كانوا شخصًا ما، كلهم ينتمون إلى شيء ما أو شخص ما. لقد عرفوا كل شيء يريدون أن يعرفوه عن أنفسهم. أما أنا فما عدتُ أعرف أي شيء عن نفسي.

لم أشرك أحدًا في قصّتي، وهذا جعلها أكثر شؤمًا من الصفعات واللعنات التي جلبتها عليّ. القسوة في موقفي جعلتني أقبل حقيقة أن أبي مات، ولا أمل في رجوعه المعجزة. ربما كان قبولًا غير منطقي، ولكنه يتماشى مع إدراكي الوحيد لنفسي التي نبذتها. كانت هويّتي هي الضحية، ضحية كل شيء وكل شخص. كنت أنا ضحية لسلسلة ظالمة من الأحداث، سحبتي بقوة من ملعب الأطفال، في عزّ مباراة بريئة مع الأطفال، إلى مكان معزول وبارد ومظلم، انفصل عن العالم للأبد.



في اليوم التالي، عدتُ أخيرًا إلى المدرسة، كنت غائبًا رسميًا، وكانت "دوشا" و"دراجان" قد بحثا عنيّ في كل مكان في "ليوبليانا". إلى أن وجداني على مكتبي في المدرسة. اقتحمت "دوشا" المسكينة الفصل من الفرحة بوجودي على قيد الحياة وبخير، وأخذت تحضنني وتقبّلني بشكل هستيري، حتى إن زملائي، لسنوات عديدة تالية، صدقوا أن أمّي كانت ستجن. في تلك الأثناء، وقف "دراجان" لدى الباب، يرميني بنظراته شذرًا، ويخبرني بأن صداقتنا انتهت بلا رجعة، وأنه لن يسامحني أبدًا لترويع زوجته الحامل لدرجة مميتة، وأنه لن يحاول أن يتفهم ما الذي دفعني لحماقة المراهقين تلك.

جلسنا في المساء أمام التلفزيون، في شقّتنا الصغيرة، التي نصف أثاثها من والدي "دراجان". استمع ثلاثتنا إلى الأخبار؛ "رؤساء البلقان"، كما أشار "دراجان"، سيجتمعون في المدينة الأمريكية "دايتون" لإنهاء الحرب في البوسنة. لم يكن أي منّا في حالة مزاجية تجعله يشعر بالسرور لسماع

تلك الأبناء، مع أنها موضع ترحيب؛ لأنها ستصرفنا عن الحديث في مواضيع في غاية الأهمية بالنسبة لنا. حاولت "دوشا" أن تبدأ الحديث أكثر من مرة، ويسرع "دراجان" - كأنه قد قرّر ذلك من فترة - بإخفاص صوت التلفزيون، ولكن يقاطعها تعليق مثير أو مراسل يعلن عن خبر تاريخي.

أثناء جلوسي مع "شيرتيش"، تملّكني شعور غير مسبوق بأن حياتي أوشكت أن تنتهي، مثل الحرب في البوسنة. كل شيء كان مقلوبًا رأسًا على عقب. فليس لي أب، ولا أم، ولا جدّة، ولا أصدقاء، على الرغم من أن لديّ كل ذلك نظريًا، نظريًا فقط. في الواقع، لم يكن لي أحد. لذا جلست مُحدّثًا في التلفزيون، متمنيًا ألا تنتهي الأخبار أبدًا. عند نقطة معينة، انفجرت، انطلاقًا من اليأس والإحباط، بأنني أريد أن أعيش بمفردي، وأنني أرى أن هذا أفضل حل لنا جميعًا.

رما كانت تتوقّع "دوشا" هذا الاقتراح وأعدت له نفسها مقدمًا، لأنها بلا أي جدل وافقت أن تدفع هي و"دراجان" الإيجار. كانت الشروط أن أعيش بتواضع، وأجتهد في المدرسة وما إلى ذلك. على أي حال، أصرّ "دراجان" على أنه إذا أردت العيش وحدي، فلا بدّ أن أعمل، لم أجرؤ على الرفض، رما لاعتقادي أن "دراجان" ليس جادًا في ذلك.

في اليوم التاريخي، عندما أنهى كل من "سلوبودان ميلوشيفيتش" و"فرانيو توهان" و"علي عزت بيجوفيتش" الحرب في البلقان بلا مبالاة، ووقّعوا ثلاث مذكرات من أجل معجبيهم الأمريكيان، وقّعنا نحن الثلاثة اتفاقيةتنا للسلام، ودفنّا الأحماد. وجدنا أنفسنا نجلس في الظلام لا نعرف ماذا نفعل، لذلك عندما شغل "دراجان" التلفزيون، واتجه انتباهنا لمدينة "دايتون"، شعرنا بارتياح.



عُدْتُ في اليوم التالي إلى غرفتي، وبعد أيّام عديدة، وجد "دراجان" لي عملاً مؤقتاً؛ مراقب مرور. أخذت أحصي الناس السعداء الذين كانوا يتحوّلون من طريق إلى آخر في سياراتهم، بينما أنا مربوط في مكان واحد. وجد لي "دراجان" بعض الأعمال الأخرى، ثم بدأت أبحث بنفسني، مما أدّى إلى تجميد علاقتنا. على النقيض منه، لم تجد "دوشا" لي، طوال كل هذه المدة، عملاً واحداً، ولو ليوم، وعلى يقين أنها لم تحاول. فهمت ذلك على أنه نوع من هدايا الوداع الغريبة منها، وهذا ما تلقّيته منها كعناية وعاطفة أمومة منذ اتفاقية "دايتون". وحتى هذا ربما كان آخر خطوة في المشوار.





لم أَعُدْ إلى مقبرة "دوشان بودلجار" منذ الجنازة مُطْلَقًا. أولًا كي أتجنَّب مقابلة "ماريا" هناك. ثم بعد ذلك أعتقد أنني لم أذهب لأنني لا أعرف ماذا عساي أن أفعل هناك. لم يدفن أحد من أهلنا في "باولا"، وبالتالي لم نذهب إلى المدافن هناك إطلاقًا، على الرغم من أنه من المعتاد الذهاب باستمرار. ما أعرفه أن الناس يضيئون الشموع ويضعون الزهور عند مقابر أعزائهم، ولكن لا أعتقد أن "دوشان" رجل شموع أو زهور. وعلى أي حال، كان عضوًا في الحزب الشيوعي لسنوات عديدة. لو أنني فكَّرت في الأمر، ربما لم أذهب إلى مقبرة "دوشان" لأنني لم أعرفه جيدًا، وأشعر بالذنب لأنني تجاهلت طلباته المتكررة لزيارته كثيرًا. كنت أشعر دائمًا أنه يدعوني لزيارته لأنه يعتقد أنه يجب أن يفعل كذلك. ولكن في تلك الأيام قبل رحيله، أحسستُ فعلًا أنه يريدُ صحبتي. لذلك شعرت بالذنب. وأحسست بالذنب أيضًا، لأنه حتى وفاته، رأيت فيه الرجل

بنظرتة الصارمة المهيبية، التي ارتسمها فيّ وفي "دوشا" عندما طرقتنا بابه في المرّة الأولى. كنت أعلم أنني سأقف أمام مقبرته، دون أن أدري لماذا جئت. ولكن أعرف أيضًا أنني لم أستطع البقاء في البيت أُعذّب "نادية" بصمتي. لذلك ركبت سيارتي وانطلقت. سألتني "نادية" إلى أين ذاهب، ولكنني تجاهلتها، بالضبط كما تجاهلت كثيرًا من أسئلتها في الآونة الأخيرة، حتى أصبحت ثقل شيئًا فشيئًا. واصلت السير حتى وصلت المقابر، لأنني شعرت بأنني لا أستطيع السير بجانبها.

لم يكن هناك شموع بجوار المقبرة، ولكن كانت هناك زهور يانعة، وهذا يدل على أن "ماريا" تزوره باستمرار. لم أرها منذ مدة طويلة. حقيقة لم أرها منذ وفاة "دوشان" غير مرّة واحدة، عندما زُرتها في المستشفى منذ سنوات عديدة. كانت هناك تتابع عملية في الحلق، وفي انتظار العلاج الكيميائي. أتذكّر أنني لم أشعر بالأسف لهذه المرأة الساكنة التي لا تتكلم، ولاحظت عينيها تحوم في غرفة المستشفى، وأحسست أنني لن أشعر بالأسف لها حتى لو ماتت. لم أستطع أن أسامحها عندما طلبت مِنِّي، في ذلك الوقت، أن أذهب إلى أُمِّي، أعلم أنها لم تفعل ذلك تعاطفًا مع "دوشا"، ولكنها لم تردني أن أعيش معها. أتذكّر ذلك في الغرفة الخائفة في المركز الطبي. فكّرت في عدم جدوى زيارتي لها، إنها لم تردني أن أكون حفيدًا لها، ولم أشأ أن تكون جدتي، فلا معنى لهذه اللعبة التي نلعبها. لذلك نهضت وخرجت دون أن أتكلم.

بعد فترة، اتصلت بي مرّة لتهنئني بعيد ميلادي. زعمت أن "دوشا" ذكرتها. ثم شكّت بأنها ليست على ما يُرام، وتكلمت عن صحّتها، عن التجلُّط والشرابين. أتذكّر أنها كانت كالسيدة العجوز الوحيدة التي تتمنى أي شخص

يُواسيها بالكلمة، لكنها لم تجد فيّ هذا الشخص، وبعد ذلك لم تتّصل بي مجددًا. وبالتالي توقّفت "دوشا" عن سؤالي عنها. كنت أعلم أنها ستخبرني لو أن "ماريا" ماتت، وبالتالي تبيّنت من أنها ما زالت على قيد الحياة.

شعرتُ بالغباء لأنني وقفت أمام المقبرة طاويًا ذراعيّ، كأنني في جنازة. تصورت أن الرُّؤار العاديين قد يفكرون في موتاهم فقط، يتواصلون معهم قليلًا ثم يعودون إلى ذكرياتهم. ولكن أفكارني شردت نحو "ماريا"، بدلًا من "دوشان". فكّرت في كم يكون عُمرها الآن، وخطر في بالي أنها قد تكون في دار مُسنّين. من السهل أن أتذكّر وجهها، مُترهلّ من المرارة الشديدة، تشكو في صمت من كل شيء. رأيت كيف أن عمال العناية اللطاف حاولوا أن يلاطفوها، لكن بلا جدوى، وكيف فشلت محاولاتهم في أن يجعلوها تندمج مع التّزلاء الآخرين. ثم فكّرت بعد ذلك في البيت الخالي، وفجأة تساءلت إذا كان فعلاً خاليًا.



عند مغادرتي المقبرة، كنت عازمًا على أنني سأمرُّ مرورًا عابرًا، مجرد أن ألقى نظرة من بعيد وأستمر عائدًا إلى "ليوبليانا". لم أرد أن تقلق عليّ "نادية". ولكن من الشارع لم أتمكن من معرفة ما يجري في سكن "بودلجار"، وبعد المنزل بأمتار عديدة، توقّفت سيارتي من نفسها. فنزلت منها ورجعت مشيًا، متأكدًا من أن البيت كان خاليًا. لذلك لم أدقّ الجرس أو أطرق الباب، وقرّرت أن أنظر من خلال النافذة، على الرغم من أنني بالكاد أرى أي شيء من خلاله. ثم أفزعني صوت فتح الباب.

ما زالت "ماريا" تبدو كما هي، رغم أنها صارت امرأة ضئيلة في الحجم الآن. أجهدت عينها لتتعرف إلى الزائر، لم تحدث نفسها عن ارتداء نظارة، لا سيما الآن، إذ إنها تلمس ما يحيط بها كي تحدد مكانها، يبدو أن بصرها يخونها. لذلك، فقد أكون بالنسبة لها مجرد ظل، أو أكون أي شخص.

- إنه أنا، "فلادان".

- مَنْ؟

- "فلادان"، حفيدك.

تهادت "ماريا" نحوي بخُطى غير آمنة، وهي تتسند إلى الحائط. عندما اقتربت مِنِّي مدت يدها لتحسسني. شدَّتني من معصمي وجذبتني إليها. ثم مشينا معًا نحو الباب الأمامي. عندما خطونا على عتبة الباب، اتَّكأت إليَّ لأساعدها. أسندت يديها إليَّ وجعلتني أساعدها حتى الصالة، ثم إلى المطبخ، وأجلستها على كرسي. وتركتني:

- يمكنك تناول بعض العصير من الثلاجة.

- شكرًا.

كانت تنبعث رائحة كريهة من أرجاء المنزل، وكل شيء عليه طبقة مرئية من القذارة. مررت إصبعي على رفِّ نافذة المطبخ بسرور لا يمكن تفسيره، ونظرت إلى الغبار الأسود الذي تجمَّع على طرف إصبعي. وقلت في نفسي هذا عقاب عادل لامرأة كانت مهووسة بالنظافة والنظام طول حياتها، نحلة إذا وقع في يدها شيء غير منظم، ولكن، في النهاية، كان غير مُجدِّ أن تعترف بعجزها، أو كانت بخيلة جدًّا لدرجة أنها لا تدفع تكاليف نظافة المنزل.

- أخبرت "دوشا" بكل شيء أعرفه.

- ماذا؟

- عن خطابات "نيدلكو".

من حُسن الحظِّ أن "ماريا" لم تلاحظ وجهي المُرتبك؛ لأنني كنت أحاول جاهدًا أن أُصدِّق ما سمعته للتوّ. بعد لقائنا، حاولت "دوشا" أن تعرف مزيدًا عن خطابات "نيدلكو" التي لم أستطع أن أعرف مصدرها، كانت تتحدّث عن "دوشا" ثانية لم أعرفها لمدة طويلة. لو أنها مهتمة بالخطابات، لفعلت ذلك من فترة. لذلك لا أتخيّل لماذا تسأل "ماريا" عنها الآن.

حقيقة أن "دوشا" سألت يعني أن "ماريا" كانت تتوقَّعني، وهذا وضعني في وضع حرج. كنت ناكر الجميل الذي يزور بعد سنوات عديدة، ويريد أن يشتري بعضًا من ذكرياتها بثمان رخيص، بينما هي لم تنزل تمتلكها. أصبحت زيارتي المفاجئة تبدو هكذا، ولم تعد زيارة حقيقية. وبالتالي أصبحت محاولاتي لإقناع السيدة "ماريا" بغير ذلك لا جدوى منها. دون تضييع وقت، وبطريقة مباشرة، جعلتني أعرف أنها تقبّلت هذه اللعبة الشرسة. وكانت مُستعدّة للاستجواب.

- أخبرتها عن سائق العربية.

- أي سائق؟

- الشاب البوسني الذي أحضر خطاب "نيدلكو"، بعدما رحلت. لقد أخبره "دوشان" أنك لم تعد تعيش هنا، ولكن كان من الممكن أن يعطيه عنوانك الجديد. ربما لم يكن يحفظه، ولم يشأ أن يسألني. وطلب منه "دوشان" ألا يحضر أي خطابات من "نيدلكو" بعد ذلك. الشاب كان لطيفًا، أحببت أن أدعوه للدخول وتناول بعض القهوة، ولكن "دوشان" كان غضبانًا منه، لأنه غضبان من "نيدلكو"، لذلك لم أقل شيئًا. كنت

سأعطيه عنوانك، ولكنني لم أفعل؛ لأنني أعرف أن "دوشان" يعلم لماذا لا يريد أن يعطيه العنوان.

قد تكون القصة الفعلية مختلفة، ومن الممكن أن أتخيل بسهولة "دوشان" يترك الشاب واقفاً لدى الباب ولا يسأله من أجل "ماريا"؛ لأنه من البوستة. ومن ناحية أخرى ربما كان مُتَعَجِّلاً، لذلك لم يقف الشاب طويلاً أمام الباب، حيث يراه كل الجيران. كان من الممكن أن يبحث عن مذكرته السوداء التي دَوَّنَ فيها عنواننا الجديد، مثل الدليل المهم في تحقيقات الشرطة. وتخيَّلت كيف كانت "ماريا" تتبعه كالظل، ولم تخبره أين المذكرة، وربما همست له أنه لا يصح أن يعطي معلومات شخصية لمثل هؤلاء الناس، وأن عنوان ابنتهم من الأشياء الشخصية.

استطعت أن أرى بنفسي مرّات عديدة على مدى السنين الماضية أن الناس يتم وصفهم بـ"أولئك"، بصرف النظر عمّن هم فعلاً، ومن أين، وماذا يفعلون. لا تريد "ماريا" أن تتعامل مع سائق العربة إلا بما تقتضيه الضرورة القصوى. بالطبع لم ترغب في الاعتراف بذلك للناس، لأنها تعلم أن هذا غير لائق، وهكذا استمرّت في أن تظهر نفسها بصورة جيدة، دون أن تعرف أنها لا تستطيع إخفاء كراهيتها لـ"أولئك"؛ لأن "أولئك" يميلون إلى أن يكونوا أكثر فطنة وتبصراً عمماً تتصوّر هي.

- هل تتذكّرين اسم السائق؟

- الشاب البوسني؟

أحست "ماريا" أنها في حاجة إلى أن تحطّ من قدر هذا الشخص، حتى بعد ستة عشر عاماً، من سائق عربة إلى شاب بوسني، وهكذا تؤكد ازدراءها له، ولـ"دوشا" أيضاً، وأنا بالطبع، على الأقل لاهتمامنا بمثل هذا

الشخص. كراهيتي لهذه المرأة خنقتني مرّة أخرى، ولكنني هدّأت نفسي بحكيّ حداثي في الأرضية المُترّبة، وإعجابي بالأثر الذي تركته، متذكراً أن الحياة أخبرتني بما يمكن أن يقوله لساني السليط، لكونها نباتية، ولكونها وحدها في منزل خالٍ لأكثر من عشر سنوات.

- نعم.

- لا أدري، كانت عربة لشخص يُدعى "لازيتش"، وتحمل لوحة معدنية من هذه المنطقة.

- ولكنك لا تعرفين اسم السائق.

- لم أتحدث معه.

- هل أنت متأكّدة أن اسمه "لازيتش"؟

- أخبرت "دوشا" فعلاً بذلك.

أردت أن أقول شيئاً، ولكنني غيّرت رأبي. فهي جدّتي الوحيدة، وهذا وداعنا، والأمر لا يحتمل أن أندم على شيء يتعلّق بها.



بالنسبة لي، يبدو سائقو الشاحنات مخلوقات مُخيفة يشقون طريقهم نحو البلدان التي يتجسّبها الآخرون. كان "سمير"، أبو "دانيال"، سائق شاحنة، على الأقلّ حين أن تخرج في فترة اقتصاد الظل. واعتاد "دانيال" أن يحكي لي باستمرار عن مغامراته في الفنادق الصغيرة في "بلاروس"، ومحطات البنزين في بلغاريا، وعن ضباط الجمارك في "مولدافيا"، والمسافرات على الطريق في بولندا.

ولكن بغض النظر عن ظُرف القصص، فإنني كنت أخاف قليلاً من "سمير"؛ لأنه يلتزم الصمت حينما أكون موجوداً. عندما كنت طفلاً، لم أعرف كثيراً من الناس الصامتين؛ فكل واحد عرفته في "باولا" كان متحدّثاً جيّداً. بعد كأس من الشنايز يتكلّم كثيراً، حتى "أمير موزيروفيتش" كان يبدأ في الكلام.

من يدري أنني عندما أدركت للمرّة الأولى أنني أكبر وأصير كنيياً ووحيداً وصامتاً، أخذت أفود في غابات روسيا لأيام وأسابيع وسنين عدّة دون أي رغبة في الحديث مع أي شخص. تصورت نفسي أحياناً أسير بالسيارة في طريق مستقيم لا نهاية له، مُستغرّفاً في التفكير، مُحدّثاً في المسافات البعيدة التي تزداد ظلمة ووضوحاً، ولكن تظل بعيدة وموحشة. وأفكر في كل مرّة كيف كان أبي يكره هؤلاء الناس الذين يخرجون الكلمات من أفواههم بالقوة، وكيف لا يوافقني على أنني أصبحت واحداً منهم.

من حُسن الحظّ أن "نادية" اعتادت تدريجياً على صمتي، فلم تسألني في ذلك المساء عن مقبرة "دوشان"، ولا "ماريا"، ولا سائق الشاحنة "لازيتش" الذي أحضر خطاباً من "نيدلكو" منذ سنوات. تركتني أحتفظ بكل هذا، واستمرت حياتنا العادية. ذهبت للنوم وحدها هذه الليلة، دون أن تقول لي تصبح على خير، وانتظرتها حتى تمام. كل ما فعلته أنني رقدت بجوارها، أفكّر في مسؤول الشحن "جوفان لازيتش"، صاحب شركة "لازيتش المحدودة للخدمات اللوجيستية"، وكيف عثرت أخيراً على اسم شخص يبدأ بحرف "ج." في خطاب "نيدلكو" في الصباح التالي. أعلم أنه يجب أن أفكّر في "نادية" وفيها أيضاً، لكنني أرحت نفسي بأنه يكفيني شعوري بالذنب لأنني لا أفكّر في هذا.



بدأت بحثي في جراج في مقلب نفايات الألواح المعدنية فائقة التسخين عن أي شاحنة مكتوب عليها اسم "لازيتش"، ولكن بلا جدوى. غمغم الشاب الذي في الكشك بأنه ليس لديه الوقت لينظر إلى ما هو مكتوب على الشاحنات، وأنه لا يُحصى السائقين، ثم أخذني للـ"كافتيريا"، هكذا يسمي الحاوية الموجودة خلف سور الجراج. يوجد بضعة سائقين يتسكعون ساكتين في البرد، في انتظار التعليمات. جلست وفي الحال لفت الأنظار، حيث لم يعتادوا على الوجوه الغريبة. عندما رأَت الجرسونة أنه لا نية لي في الرحيل، اقتربت من طاولتي.

- ماذا تريد؟

- عفوًا، هل تعرفين "جوفان لازيتش"؟

لم تجب، فقط تفحصتني بارتياب. حسبت أنها تريد مزيداً من التفسير عن سبب اهتمامي بهذا الرجل المحترم الذي أسأل عنه، ولكنها استدارت نحو الزبائن الآخرين.

- "ميرو"، اتصل بـ"لازو" واسأله متى سيحضر.

لم ينفذ "ميرو"، الذي يستند إلى جدار الحاوية متكاسلاً، ما طُلب منه في الحال.

- مَن هو؟

افتترضت أنه يقصدي، ولكنه سألها دون حتى أن ينظر ناحيتي. هذه وسيلة اتصال خاصة - أو هكذا افتترضت - بين هؤلاء الذين فقدوا الأمل في مستقبل أفضل بانتظارهم هنا، وليس لديهم الطاقة لكلمات أكثر من

اللازم. فقط جلسوا هناك في صمت، يشاركون بعضهم بعضًا خيبة الأمل في طريق الحياة.

- ما أدراني، ها هو، أسأله بنفسك.

لم ينظر إليّ أحد، وهزّ "ميرو" رأسه ببلاهة وأمسك بالتليفون.

- أهلاً، "لازو"؟... أنا "ميرو"... هل ستأتي لترى "دراجيكا" اليوم؟... أووووه...

جيمييل... هنا شاب يبحث عنك... أنت! تعال!

استدار نحوي للمرة الأولى.

- لماذا تبحث عن "لازو"؟

- في الواقع، كان قد أحضر في أحد الأيام خطابًا من أبي، وأودُّ أن أعرف إذا

كان ما زال على اتصال...

لم يشعر "ميرو" بالرغبة في الاستماع أكثر من ذلك، فتفسيري كان معقدًا

بالنسبة له.

- شيء بخصوص خطاب... لا أعرف! اسمع يا "لازو"، لماذا تترقني وتساءلني

أنا؟ تعالَ واسأله بنفسك! يا لتطفلك اللعين!

لم يرغب "ميرو" في إزعاجي بأي معلومات إذا كان "لازو" سيأتي أم لا، ولكن

قرّرت أن أبقى متفانلاً، وقلت في نفسي إن هذا السكوت معناه أن "لازو" في

الطريق، ولا معنى في سؤالي "ميرو" متى سيحضر. الوقت هنا يمضي مختلفًا عن

أي مكان آخر في العالم، ومحتمل أن أتلقّى إجابة لا فائدة منها، مثل "حالًا

سيأتي".



كان "لازو" من نوعية مختلفة عن زبائن الكافتيريا الآخرين. عندما جاء إلى الحاوية بمقطورته بعد نصف ساعة. استطعت أن أستشف من نزوله من الباب أنه يتمتع بحياته عن زبائن "دراجيكا" الآخرين. فعلى الرغم من أن درجة الحرارة تحت الصفر بكثير، فإنه يمشي بجاكت مفتوح، وحذاء جلد لامع خفيف. حاول أن يعطي انطباعاً أنه - لكونه "فتوة من الطراز القديم" - لا يشعر بالبرد إطلاقاً. كان دخوله درامياً.

- أين أنتم يا قدامى المحاربين في الحرب من أجل سلوفينيا؟ تجلسون هنا، في استراحة جدية بكم، كما يقول الأمريكيان. "دراجيكا"، انظري إليهم، أليسوا لطافاً؟... اللعنة على صربيا، بلدكم، الصغيرة أو الكبيرة! لا عجب أن تكون دولتكم في أزمة، لو أن أفضل عمالها هنا، عليها اللعنة، يا "ميرو"، هذا الأهل "تاديتش"، سيبع بلدكم، ولكنكم تجلسون هنا فحسب، ولا يهتمكم أي شيء. ألم تروا كيف جعلوا الألبان يأخذون كوسوفو، بلدنا؟ حالاً، سيعلمون الاستقلال، هؤلاء المرضى السّفلة...

غمغم واحد من "قدامى المحاربين" الذين تحدث إليهم ردّاً عليه، بينما لم يبدل الآخرون أي جهد للمشاركة في هذا النقاش السياسي.

جلس "لازو" إلى الطاولة الشاغرة الوحيدة، وطلب من "دراجيكا" لتحضر له شاي الكمثرى، ثم استدار نحو:

- هل تبحث عني؟

- نعم.

- تعال هنا.

جلست بجواره، ومدّ لي يده.

- "لازيتش يوغوسلافيا".

- "فلادان بوروجيفيتش".
- ترقبت أن يحدث اسمي أي رد فعل له، ولكن "لازيتش يوغوسلافيا" لم يُبدِ أي اهتمام بالاسم، ولا بي.
- ربما تعرف أبي "نيدلكو بوروجيفيتش".
- ماذا تقول؟ "بوروجيفيتش"؟ من أين؟
- من "باولا"، أصله من "فويفودينا"، ولكننا عشنا في "باولا" حتى الحرب. كان ضابطاً. ثم عاش في "برتشكو" بعد ذلك.
- لماذا تظن أنني أعرفه؟
- لقد أرسل خطابات لأمي أثناء الحرب عن طريقك.
- عن طريقي؟
- بشاحتك.
- أثناء الحرب؟
- نعم.
- هل تعرف متى حدث ذلك؟ اللعنة...
- آخر خطاب أرسله إلى أمي منذ ثلاث سنوات، من "برتشكو".
- من "برتشكو"؟
- نعم.
- بشاحنتي؟
- لا أعرف ذلك بالضبط.
- ماذا تعرف؟
- أعرف أن شخصاً أحضر الخطاب في شاحنتك، وحسبت أنك على اتصال به، أنك تعرف أين هو.

- وهل أبدو لك كساعي بريد؟ لا أعرف "بوروجيفيتش" هذا الذي يخضك.

- ماذا عن "توميسلاف زدرافكوفيتش"؟

- مَنْ هذا أيضًا؟! يااااا للمصيبة!

- اسمه الجديد، لقد غيّر اسمه.

- غيّر اسمه؟

- نعم، من "بوروجيفيتش" إلى "زدرافكوفيتش".

- أووووه، ما هذه المتاهة يا رجل؟

- لا أدري.

من الواضح أن "لازو" غير معتاد على حديث الغرباء مع بعضهم بعضًا، كما أنه نافذ الصبر مع المحققين الصغار الطموحين أمثالي.

- اسمع، لن أستطيع مساعدتك. لعلمك، لقد نسيت حاليًا كل شيء. مَنْ رأيت، ومَنْ قابلت، ومَنْ ضاجعت. لو تعرف الناس الذين تعاملت معهم... إنهم أغبية في كل مكان حاليًا. لن تُصدّق ما يحدث في البلد الآن. لا ترى هذا في أي مكان آخر، صدّقني. وأفضل ما تفعله هو أن تنسى. لو كنت إنسانًا طبيعيًا، لأصبت بالجنون من زمن. فحتى لو أنني قابلت أباك، فقد نسيت الآن. لأن هذا ما اضطررت أن أفعله. في هذا البلد، لا يوجد قانون، ولا نظام، ولا أي شيء بالمرّة. الناس يسرقون فقط، اللصوص في كل مكان وأنا لا أستطيع... لا أستطيع أن أرى ما يحدث، ولو أنني وضعته في ذهني... لأصبت بالجنون... بالنسبة لي، كل شيء يدخل من أذن ويخرج من الأخرى، لن أهتم بشيء بعد ذلك، لن أحرص نفسي من النوم لأي سبب. مستحيل يا "جوزيه"، لقد تخلّصت من كل هذا القرف، عذرًا على فرنسيتي.

أخبرني "لازيتش يوغوسلافيا" بكل شيء، وذهب إلى الضحية التالية:

- ماذا هناك يا "ميرو"، يا جندي يا قديم؟ سيعلمون فعلاً كوسوفو جمهورية، ليست نُكْتة. هيّا نذهب إلى هناك ونسحقهم!

كان "ميرو" ما زال متكئًا إلى جدار الحاوية، نصف نائم، وبلا شك أي حركة تصدر منه هي غير مقصودة، وليست من خطة حياته القصيرة.

- لقد نمت مع كل الأمّهات الألبانيات. اذهب أنت وئم مع من تريد.

ضحك "لازو" مقهقهًا بصوت عالٍ، بينما كنت أبحث عن "دراجيكا". أردت أن أدفع حساب القهوة وأخرج من هناك بأسرع ما يمكن، قبل الحلقة التالية من النقاش. عند هذه اللحظة، حدّق "لازيتش يوغوسلافيا" فيّ بطريقة قد تفسر بأنها تهديد، ولكن اتّضح أنها طبيعته، وليست زائفة. فهمت أنها حالته الطبيعية، وأنتي كنت أنتعامل مع نموذج للمُهرّج البلقاني. فـ"لازو" يحب أن يمزح، ولكن لا أحد هناك يمزح معه.

- لقد مضى على الحرب خمسة عشر عامًا. وما أفعله الآن لا يهم أحدًا. حتى إلى اليوم، الأذكىاء المتعجرفون لا يعرفون من البطل ومن مجرم الحرب، وليس من شأن أحد أن يسألني من أعرفه ومن لا أعرفه. يجب أن ننسى كل شيء، وخصوصًا أنتم أيها الشباب الذين ليس لديهم أي فكرة عمّا يحدث هناك، ولمن ولماذا. لقد مضت خمس عشرة سنة، وينبغي ألا يتكلّم أحد عن هذا؛ لأن الناس لا يقولون إلا التّوافه، و فقط هؤلاء الذين لم يكونوا هناك ولم يروا أي شيء يتكلمون. الحرب هي الحرب. كان ذلك أشبه بكوكب آخر. لا أحد يفهم هذا. إما كنتم هناك، وإما لم تكونوا. لا شيء آخر يهم. إذا كنتم هناك فكل شيء واضح لكم، ولا تسألون عن شيء. أما إذا لم تكونوا فليس من حقكم أن تسألوا عن أي شيء. فهمتم؟



- من المحتمل أنني لن أعرف أبدًا إذا كان قد كذب عليّ أم لا.

كانت "نادية" راقدة بجواري تستمع بصمت لشكوكي إذا كان "جوفان لازيفيتش" قال الحقيقة عندما زعم أنه لا يعرف أي. إنني على يقين بأنه ليس لدي القدرة على جعل الناس يخبرونني بما لم يقصدوا أن يقولوه لي. فلست جاسوسًا ذكيًا خاصًا في فيلم أمريكي. فما أنا إلا رجل صغير، أو صبي كبير، يبحث عن أبيه في العالم الحقيقي. ليس لدي أفضل كتاب السيناريوهات من هوليوود رهن إشارتي، ليؤلفوا لي جميعًا ردًا ساخرًا على مونولوج "لازوز". وليس لي عضلات "بروس ويليس" كي أجر هذا الكاذب من رقبتة، وأعلقه في مسمار في جدار حاوية "دراجيكا"، وأجعله يغني.

لم أستطع غير أن أسكت، وأشكره على وقته، وأدفع الحساب وأنصرف. لم أستطع غير أن أتقبل كل التفاهات التي حكاها بامتنان، وأرى آخر أثر من "نيدلكو بوروجيفيتش" يتلاشى أمامي، مثل آثار أقدام بدوي في رمال الصحراء.

- اللعنة على "جوفان لازيتش"!

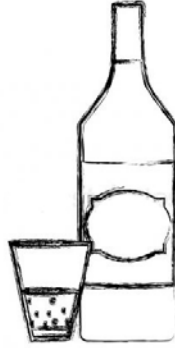
استدردت نحو "نادية" ورأيت نقطتين صغيرتين لامعتين مكان عينيها. إنها دموع انعكست عليها أضواء الشارع الخافتة مثل المرايا. كانت "نادية" تبكي.

من يدرى كم الدموع التي ملأت عينيها في صمت، وتهددني بشكل خفي. تهدد بأن "نادية" ستعود ذات يوم إلى منزل أمها، وتغلق على نفسها باب غرفتها. فلن تصل إليها مكالماتي، وستدقُّ أمها القلقة على

بابها، ولكن دون فائدة. يهددون بأن "نادية" سوف ترقد هناك على سريرها، محاطة بلعبها اللطيفة المحببة من طفولتها، تُحدّق في السقف المطلي بلون ذهبي متوهج في ظلمة النجوم، تسترجع كل حياتنا التي عشناها معًا، وتودع كل يوم كان بيننا. ربما تبكي، ربما تبتمس بين الحين والآخر، ولكنها لن تندم على أي شيء، ولن تشيها أي ذكريات بيننا عن نياتها. عندما يأتي يوم ما، وتنتهي قصة فيلمنا، سوف تخرج من غرفتها، ولن أكون في حياتها بعد ذلك، وستشقى حياتها من دوني.

اللجنة على "جوفان لازيتش"، وكل سائقي الشاحنات في هذه الدنيا!
و"نيدلكو بوروجيفيتش" أيضًا.





- هل تعرف بار "بوس"؟ في الساحة أعلى سوق الخضار؟
- نعم.
- متى يمكنك أن تكون هناك؟
- خلال خمس عشرة دقيقة.
- أراك هناك.

بعد عشرين دقيقة في بار "بوس"، وجدت رجلاً يجلس إلى طاولة بجوار النافذة، لا يحمل إلا شيئاً خفيفاً من الرجل الذي قابلته في مكتبه من مدة ليست بالطويلة. لم يكن "بران ستانيزيتش" ببذلته الزرقاء الأنيقة، لكنه لم يزل يبرز متميزاً في بار مثل هذا، مكان التقاء بقية البروليتاريا البرجوازية.

- اعتدت أن أعيش هناك، في تلك البلكوته في الطابق الرابع ذات الستائر القصيرة. هل يمكن أن تراها؟ هناك مباشرة. أبنائي كبروا في هذه الساحة.

كان هناك قطار خشبي صغير، لا يمكنك أن تنزلهم من عليه. متى كان هذا بحق الجحيم؟ جلسنا هناك، في تلك الأيام، فقط كُنَّا نجلس.

كل شيء كان مختلفًا في ذلك الوقت. حينئذٍ، كان "بران" ما زال يشرب شنايز "بلوم" ويرتاد أماكن مثل هذه، حيث ينتشر الشعور بقذارة الماضي، ويمكن أن ترى بُقع النبيذ السيئ الممسوحة على الطاولات، مع آثار من العصير والكريم لازقة بها. لقد تدفقت رغاوى بيرة على أرضيات هذه البارات، وقد طفت عليها أعقاب السجائر المهملة من زمن، وما زلت تشم رائحة الزبائن الأحياء والأموات، لا يهم كم من الهواء النقي أدخله المَلَأَك الجُدُد. ربما اعتاد "بران" أن يكون واحدًا منهم، ولكنه تاه في يوم ما في تمويهه الانتقالي، الذي وضعه في طبقة هؤلاء الذين يمسخون أفواههم بالمناديل القطنية، قبل شرب نبيذ جنوب أفريقيا.

بجلوسه في بار "بوس"، عاد إلى بيته ليعمل مع هؤلاء الذين ما زالوا يمتلكون براميل من البيرة للغداء. عاد إلى عالمه القديم، وجلس أمامي، عاد مرة أخرى ذلك الظريف في فناع الغطس الأصفر، الذي أزال ذات يوم الشوك الصغير من سمك "الأنشوفة"، المشوي على موقد "دوشا"، بطريقة غشيمة، بأصابعه البدينة، من أجل أبنائه ومن أجلي على الشاطئ.

أم كان فقط يخبرني بالقصة التي يعتقد أنني أحب أن أسمعها؟
- أحب المجيء هنا، لأستعيد ذكريات أيامي كضابط. أتعلم؟ أصبح يتضح لي أكثر وأكثر أن عالم الرفاهية ذاك لم أعد أنعم به. أفتقد شرب البيرة على الدُّكَّة أمام سكني مع زملائي. اعتدنا أن نجلس هناك، فأراقب الأطفال وهم يركبون قطارهم الخشبي ليذهبوا إلى بلدانهم البعيدة. أستطيع أن أشتري المكان كله، ولكن لا أستطيع أن أشتري هذه البيرة بعد

الآن. لا يمكن أن تجد الجو والإحساس بأنك، في لحظة ما، تستطيع أن تمتلك كل ما تريد. لم يعد يوجد شيء من هذا القبيل. ما زلت آتي إلى هنا كي أقابل شخصاً ما من ذلك الزمن، ولكن لم يعد كما كان، ولن يكون. لن أحاول مرة ثانية أن أخصص ساعتين كي أخذ الأولاد للغداء، بينما ننهي على مهل النقاش حول بذلة قفز أحد المتزحلقين. لن يحدث مرة أخرى أبداً، أبداً. ولكن ها هو الحال. ستعرفه عندما تكبر وتصبح في سنِّي.

بعد أن انتهى من رثائه الحزين على الماضي، عاد "بران" للحاضر، وسحب ظرفاً من جيبه، ورماه أمامي. ظهرت منه صور فوتوغرافية.

- أردت حقاً أن أريك إياها.

في الصورة العُلْيَا، جندي يربط رباط حذائه. أردت أن أضعها جانباً كي أرى بقية الصور، ولكن "بران" دفعها أمامي.

- خذ نظرة أخرى!

عندئذٍ فقط، أدركت أن الجندي يقف بجوار جُثَّة امرأة، متكئاً عليها بقدمه، كي لا يميل كثيراً وهو يربط حذاءه.

- ما هذا؟

في الوقت نفسه، وضع "بران" صورة أخرى في يدي. فيها أربع جُثث، كما لو أن شخصاً ما كُوِّمها فوق بعض، مع بقايا لبيت محترق تكاد تظهر في الخلفية. في الصورة الثالثة، جندي يقف بجوار محرقة، حيث أُلقيت فيها جُثَّة خامسة لطفل. اختفى اللهب الذي خلفه، بينما الدخان ما زال عالماً حول موقع النار.

- ما هذا؟

- هذه "فيشيتشي".

أخذت نظرة أخرى في الصورة والجندي الذي كان يقف يُحَدِّق في الجُثث التي أمامه بلا حراك. كان "نيدلكو" يمد يده نحو إحدى الجُثث، كما لو أنه أراد أن يلمسها، مثلما فعل جَدِّي "ميلوتين" ذات مرّة على ما أعتقد. وفي الحال ارتجفت. أعطاني "بران" الذي لا يعرف رمزية المشهد باقي الصور، ولكنني رأيت ما يكفي.

- ما هذا؟

- هكذا تعرف من تبحث عنه.

- أعرف.

- لو أنك تعرف لم توقفت عند الصورة الثالثة؛ ما بعدها أسوأ.

- ماذا تريد؟

- أريدك أن تعرف كل شيء يا "فلادان". الرجل الذي تتذكره من "باولا" لم يعد موجودًا. "نيدلكو بوروجيفيتش" مجرم حرب. مسؤول عن الجُثث التي في الصور. هل أنت متأكد أنك ما زلت تريد أن تقابله؟
كان ينظر كل منا في عيني الآخر، ولكنني لم أستطع أن أرى سوى "نيدلكو" وهو يمد ذراعه، ليلمس ذراع طفل مُلَطَّخَة بالدم.

- يا "فلادان"، أنت لا تعرف، أبوك طلب مِنِّي أن أعتني بك عندما تعود إلى سلوفينيا. وأنا حاولت. بذلت أقصى ما في وسعي. ولكنني لست أباك ولا أستطيع أن أطلب منك ما يجب فعله. لم أستطع حينئذٍ، ولكن أستطيع الآن، ولو بنسبة أقل. هذه حياتك. و"نيدلكو" أبوك، والقرار قرارك. ولكنني ما زلت أرغب في تحذيرك، لا أعرف، كصديق افتراضًا. الناس الذين يحمون هؤلاء المتهمين من قبل محكمة "لاهاي" الجنائية، يحمونهم لسبب. بحمايتهم، يحمي العديد من الناس أنفسهم. وأنت لست ابن هؤلاء

الناس. أفهمت؟ أقصد قد ينتهي بك كل هذا بنهاية سيئة، لو أن هؤلاء الناس شكوا أنك تخون "نيدلكو" وتريد أن تسلمه إلى الشرطة. الحرب ما زالت مستمرة بالنسبة لهؤلاء الناس، وهم لا يهرجون.

لم أفكر إطلاقاً في المساعدة لتقديم "نيدلكو" للعدالة، على الرغم من أنه قد ينبغي عليّ ذلك. ربما كان من المفترض أن أذهب إلى الشرطة وأخبرهم بكل شيء أعرفه عن مجرم الحرب هذا الهارب. القصة التي اعتبرتها قصّتي، لكنها كانت أكثر من مجرد قصّتي، إنها قصة أربعة وثلاثين شخصاً آخرين. قصة أقاربهم وأصدقائهم الذين نجوا وما زالوا على قيد الحياة.

- "فلادان"، أرجو أن تفهمني، لو شعر هؤلاء الناس بتهديد، ولو لثانية، لن ينتظروا أن يفكروا. أرجو أن تفهم عن أي ناس أتكلم.

أومأت، على الرغم من أن ذهني كان في مكان آخر، ولم أفكر في هؤلاء الناس الذين يحذرنني منهم "بران".

- هل أنت متأكد من أنك تريد أن تراه فقط، لا أكثر؟

- متأكد.

- فعلاً؟

- فعلاً.

- وهو كذلك.

نظر إليّ "بران" كما لو كان يريد أن توافق نظراتي على كلماته.

- كن في مطعم "ستوماك" في فيينا يوم السبت، السابع من فبراير، الطاولة

ستكون باسمك. هل حفظت هذا؟

- مطعم "ستوماك".

- نعم، في فيينا، يوم السبت، السابعة مساءً. لديك الوقت لتفكر وتغير رأيك
إذا رغبت في ذلك. لو قرّرت ألا تكون هناك، انتهى الأمر.
- سأكون هناك.
- هذا قرارك، وأرجو أن تفهم ما أنت مُقدِّم عليه.



بعد دقيقة أو دقيقتين، رأيته من نافذة بار "بوس" يتوقّف في الساحة، قبل أن ينزل إلى سوق الخضار، يشاهد الملعب الصغير، حيث اعتاد أن يقف القطار الخشبي الصغير، الذي أخذ أطفاله حول العالم. وقوفه على رصيف حياته الماضية انتهى، وعاد إلى الواقع واختفى عن الأنظار.

وهكذا تركت وحدي مع "ميلوتين" و"نيدلكو" وقصصهما التي تشابكت أمام عيني بطريقة قاسية. كل شيء يشير إلى حقيقة موت والد "نيدلكو" المبكرة، حولت "نيدلكو" إلى رجل يضاهاى هؤلاء الذين قتلوا أسرة "ميلوتين"، إلى رجل حرّق المنازل وكوّم الجُثث. لقد كانت حلقة مُفرغة، وللحظة مرّت على بالي فكرة أنني قد أكون جزءًا من هذه القصة اللعينة، وقد تُرمى جُثّتي في يوم من الأيام في كومة مع جُثث أخرى، يُحدّق فيها الذين نجوا. في هذه القصة غير المحكية، تحوّل الجلادون إلى ضحايا، وتحول الضحايا إلى جلادين، وكل واحد في هذه القصة قتل، وقُتل.

لم أرغب في أن أكون جزءًا من هذه القصة، ولكن لم أكن متأكدًا أنني أستطيع أن أهرب منها. لم أعد أُصدّق بأنني الشخص الذي يمكن أن يترك قصة بلا نهاية؛ لأن كل نهاية كانت مجرد بداية أخرى، أو بالأحرى آلاف البدايات الجديدة. لم تكن نهاية قصة "نيدلكو" بداية قصّتي فحسب، بل

أيضاً بداية قصص أخرى كثيرة، أكثر أماً. إنها بدايات لقصص جميع الضحايا، التي يتكرر سردها هنا لسنوات. مؤلمة لأنني حُوصرت مع جُثث ناس أبرياء وجلّادِيهم. مؤلمة لأنني أعلم أن السؤال الوحيد الذي ظل بلا إجابة هو أي دور مرسوم لي في هذه القصص، وفي أي قصة ستكون نهايتي.



- هل أنت ذاهب إلى فيينا؟

طرحت "نادية" السؤال في ذلك المساء مباشرة بعد عودتي من بار "بوس"، مخموراً بعض الشيء، وقد أخذت أُعيد كلمة بكلمة، حديثي مع ذاك الرجل صاحب القناع الأصفر. هزرتُ كتفي، حيث كانت هي وسيلة التواصل الوحيدة التي في إمكاني. تعبت من تجوالي حول العالم وحيداً، وأردت صُحبتها. لم أكن متأكدًا إذا كنت أريدها في مشواري إلى فيينا، أم أريدها في حياتي بعد ذلك.

- قل لي إذا كنت تريدني أن أذهب معك بدلاً من أن تتوه بلا ضرورة.

قد لا أفهم متى أصبحت طالبتني الصغيرة تلك شخصًا بالغًا يفهم شخصية مُعقّدة مثلي، تلك التي ترسل ملابسها المتّسخة إلى أمها في نهاية الأسبوع، وتيقّنت أنها بشرائها بلوفرات استعمال تنقذ الفقراء في الصين. يبدو أنها قبل ذلك بقليل كانت تثرثر حول الحرب ضد الإرهاب، و"كونشرتو" "هابي يوث"، وآيس كريم "بين وجيري" الذي أكلته في لندن، وسرقة درّاجة أمها. تلك الشخصية التي فُكّرت ذات يوم بجديّة أننا كُنّا سنصبح أفضل لولا تدخل الأمريكان الفظعاء أصبحت الآن ماهرة في علاقتنا؛ تطرح أسئلة صحيحة، تتجاهل هذيان غير الناضج، وأصرت،

على الرغم من رفضي الطفولي، أن تحدّثني وتصمد في محادثة البالغين من طرف واحد تلك.

انتقدت "نادية" بعنف في ذلك المساء نظريتي عن الأطفال السعداء الذين لا يكبرون أبداً لأنهم يعيشون مختبئين من المجتمع في بيوت الدُمية. ما دامت تقبّلت بصبر عدم قُدرتي على الرد على أسئلتها، والتعبير لفظياً عن مشاكلي بشكل ناضج، كان عليّ الاعتراف بأن الأطفال السعداء قد يكبرون أسرع منّا. نحن النفوس التعيسة الذين نظل أسرى لسن الرشد المبكر والمظاهر. النفوس التعيسة التي تعلمت دائماً بنزوات القدر، وليس بحكمته.

كانت "نادية" طفلة سعيدة، فعندما كنت أشاهد الأخبار التي تظهر أولاً في الشريط من أسفل، كانت تبكي لأن أختها حصلت على دراجة جديدة في عيد ميلادها، بينما تستمر "نادية" بدرّاجتها القديمة. بينما كنت قد فقدت أبي، مقتت "نادية" أبويها لأنهما لم يشتريا لها حذاء "كونفرس أول ستارز" قبل ذهابها إلى المدرسة. بينما أصبحت بلا أم، تدمّرت "نادية" لأنها اكتشفت أن مُدرّستها في الرياضيات لا تحبها، ولذلك حصلت على B. بينما كنت وحيداً في وسط عالم غريب، هلعت "نادية" لأنها غير قادرة على الذهاب إلى درس الرقص.

كانت "نادية" طفلة سعيدة، وغضبانة من أبيها، الذي لم يتركها تثقب أنفها. كانت "نادية" طفلة سعيدة، أمّها حبستها في البيت لمدة ثلاثة أشهر لأنها وجدت في حقيبتها مارجوانا. كانت "نادية" طفلة سعيدة، وصديقها الأول قطع علاقته بها قبل انتهاء امتحان المدرسة، ولذلك نقصت ثلاثين درجة

عن الدرجات المتوقعة. كانت "نادية" طفلة سعيدة، وتغلّبت على كل أمراض الطفولة، واحدًا واحدًا، والآن تجلس أمامي، مستعدة لمناقشة أمور جادّة. عل عكسي أنا، الذي ضربتني الحياة على رأسي في الحادية عشرة، إذ أجلس بجوارها، وليس لديّ أدنى فكرة عمّا أفعل مع مشاعري الطفولية العاصفة. لذلك أخفيها، ورفضتها، وأنكرتها، واختبأت من كل واحد يقترّب مِنِّي. وظللتُ طفلًا، طفلًا قد يعرف ما حدث في "سريبرينتسا"، طوال السنين الماضية، وما حدث قبلها في "فوكوفار"، ولكنني ما زلت طفلًا لا أستطيع الدخول في أي مناقشة بجديّة عن أي شيء. على الأقل عن الأمور الجادة التي يجب أن يتكلّم فيها.

- هل لديكِ وقت للذهاب إلى فيينا؟

- أنت تعلم أنني سأوفق ظروف معك.

- وهو كذلك.

- متى ستذهب؟

- لا أعرف حتى الآن إذا كنت سأذهب أم لا.

- وهو كذلك.

يا لي من تعيس! لم أفلح في أكثر من ذلك هذا المساء، أرخيت نظرتي في خجل. لقد انعكست الأدوار تمامًا، ولم تعد "نادية" تلميذتي الصغيرة، الآن أنا طفلها الصغير، الذي لا يستطيع الاعتناء بنفسه وفي حاجة إليها.





يمكن أن تعبر "نادية" شارعًا له ست حارات. وتنتبه جيّدًا ألا يهرسها الترام. يمكنها أن تستخدم أكثر من وسيلة في آنٍ واحد لتأتي من شرق المدينة لأقصى غربها. يمكنها أن تشتري تذاكر مترو الأنفاق من ماكينة التذاكر. تعرف كيف لا تُحدّق في شخص أسود أو تركي يمرُّ بجانبها وهي تركب الدَّرَاجَة. وأظن أنه يمكنها أن تفرق بين الياباني والصيني. تعرف في أي لحظة كيف تصل إلى نهر "الدانوب". تعرف أنه يجب أن تقف في الجانب الأيمن من السُّلَّم الكهربائي ليمكن من لهم مصالح مستعجلة أن يمروا في الجانب الأيسر. جرّبت الكعكة بالشوكولاتة في فندق "زاخر". زارت فيينا مع والديها، وفي المدرسة، ومع زملاء الجامعة، ومرّة بعد ذلك. وزارت ملاهي "براتر"، والمتاحف، وشارع "مارياهيلفر".

كانت "نادية" تعرف أين هي ذاهبة، ومهمتي الوحيدة ألا تغيب عن ناظري. كنت نفساً ريفية ضائعة في مدينة ضخمة، يخيفني حجمها. لا أعرف من أين تبدأ وأين تنتهي، ولا أصدّق أن شخصاً يستطيع التجوّل في مدينة وهو لا يستطيع أن يمشي فيها. لقد خفت منها، كما خفت من بلجراد ومنازلها الرمادية الضخمة. المنازل في فيينا أجمل وأنصح، ولكنها تتساوى في إخافتني. كما اعتدت أن أجري مرعوباً وراء "دوشا" في شوارع بلجراد الواسعة المشجرة، أصدقت عينيّ في ظهر "نادية" بتوتّر ولم أجرؤ حتى على التفكير في أن أفقد مرشدي في مثل هذه المدينة.

كانت لغتي الإنجليزية ضعيفة، فتجنّبت تكوين جمل طويلة، مكتفياً بالتواصل بالكلمات المنفردة. عندما كان ينبغي أن أنعلم الإنجليزية، تعلّمت السلوفينية. نسيت الإيطالية البسيطة التي تعلّمتها في "باولا"، ونسيت الألمانية البسيطة التي تعلّمتها في الثانوية. كنت محصوراً بين الحدود الضيقة للغتين الأمّ. أما "نادية"، مقارنة بي، كانت عبقرية في اللغات، حيث تشعر بالراحة في فيينا متعددة اللغات كـ"بابل" وكأنها في بيتها.

لذلك هدأتني فقط الكلمات المألوفة التي سمعتها من المارة، في خضم هذه الفوضى المضطربة. كنت مسروراً لرؤية كل عامل مهاجر من فيينا يتسلّل خلف ظهري ويعبر الشارع معي. استمعت إلى "شعبنا" في الترام، فشعرت بالراحة لفهمي كلمات قليلة من المحادثات التي التقطتها بالكروايتية والبوسنية والصربية. كنت أسير وراء "نادية"، ألتقط المحادثات من ناس من عالمي، كالصور على شاشة الرادار، مؤمناً بأنها ستحول هذه الوحدة الهائلة إلى ألفة.

كانت الغرفة في فندق "وايلد بنسيون" - أرخص فندق في فيينا - ملاذي وملجئي، حيث شعرت بأنني أطلب بكآبة من موظف الاستقبال حق اللجوء. كنت هاربًا من قمة الأشجار في أطراف فيينا، من محطات مترو الأنفاق النظيفة، من وقوف السيارات لعبور المشاة، ومن العدد اللا نهائي للمتاحف، ومن الواجهات المتجددة بعناية، ومن كل العالم الهارب من شتّى البقاع ليتجمّع هنا، بجوار نهر "الدانوب".

كنت هاربًا من فيينا الحسنة والسيئة؛ لأنني لم أستطع التمييز بينهما. أغلقت على نفسي الغرفة، وتجنّبت الاقتراب من النافذة ومشاهدة شارع "لانج جاس". استلقت على السرير وشغلت التلفزيون، وانتظرت مجيء الليل. معرفتي بأنني غير مضطر لمغادرة غرفتي كان بلسمًا بالنسبة لي، أفلحت أحيانًا في نسيان ما ينتظرني في اليوم التالي.

قاومت أي دُعر يهاجمني، واستقرت نبضات قلبي أخيرًا. خرجت "نادية" من الحمام وجلست بجواري، وعانقتني برقة، وملّست على يدي على نحو مُطمئن. بدأ يُعرض على التلفزيون فيلم بطولة "ريس وزرسبون". شاهدناه أكثر من مرّة، ولكنني سعيد به الليلة بشكل غير متوقع، وضعت الريموت على الطاولة الجانبية. قبلتني "نادية" بامتنان معتقدة أنني تركت الفيلم معروضًا من أجلها.

لم نقل كلمة في ذلك المساء، عندما انتهى الفيلم، أغلقت التلفزيون، وأسندت رأسي إلى ذراع "نادية" ونمت.



دخلت مطعمًا في فيينا بأسقف منخفضة، وجدت طاولات بوسنية قصيرة، بعضها مليء بديكور أطعمة بلاستيكية مُلوّنة ومُزخرفة. أوما لي جرسون، مبريلة سوداء طويلة، وكأنه تعرّف إليّ، وأرشدني بيده بطريقة بارعة إلى قاعة ضيقة، ثم سعدنا على السُّلم إلى بلكونة خشبية تنتشر فيها طاولات مُزيّنة بشكل لطيف. تحت رواق حجري في مقصورة بعيدة في ركن الغرفة، يجلس شخص إلى طاولة صغيرة، عليها مشروب واحد فقط، وطفاية مملوءة بأعقاب السجائر التي ينبعث منها دخان كثيف. جلست وحدقت فيه، أردت أن أتبيّن عينيه أعلى لحية بيضاء غير مهذبة، ولكنه كان متواربًا في ظل الرواق الحجري. خفت أن ينسحب من أمامي، أو يتأرجح بميل أكثر نحو الظلام، في ركن الغرفة، ليختفي في ممر سري، ولكن فجأة مال إلى الأمام فطلّت عيناه من الظلام للحظة (التي كانت هي عيناى كما ذكّرني بذلك "أمير موزيروفيتش"، "لوزا"، مؤخرًا). كان يبكي، وبعد ثانية، عندما أغلق عينيه، تدرجت دمعتان صغيرتان على وجهه، تبعتهما أخريات تسيل حول تجاعيده. كنت أشاهده، وجعلني هذا أشعر بالدفء والحب، لقد هدأتني دموعه، مثلما اعتادت أن تربت يده الكبيرتان الدافتتان على رأسي حينما كنت صغيرًا. أشاهده يبكي وأستمع، كأنه يغني لي "الفجر البازغ لم يشرق بعد" وتدرجياً أغطّ في نوم، لا يوقظني منه إلا صباح صيف حار. وأخيرًا، رأيت يديه، اللتين حاول أن يمسح بهما عينيه الدّامعتين. كانت يده كبيرتين، كبيرتين جدًّا على وجهه، على الرغم من أن وجهه مُتوارٍ خلف لحية بيضاء. لم تسلك يده طريقيهما نحو تجويف عينيه الصغيرتين. انتابني شعور بأن يديه تكبران أمام عيني، بينما يلوح بهما في ارتباك حول وجهه المبلبل بالدموع، ثم تركهما

من اليأس تنزلان، تستقران كعصفورين على حجره، وخفض رأسه كأنه يعترف بالهزيمة. فجأة سقط رأسه على الطاولة مباشرة ليسحق تحته كأس نبيد أحمر. رقد أمامي كأنه ميت، ولكنني ما زلت أرى دموعه المنحدرة على وجهه المنكفى.



استيقظت في منتصف الليل ولم أمتلك الشجاعة كي أنظر في الساعة لأعرف كم تبقي من الوقت حتى الفجر. هناك شعور أكبر بالنهاية عند الاستيقاظ في الظلام أكثر من الاستيقاظ على أي ضوء ساطع، لا يهم كم هو قوي. كان من الواضح أن نومي في "وايلد بنسيون" قد انتهى. استيقظت وعليّ أن أتكيّف مع هذا. ربما حظي جسدي المنهك بساعات من النوم، ولكن رأسي كان يقظًا أكثر من أي وقت مضى. إنني أعرف هذا الشعور، لقد هربت منه بالكاد بمساعدة الفيلم العاطفي جدًّا و"نادية" ليلة أمس.

التلفظ بهذه الجملة أصبح نوبة قلق بالنسبة لي:

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

استيقظت، كانت "نادية" مُستغرقة في النوم في مكانها على السرير. لم يكن هناك أحد أسفل نافذتنا في شارع "لانج جاس". الكل كان نائمًا في الفندق المقابل في الشارع أيضًا. انتظرت لدقائق عديدة، لأرى بعض المارة يصفون انتباهي بمظاهرهم، ولكن لا يوجد أحد. تبدو فيينا مثل "ليوبليانا" في الليل، إذ الحياة تنتهي بعد غروب الشمس مباشرة. ذهبت

إلى الحَمَّام، وتناولت بعض الماء في هدوء كي لا أوقظ "نادية". يؤمن النمساويون بأن الماء جدير بالشرب، وأنه شيء جيد، إذ كنت أشربه كما لو أن بقائي يعتمد عليه. بعدها جرّبت علاجًا بسيطًا بالصدمة، فرششت بعض الماء النمساوي المثلّج على وجهي. ولكن لم ينفعني بشيء.

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

عُدْتُ إلى الغرفة. ما زالت "نادية" لا تتحرك. لم تشعر بالفراغ الذي بجوارها على السرير، ومهدّدت على مكاني على السرير. اختلست نظرة أخرى إلى شارع "لانج جاس"، فلم أستنتج إلا أن الناس في فيينا لا يرون شيئًا مناسبًا يجعلهم يتمشون في الليل في هذا التوقيت، وأن الشوارع ستظل خاوية حتى الصباح. أسدلت الستارة وجلست على الأرض بجوار النافذة. نظرت إلى "نادية" وهي نائمة، وتذكّرت، مرّة ثانية، الصبي الذي في الحادية عشرة وهو يبكي في الغرفة 211 في فندق "بريستول" في بلجراد، بينما أمّه غارقة في النوم بجواره. لقد أصبحت ذلك الصبي مرّة أخرى، حبيس غرفة الفندق، منتظرًا الصباح البعيد، الذي لن يجلب أي شيء إلا يوم سيئ آخر.

حجزت "نادية" غرفة مزدوجة في هذا الفندق بالإنترنت. واشترت لنا تذاكر قطار، وأحضرت تاكسي في الساعة السابعة صباحًا. كما أنها هي التي أخذت لنا غرفة مستقلة في القطار، وذكّرتني بأنه علينا أن نُغيّر القطار في "ماريبور". وهي التي عرفتني كيف نستقل مواصلة من محطة قطار فيينا إلى الفندق وفي أي محطات المترو نغير القطار. لكنها على الرغم من كل هذا نائمة، وأنا يقظ، محبوسًا بين جدران غرفة الفندق.

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

كلما اقتربت ساعة لقاأي مع "نيدلكو"، ابتعدت عنه في عقلي، ولم أعرف إذا كنت سأستطيع أن أتكلّم معه عندما أقابله أم لا. لقد اختفت الأسئلة التي وددت أن أطرحها عليه، كنت خائفاً من كل الإجابات المحتملة، حتى بعد أن استمعت لها في عقلي مرّات ومرّات. ما زلت لا أعرف الإجابة على أبسط سؤال وهو "هل أنا حقاً أريد أن أعرف؟" لا أريد ندمه، أو أن يجعل نفسه إنساناً في نظري، على الأقل ولو للحظة، لا أريد أسباباً يمكن أن أفهمها.

ولكن الأهم من ذلك أنني كنت خائفاً أن أتعرّف إلى أبي في هذا الرجل، وفعلاً تمّنت هنا في فندق "وايلد بنسيون" في فيينا، وللمرّة الأولى، أن يكون "نيدلكو بوروجيفيتش" مات فعلاً عندما دفنته زوجته "دوشا"، وأن يكون شخصاً آخر بدلاً منه في مكانه الغامض في فيينا. أردت أن أصدّق بأن أبي القاتل المحترف أخذ دور المقتول دون أن يعرف السبب، ليدرك حينها أنها نهايته. أردت ألا يكون ذلك الرجل المتخفي من العدالة الظاهرية في فيينا. أردت أن أحب أبي، وأكره مجرم الحرب، الجنرال "نيدلكو بوروجيفيتش". تمّنت ألا يلتقي هذان الشخصان في جسد واحد، وألا أتعرّف إلى أحدهما في الآخر. أوّمن أن الجنرال "بوروجيفيتش" سيظل الرجل صاحب النظرة العاصفة في صور "فيشنيشي" التي دفعها "بران" في يدي. وأوّمن أن أبي لن يظل أبي منذ أن ذهب هناك.

ينبغي أن يكون أبي الرجل اللطيف الأبدي الذي كنت أقفز من على كتفيه العريضتين إلى البحر، الذي جاءني مرّة بصور لسيارة "رينو 18"،

وقال لي إنه سيشتري لي مثلها حينما أحصل على الرخصة، والذي ضربني ذات مرّة عندما قطفت تين الجيران، وإن كنت لم أكله، والذي تركني مرّةً أشاهد برنامج "إيروفزيون" حتى النهاية، لآخر اسم في تتر النهاية، على الرغم من أنه ظل لما بعد موعد نومي. أبي يجب أن يظل أبي، ولا يتحول إلى الجنرال "بوروجيفيتش"؛ لأنه لو تحوّل أبي إلى الجنرال "بوروجيفيتش"، سأصبح بلا أب، وسوف تتلاشى معه عشر سنوات سعادة، تتساوى بالأرض، مثل أي قرية في "سلافونيا".



- ماذا بك؟ هل كل شيء على ما يُرام؟
شفتق النهار، واستيقظت "نادية" التي كانت تنام بجواري، لتراني ملتصقًا بالجدار على الأرض.
- أريد أن أذهب إلى البيت.
- كم الساعة الآن؟
- لا أعرف.
- منذ متى وأنت جالس هناك هكذا؟
- لا أعرف.
- إنها السادسة الآن، تعال هنا.
أعدت التليفون إلى الطاولة بجوار السرير. صعدتُ إلى السرير، والتصقت بي "نادية"، ووضعت رأسها على صدري.
- قلبك يدقُّ.
- نعم.

- هل أنت خائف من اللقاء؟

- نعم.

- يمكنك ألا تذهب إذا لم ترغب، ويمكننا أن نتجول في المدينة.

- أريد أن أذهب إلى البيت.

- وهو كذلك.

أغلقت "نادية" عينيها، وأغلقت عينيَّ أيضًا. فكرة أننا عائدون في القطار إلى "ليوبليانا" أراحتني. استيقظ شارع "لانج جاس" أسفل النافذة، أصواته جعلتني أنام تدريجيًّا.



عندما تهيأ أخيرًا القطار في محطة فيينا للتحرك، وبدأت العربات تجرُّ بعضها نحو "ليوبليانا"، أحسستُ بارتياح، وكأنما انتشلتني شخص ما من الغرق، واستطعت أن أتنفس الهواء النقي مرّة أخرى. نجوت، ولكن عندما بدأت ضواحي فيينا في الاختفاء، بدأت أعتز في صمت بالندم لأن مخاوفي هزمتني. حاولت أن أخفي ذلك خلف أفكار متخيّلة، ولكن خطر لي وتذكّرت أن قرار عدم لقاء "نيدلكو بوروجيفيتش" لم يكن لي وحدي. شعرت بأن مخاوفي صنعت لي القرار. حاولت أن أقنع نفسي أن هذا فقط ما سهّل قراره، ولكنني لم أقتنع بذلك أيضًا. لقد هربت.

- فيم تُفكّر؟

كنا نجلس بمفردنا في الغرفة. تقمّصت "نادية" دور الصديقة لأتحدث إليها، وتشاركني مخاوفي، وتبّددها بالكلام. لكنني كنت أهرُ رأسي فقط، ولم أبعد نظري عن الحُضرة الممتدة أمامي في الخارج. هناك أفكار لا

أستطيع أن أشرحها لأي شخص على الإطلاق، تذكّرت الناس الذين يعودون إلى ديارهم من الخارج، وصدورهم دافئة.

تذكّرت هذا الشعور على الرغم من أنه كان منذ زمن طويل. ربما كنت في السابعة أو الثامنة، عندما عُدنا من بحيرات "بليتفيتش"، وكنت نائمًا في المقعد الخلفي في سيارتنا الـ"يوجو" البيضاء أثناء رحلتنا الطويلة. كُنّا في منتصف الليل حينما وصلنا إلى "باولا"، أيقظني أبي فجأة. غضبت أمّي وطلبت منه أن يتركني نائمًا، لأن الوقت مُتأخّر، ولكنه كان يكرر:

- في بيته، سيسعد.

في الحقيقة رأيت، وأنا نصف نائم، هيكل سفينة ضخمة في حوض السُّفن، ثم قاعدة عسكرية. وأثناء نزولنا شارع "أوملادينا"، وظهرت عمارتنا على بُعد، قال لي أبي:

- هناك بيتنا.

شعرت فعلاً بأنه بيتي، وبدا كذلك.

لم يعد لي أي بيت، لأنني مكثت بالخارج في وقت ما لاحق ولم أستطع العودة. كنت أعلم أنني لا أستطيع إلا أن أنتقل من غُربة إلى غُربة، وأنني لن أشعر بشيء عندما يمرُّ القطار من "سبيلفيلد" على المصنع الحراري والقُرى السلوفينية على الأطراف إلى محطة القطار، حيث تظهر لافتة "ليوبليانا" على الرصيف. وأعلم أنني لا أستطيع تفسير ذلك لـ"نادية": لأنها لن تفهم حتى لو أرادت ذلك. لذا التزمتُ الصمت واتهمتُ في مُخَيَّلتي حشدًا غير مرئي من أفراد قليلين دمّروا بيتي في وطني الكبير، كي يحصلوا على جمهوريتهم الصغيرة كوسوفو، "جمهورية لكوسوفو" بالضبط كما قال الـ"جرافيتي".

مَنْ يدري إذا كان "نيدلكو" يُفكّر هكذا، كما اعتقدت في نفسي. شعرت بالذنب لمشاركتي أفكاره معه، ولكن كان هذا أقوى مِنِّي. كلما اقتربنا من النقطة التي اعتاد عالمي أن يبدأ عندها، شعرت بأننا حوصرنا في منفى وحصار دائم. أصبحت أكثر اتصالاً بذلك الرجل الذي لا يستحق أن يُقال عنه رجل.

أتساءل إذا كان "نيدلكو" يعرف من أجل مَنْ يحارب وضد مَنْ، لما بدأت الحرب. وكشخص يدعي دائماً أنه يوغوسلافي، هل كان مُقتنعاً بأنه يحارب من أجل وطنه، وبيته في "باولا"، عندما فعل ما فعله في سلوفينيا؟ هل رأى الناس الذين مثله - الذين تمنوا أن يكون كل شيء كما هو - ولم يكن لديهم جيش خاص بهم؟ هؤلاء الناس سلموا أنفسهم في أول يوم من الحرب، أو اختبؤوا في المخابئ، أو هربوا بلا رجعة لمنفاهم الأبدية في الغربة. كانوا أقلية، هُزموا قبل إطلاق الرصاصة الأولى، وأُهينوا ونُفّوا. لربما "نيدلكو" لم يرَ هذا، أو لم يفهم، ولربما كان ذلك سبب عدم وضع بندقيته جانباً، وعدم خلع زيّه العسكري.

بينما كنت شارد الذهن وأُحدّق في نافذة القطار السريع، تساءلت هل أدرك "نيدلكو"، مع كل جندي أو مدني سقط في هذه الحرب، من أي طرف، أن جزءاً صغيراً من عالمه حتماً مات؟ أنفهم أن ذلك الرجل - الذي كان أي ذات يوم - لم يكن لينجو من هذا الإحساس. هذا الإحساس قد يتحمّله "نيدلكو" آخر، "نيدلكو" الذي احتفظ بقصة أبيه "ميلوتين"، بعيداً عنّا كلنا لأعوام، "نيدلكو" الذي لم يتغلّب على قدر أبيه مُطلقاً، "نيدلكو" الذي سيُولد بعد موت "نيدلكو" الآخر، مرتفعاً كطائر الفينيق

من الأمل. "نيدلكو" الذي له قصّته الخاصة، قصة "ميلوتين"، و"أجنيس"، القصة التي "برّرت" فعله هناك، في "فيشنيشي".

بهذه الطريقة فقط، استطاع أبي أن يقتل الناس الذين أخذ معهم حمّام شمس في الشواطئ الصخرية أسفل متنزه "لونجومير"، وبجوارهم جلس في مسرح "أرينا"، والذين ضحك معهم في الأفلام نفسها. بهذه الطريقة فقط، توقّف عند نقطة ما عن رؤية هؤلاء الناس الذين أحب أن يشاهد معهم برنامج المسابقات، والذين كانوا يشترتون معًا تسجيلات الموسيقى نفسها لأطفالهم. بهذه الطريقة فقط، استطاع أن يميز نفسه عنهم؛ لأنه لم يعد بشخصيته نفسها.

ظللتُ أحدّق في وديان النمسا، وأقاوم أي شعور بالذنب لأنني وجدت نوعًا من التفهّم لرجل لم يعد يستحق هذا الاسم. ولكن تفهّمي لا يتعدّى مشاعره، وإحباطه، وحدود إنسانيته القصوى. أما بعد هذه الحدود، فتوجد أفعاله الفظيعة التي ظللتُ أرفض تفهّمها. ما بعد هذه الحدود، لا يوجد يأس ولا حزن ولا غضب. ما بعد هذه الحدود، لا يوجد إلا غريزة القتل، ذاك الوحش عديم الإحساس الذي لم يقتل دفاعًا عن النفس، ولكن إساءة للنفس. لا أريد أن أخترق هذه الحدود، ولا أريد أن أدخل عالمه الخاص به. بالفعل لم أكن مهتمًا حتى بمعرفة كيف تعدّى "نيدلكو" نفسه هذه الحدود. هذا سؤال لا يمكن أن يُجيبه غيره.

ليس لديّ سؤال أطرحه عليه.



كان الغضب هو الذي حوّلني وأخرجني من القطار إلى مكان ما في وسط حديقة خضراء واسعة فاتنة بين فيينا و"جراتس". تبعتني "نادية" في صمت، مُجهدة ومتصالحة، بينما أنا مُمزّق من الغضب، أسأل "نيدلكو"، في مُحَيَّلتي، لماذا قرّر أن يعيش، ولماذا أراد أن يراني الآن، بعد كل هذه السنين من لعبة الاستغماية. لماذا اختار فجأة أن يظهر؟ من بين كل هذه الأسئلة، كان سؤال "لماذا" الذي يبدو تافهاً ما زال يتفجر في داخلي. سؤال أردت أن أقذفه في وجهه، كالقفاز لأعلن التحدي في مباراة أنتقم منه فيها، هناك في وسط المطعم في فيينا. كنت أشتعل غضباً لأنه يلعب بحياتي كالدمية، وهذا الغضب هو الذي دفعني إليه.

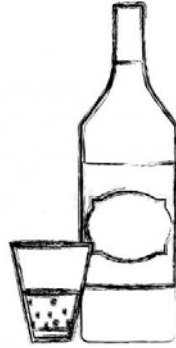
مشت "نادية" خلفي كالأطفال، لحقنا بأول قطار عائد إلى فيينا، وجلسنا في أول مكان شاغر صادفنا في القطار الذي دخل المحطة من مكان ما، إلى مكان ما. كل ما أراه هو موعد الساعة السابعة مساءً، عند طاولة في ركن في مطعم مظلم بأسقف منخفضة، كما تخيلت، تحت تأثير الليلة الماضية، مطعم "ستوماك".

في فيينا، أحسّت "نادية" بأنها تتولّى المسؤولية مرّة أخرى وتبعثها إلى "وايلد بنسيون"، في طريق مألوف. ولكن هذه المرّة، لم أعد قادراً على الاستماع إلى الناس من حولنا، لم أفعل إلا أن حدّقت دون اكتراث في نافذة المترو، منتظراً في صبر أن تتباطأ السرعة عند النقطة التي كنت أركّز عليها. كل ما كنت أفعله منذ أن نزلت من قطار "ليوبليانا" هو عدُّ الدقائق، وتفكيرني بأن هذه الثواني والدقائق تمرُّ عليّ مُتثاقلة. ثم توقّفت للحظة، وتجمّد كل شيء، شعرت بالدُّعر مرّة أخرى، ثم تحرّكت من جديد، والدنيا بدأت تُلْف بي.



بعد فترة، وجدت نفسي جالسًا على حافة السرير، أشهد شارع "لانج جاس" يتلاشى في الظلام، بينما "نادية" ترقد خلفي، محاولة أن تكون غير مسموعة وغير مرئية. انتظرت لحظة، وعندما تحرّرت من هذا العبء، وصفت لي بدقّة الطريق إلى مطعم "ستوماك" للمرّة الثالثة، وللمرّة الثالثة رفضت عرضها للذهاب معي، أو أن أستوقف تاكسي، أو أن أستقل مترو الأنفاق. قرّرت أن أمشي، مقتنعًا بأن التمشية في شوارع فيينا الطويلة ستسرق الوقت الزائد. كانت الساعة الخامسة، قرّرت أن أنطلق نحو شارع "سيجاس". قالت "نادية" إن الوقت مبكر، لكنها لم تلح. قبّلتني على خدي، وطلبت مِنِّي أن أتصل بها عندما أنتهي من المهمة. لم يكن هناك أي أثر للغضب الذي أحضرتني إلى هناك لبعض الوقت.





أصبح المرئي غير مرئي ذلك المساء، لن أتعرف على مطعم "ستوماك" إذا سألتني اليوم، كما لو أنني لم أضع فيه قدمًا. أتذكر فقط الصبي الذي أومأ لي عندما دخلت وقدمت نفسي. الصبي الذي أخبرني بأنها السادسة إلا رُبْعًا، ودنّني على الطاولة بجوار النافذة، التي تطل على القاعة. أتذكر هذه القاعة التي تصبح جزءًا من المطعم في ليالي الصيف فقط. أعطاني قائمة المطعم الزرقاء في يدي. أتذكر أيضًا أنني طلبت كأس نبيذ أبيض، وتبعته بأخرى. بعد ذلك، جلس "نيدلكو" إلى طاولتي. كنت أشرب الكأس الثالثة أو الرابعة. أتذكر كم اندهشت لسكينته، وكلمته "مرحبًا" الهادئة. مدّ يده بصورة روتينية. بدت تحيَّته عادية وغير مناسبة:

- ماذا ستشرب؟

كانت هذه هي الكلمات التي بدأت بها بعد كل هذه السنوات، قبل أن أشير للجرسون بأن يأتي. لم أكن أريد أن أبدأ المحادثة بهذه الكلمات. كانت لطيفة ومتواضعة، وكنت قد وعدت نفسي ألا أكون لطيفًا أو متواضعًا في ذلك المساء. شعرت بأنني بُحْتُ بكل مخاوفي لـ "نيدلكو" بهذه الكلمات، وكرهت نفسي عندما قلتها.

- أنت وحدك.

نظر "نيدلكو" حوله كأنه يتوقَّع شخصًا آخرَ يتناول العشاء معي. لكن نظرت لم تكن خائفة، كنظرات اللاجئ الذي يترقَّب سرًّا المطَّاردين.

- "بران" شكُّ فيك، ولكنني كنت متأكدًا أنك ستأتي وحدك.

لاحظت رضاه، رضا الجندي الذي اكتشف تَوًّا أنه عرف تكنيك مُنْافسه، واستعدَّ للهجوم.

- هل رأيت الصور؟

- نعم.

- إذًا عرفت كل شيء.

ظل "نيدلكو" ساكنًا، كما لو أنه حرك قطعة شطرنج وفي انتظار حركتي، أو أنه شرد لثانية. جلست أمامه، مُرهقًا، لم أعرف ماذا يحمل الوجه الذي أمامي لي.

- لماذا طلبت مِنِّي أن أحضر؟

- معذرة؟

لم يتوقَّع السؤال، على الأقل ليس في البداية.

- أنت تعلم... أنني لا أستطيع...

- ماذا؟

- لا أستطيع... هذه المحاكم... وهذه... لم أستطع... ولا أقدر على هذا.

- نعم، إذًا؟

- لا أدري، أعتقد أن هذا كافٍ.

- كافٍ لأي شيء؟

- كل شيء يا "فلادان"، كل شيء؛ الهروب، الاختباء... كل شيء. بعد هذه السنين، لا أدين لأحد بأي تفسير. فكل واحد يعرف كل شيء. لقد ذهبت إلى كل المناطق. و... ضد مَنْ سادافع عن نفسي هناك؟ ضد أولئك الدجالين؟ إنهم لا يهتمون إطلاقًا... بأي أحد منّا. إنهم ينعمون بالأموال، وينتظرون معاشاتهم. غير مهتمين بالعدالة، ولا الحقيقة.

لم أكن أتابعه، لأنني كنت أفكر مما أخذ كفايته، وما وتّرني أن "نيدلكو" كان يقول ما كنت أفكر فيه، منذ فترة. إذا كان لا يريد الهروب، ولا يريد الاختباء، فعليه أن يُسلم نفسه، ولكن إذا كان لا يستطيع ذلك...

ولكن خطر لي فجأة أنني طوال هذه الفترة منذ أن جلسنا معًا إلى الطاولة، كنت أرى أبي، وكل المشاعر الأخرى التي توقّعتها أو تمّيتها عندما نتقابل اختفت. لقد طرد اللا وعي الوعي، وجلست أمامه كابن طال هجره. سلّمت له نفسي بلا مقاومة، وسلّمت مشاعري لرجل أردت أن أكرهه بشدّة. عند هذه النقطة، أصبحت مُدرّكًا ضعفي، كنت خجولًا. أمسكت بكأس من النبيذ وابتلعتة مرّة واحدة، محاولًا أن أغرق فيه نفسي.

- إذًا ماذا تريد منّي؟

- لا شيء، أردت فقط أن أقول وداعًا.

حاولت أن أكون غير مُكترث، على الأقل في ذلك الوقت، ولكنني فشلت. تأثّرت بكلماته، تحرّرت تمامًا من إرادتي. شعرت بالذنب لكل هذه

المشاعر غير المرغوب فيها، وأردت أن أنتقم منه، أضره، أؤذيه، أهاجمه، شيء ما، أي شيء. ولكن لم أستطع. كنت هادئًا، أخذت رشفة من الكأس، شربت نخبًا لنفسي لأنني افتقدت الشجاعة لأواجه مجرم الحرب الذي يجلس أمامي، بينما "نيدلكو" تظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا، من المحتمل من باب الأدب. علاوة على ذلك، حدّد النيبيذ قدرتي على التركيز، ولم يعد في شيء يستطيع أن يقرأ تعبيرات وجهه. وأصبح كل ما لديّ هو الكلام.

- لعلمك، هذه الجُثث التي في الصور التي أراك إياها "بران"... تلك الجُثث التي كنت أقف أمامها... أتمنّى أنك تعرف أنني لم أُكُوّمها. إنني رأيتها هكذا. ثم وقفت هناك أشاهدها، وتذكّرت قصة أبي، وكومة الجُثث من عائلته، وعائلتك، وعائلتي. كل هذا دار في مخيلتي. حياتي كلها. قدرنا المشؤوم. حينئذٍ أدركت كيف أنني... كيف أننا كلنا صغار وغير مهمين، كيف كل هذا - الدور الذي حاولت أن أعبه - كان فعلًا لا إحساس به، وزائد على الحاجة. ولأن الحياة تلعب بنا كلنا طوال الزمن، فهذا ما فعلته بنا. هذه خطة طويلة الأمد، وما كان عليّ إلا أن أضع نفسي في الصورة. كل هذا كان مكتوبًا مسبقًا لي. لم يكن هناك أي اختيار. هذا كان مُقدَّرًا لي، ومُقدَّرًا للكل. هذا هو قدرنا.
- حقًا.

أخيرًا، تحدّث النيبيذ نيابة عني، كنت فخورًا بنفسي. ها هو أنا الذي كنت أفتقدني. وقح، ساخر، فظّ، لوأم، غضبان. شربت كأسًا أخرى، ناديت الجرسون، طلبت زجاجة كاملة من النيبيذ؛ كنييتي الحليفة. عند تلك اللحظة، فقدت الأمل في نفسي، ورؤضتها على حقيقة أن الكحول فقط هو الذي يجعلني أقول كلمات معقولة ذلك المساء.

- "فلادان"، لا علاقة لهذا بالرَّب. لا تقلق. فلست واحدًا من هؤلاء الشيعيين الذين فقدوا عقلهم تمامًا، والآن مُتديّنون أكثر من القساوسة.

- ماذا بعد؟ لِمَ كل هذا؟

- قدر، قدر فحسب.

- معذرة؟

- أنت ذكي، وأعرف أنك تفهم ما أقول. هذه الحرب امتداد لتلك الحرب. وقدر "ميلوتين" هو قدري. أنا متأكد من هذا. وهناك شيء آخر أنا متأكد منه. لو أنك ظللتُ معي، أو أنا ظللتُ معك، منذ ذلك الوقت... حسب ما تحب... لكان سيصير قدرك أيضًا. لا يمكنك أن تهرب من قدرك.

أخيرًا، بدأ الوقت يسير ببطءٍ. أسكرني النبيذ، ولكن هدّأني في الوقت ذاته. بدأت أبرع في لعبة "نيدلكو"، كلمة بكلمة. لعبة الأقدار، راح الغضب الذي كنت أستدعيه طوال المساء يصحو بداخلي، اتخذت موقفًا عدوانيًا.

- لا أفهم.

- ماذا؟

- هل أحضرتني هنا لتُسمعني قصة الأقدار؟

استطعت أخيرًا أن أبدأ بالغضب الذي كنت أخطط له من البداية، ولكنني لا أملك الشجاعة الكافية عندما أكون مُتنبِّهًا. فقط عندما أكون مخمورًا، لا أعتني بمشاعر "نيدلكو". نظرت أخيرًا نحو أبي، وبدأت أنتقم من مجرم الحرب الذي أمامي.

- بدأت تقريبًا أصدّق كل هذه القصص التي رويتها عن الجُثث المُتكوّمة.

- لا أفهم.

- طبقاً لا تفهم، بالتأكيد حكيته هذه القصص لنفسك أولاً، ثم قرّرت بعدها أن تُصدِّرها لي.

- لا أفهمك يا "فلادان".

- لا تفهمني!

- لا أفهمك.

- هل يمكنني أن أسألك؟ هل كان هذا الأمر أسهل؟

- ماذا تقصد؟

- حسناً... عندما فبركت كل هذا... فكرة القدر هذه.

- ماذا تقصد بكلمة فبركت هذه؟

- مثلاً... عندما فبركت قصة أنك لم تستطع الهروب... عندما كوَّمت

الجُثث... وكوَّمت "ميلوتين" الجُثث... عندما فبركت كل هذه القصص المُقنعة...

كانت أسهل بالنسبة لك، أليس كذلك؟ هل كل هذا كان أسهل عندما اقتنعت

بأن هذا قدر لا يمكنك الإفلات منه؟ عندما أقنعت نفسك بأنك لم تقتل كل

هؤلاء الناس، وأنه القدر ينفذ إرادته؟ عندما أدركت أخيراً أن هناك شيئاً أكبر

منك ينفذ ذلك، وبالتالي لا تشعر بأنك مُذنب؟ عندما فهمت أن لا شيء فعلته

في حياتك وما فعلته كله كان مفروضاً عليك؟ هل كان أسهل عندما آمنت بهذه

الفكرة الأكبر؟

- اسمعني يا "فلادا..."

- ولكن لم يكن ذلك كافياً لك، فأحضرتني لتقصّ عليّ هذه القصة. كي أؤمن

بالقدر؟ لماذا؟ هل لتجعله أسهل بالنسبة لي أيضاً؟ كي أفهمك؟ لأسامحك؟ هل

هذا هو السبب الذي أحضرتني من أجله؟ كي تساعدني أعفو عنك؟ كي تسهل

الأمر على نفسك؟

- أنت لا تفهم.

- مَنْ؟ أنا؟

- لا... لا... لا... أنت لا تعرف كم من الوقت أفكر فيك، وكل شيء فعلته،

وكل شيء فهمته كان من الممكن فهمه من مدة طويلة. صدقتني فعلت... وذلك

سبب عدم مجيئي هنا كي أفهمك. أنا فعلاً لم أفعل...

- لماذا جئت إلى هنا إذًا؟

- جئت كي أعرف منك لماذا أردتني أن أحضر.

- أنا أسألك بجديّة.

- وأنا أجبتك بجديّة.

كان "نيدلكو" هادئًا، نظر إليّ بعبوس، كأنه يتساءل إذا كان يُصدّقني أم لا.

- "فلادان"، لن أبقى طويلًا.

- أعرف، أخبرتني بذلك.

- ربما تشعر بالأسف في يوم ما، لو افترقنا هكذا.

- ربما، وربما لا.

كنت أجاهد نفسي ألا أشعر بالأسف تجاه هذا الرجل، مُصرًّا على أن أخرج

من هذه المعركة منتصرًا.

- لماذا لا تنصت إليّ؟ لتسمع ما سأقوله لك! أنت لست مضطرًّا أن تقبله،

إذا كنت لا تريد ذلك.

- أنا لست قسًّا، ومطعم "ستوماك" ليس بكرسي اعتراف.

- لست في حاجة إلى قسٍّ، ما أريده هو أن أوضح لك شيئًا.

- لن نتحدّث عن القدر، أليس كذلك؟

- إذا كنت لا تريد أن تسمع...

- اسمع، إذا كنت لن تستغل الوقت في الحديث عن نفسك، وعمًا فعلته بإرادتك، أرجوك لا تتكلم مُطلقًا، فهمت؟
- هل تعتقد أن كل شيء كان كما أردته أنا؟
- أخبرتك توًّا، لست مُهتمًّا بهذه القصة.
- هل تعتقد أن لي خيارًا؟
- لقد أجبت عن هذا السؤال بنفسك بالفعل.
- ماذا تعتقد؟
- لا أُؤمن بالقدر.
- وهو كذلك، لست مضطرًّا أن تسميه قدرًا، ولكنك تعلم أن كل واحد منَّا هو جزء من قصة أكبر في حياته، قصة تنفرط دون إرادتهم. أستطيع أن أخبرك عن كل شيء من البداية. عن الجيش، السياسة، التاريخ...
- ولكن ليس عن نفسك.
- ولكنني جزء من كل شيء، ولا أستطيع أن أفصل نفسي الآن.
- لا تستطيع أم لا تريد؟
- رأيت الإحباط على وجهه، كان من الصعب أن أظل غير مُبالٍ أمام هذا المنظر. فسحبت نظرتي من عليه، وسرحت بها بعيدًا لفترة. صببت لنفسي كأس نبيذ وشربتها.
- لا أعرف لماذا أتيت إذا كنت لا تريد أن تستمع لي؟
- ولماذا يجب أن أستمع لك؟ لقد ربَّيتني مُلحدًا، أيها الشيوعي الدموي، والآن تريد أن توعظني عن القدر؟ أنا لست مُهتمًّا بقدرك، أنا مهتم بك أنت.
- أنا؟
- نعم أنت، أنت فقط.

- أنا فقط؟

- أنت فقط.

- ليس هناك "أنا فقط".

غضب، ورفع صوته الرئان عفويًا، تردّدت كلماته الأخيرة في أرجاء المكان، حتى إن بعض الحضور نظروا إلينا. توقّف "نيدلكو" وأرّخى نظرتة. عرف أنه أثّر، فاستمر هادئًا لدرجة أنني بالكاد سمعته.

- حياتي هي الجيش، وأنا الجيش. لأنني أؤمن بالجيش مثلما يؤمن الناس بالرّب. أؤمن بذلك الجيش، والبلد الذي يمثله الجيش. أم أنك ترى أنه كان يجب أن نضع سلاحنا جانبًا، وندعهم يأخذون ما يريدون من بلدنا؟ أووه؟ كنت أعتقد أن الموقف يمكن أن يصبح تحت السيطرة. أن نجمع كل هؤلاء المُتمرّدين القوميين، ونستعيد السلام والنظام. لكنك قد تعي أن كل شيء أصبح خارج السيطرة، لقد فات الأوان. كانت هناك مصالح مختلفة لم نكن نعرف عنها في البداية...

- أرى أنك لا تستطيع أن تبتعد عن قصّتك.

- ولكنها قصّتي، قصّتي الوحيدة، أمثل هذه القصة حقًا.

وقفت، بالكاد أستطيع أن أعدل نفسي، ولكنني عزمت على الرحيل. اتكأت إلى الطاولة، أحاول أن أوازن نفسي، اصطدمت بالكأس، فانسكب النبيذ على الطاولة، ثم على الأرض. حضر الجرسون، ونظّف المكان، بينما حدّق "نيدلكو" فيّ صامتًا طوال الوقت، خائفًا من أن أتركه.

- ماذا بك؟

- قلت لك إنك لن تستطيع الابتعاد عن قصّتك، وأنا غير مهتم بها. وفي

الواقع لا أريد أن أسمعها.

- ولكن يا "فلادي"، ليس لديّ قصة أخرى.
- آخر مرّة ناداني بـ"فلادي" كنت في الخامسة أو السادسة، فعلاً كان يائساً، أردت أن أرحل.
- ما كان عليّ أن أحضر.
- والآن؟ هل سترحل؟
- نعم سأرحل.
- هكذا؟
- نعم.
- ستندم يا "فلادي".
- سأندم.

ابتعدت، وقع الكرسي على الأرض، انقلبت الكؤوس على الطاولة، تدرجت واحدة على الأرض وتهشّمت. تشبّثت بالحائط، أمسكت بالجرسون، والزبائن القريبين، وأخذت بالكاد طريقي لباب الخروج، بينما كان يصيح خلفي. لكنني لم ألتفت ورائي. كنت أعلم أنه ينبغي ألا أفعل، ولم أفعل. كنت سكراناً بما يكفي أن أقوم بهذا العمل البطولي. وبشيء من الحظ، كنت في الشارع. أعلم لو أنني كنت واعياً، لكنك التفت، ونظرت إليه، ولربما عدت له، واستأنفنا محادثتنا.

ولربما انتهى كل شيء بصورة مختلفة.





استيقظت بأسوأ مغص في المعدة وضغط على المثانة، كلاهما أخرجاني من نومي القلق. حدّقت في أقرب جدار، متسائلًا لفترة طويلة أين أنا. عندئذٍ فقط، تذكّرت صورًا من الليلة الماضية في مطعم "ستوماك" التي تسرّبت من عقلي كأنها كابوس انتهى الآن.

كانت "نادية" مُستلقية على السرير بملابسها، في انتظاري لأستيقظ. شيء ما في نظرتها أخبرني بأنه لا يمكن أن أخبرها بأي شيء عن ليلة أمس، وأنه لم يكن أكثر المساءات سلامًا بالنسبة لها. حاولت أن أتذكّر عودتي، ولكن الشوارع والمباني غير المألوفة لي تحرّكت أمامي، كأنني رُحْتُ أتجوّل في مناطق غير معروفة في المدينة. حاولت أن أجلس معتدلًا، ولكن هذه الحركة غير الضرورية تسبّبت في صداع فظيع.

- هل أنت بخير؟

- رأسي.

لم أستطع أن أقول أي كلمة، فالكلمات كانت مؤلمة، وقررت ألا أتحرك.
كنت في حاجة ماسة إلى الأسبرين، أو زجاجة ماء مُثلج، لم أكن قادرًا كذلك
في تلك اللحظة على أن أجزّ نفسي إلى الحمّام. أغلقت عينيّ، ورأيت "نيدلكو"
يقول لي "وداعًا". في الحال، غمرني شعور بالعار، طغى على ضعفي الجسدي.
لم أستحق هذا الشعور، هل كنت أنا الشرير في الليلة الماضية؟! لم أعرف
كيف أتفاداه. لقد رأيت خيبة أمل "نيدلكو"، ونظرته المُحِبطة أمامي، النظرة
التي أمطرتني بها بلا رحمة. وشعرت بالأسف من أجله.
الجنرال "بوروجيفيتش" لم يستطع أن يدافع عن نفسه أمامي الليلة
الماضية. لم يرد على هجومي، لعب دور الضحية الضعيفة البريئة، يحاول براءة
أن يستعطف رحمتي طوال المساء. كان مقتنعًا بأنه يقدر أن يكسبني بهذه
الطريقة، لذلك لم يرد على عدوانيتي المخمورة. ربما لم يفهمها، ولم يفهم من أين
جاءت، ولماذا. بدلاً من ذلك، راح يُحدِّق في عينيّ، ويسأل في صمت، لماذا أنا،
ابنه، لا أريد أن أكون في صفّه، ولا أريد حتى أن أسمع قصّته.
قصّته اللعينة، الكاذبة، القذرة، الشاذة، المدسوسة، الغبية، الخادعة، الزائفة.
القصة التي تقبّلتها بسهولة عندما حكّاها "أمير" و"دانيلو" و"بران" متفرقة، كما
لو كانت تحكي نفسها. كانت محبوبكة بمهارة، ومتماسكة أمامي، كأنها شخص ما
ألّفها لي بوجه خاص. أحسستُ بالخزي منها، لعدم كفاءتها، ولسذاجتي.
شعرت بالخزي لأنني أردت أن أصدّقها طوال الوقت، تلك القصة التي
قد تكون صُنعت من أجل الدفاع عن مجرم حرب أمامي. ربما خجلت

لأنني كنت أريد أن تكون هذه القصة حقيقية؛ من أول حرف لآخر حرف،
خجلت لأنني اشتقت في اللا وعي أن أفهم وأبّرر لأبي منذ البداية.

هذه هي الخطيئة التي حطت على وعيي في ذلك الصباح. في فترة ما،
انحزت دون وعي إلى جانبه، وتهيأت أن أصدق قدره. الجثث المتكومة،
الحقائق الخفية، تخفيف ألم القلب الخفي، الغضب الكامن الذي يمكنه أن
يُحوّل الإنسان إلى حيوان... كنت على استعداد لتصديق كل هذا.

خجلت من هذا الاعتقاد، وخجلت أكثر من السذاجة وعدم الإدراك بأن
المؤمن الأكبر بها كان يحكي لي القصة نفسها، في كل وقت. المؤمن الذي يريد أن
يقدم نفسه بأنه أكبر ضحية في القصة، والذي توقع مني أن أوافق عليها بصورة
عاطفية، وأقبل بلا شروط كل ما سبق ذكره، كما فعلت. تضايقت من نفسي،
وشعرت بالإحباط لأنني أُغويت وانسقت له بهذه السهولة، ووقعت في المصيدة
التي نصبها لي.

كان الغثيان يزداد سوءاً. أخيراً، اضطرت للحركة. لم تقل "نادية" شيئاً،
ولكنها مسدت على ظهري أثناء قيامي. في الحمّام، دفعت برأسي تحت الماء
البارد، وجعلت الماء ينساب على عنقي، ثم على الأرض. ثم شربته، تجرّعته آملاً
أن يخرجني من التعاسة التي أنا فيها، ولو على الأقل لثانية. لم ينفخ الأمر.
خلعت ملابسني ودخلت البانيو. لم يستطع جسدي المنهك أن يقف معتدلاً،
فجلست وتركت الماء ينساب على كل جسمي، سددت قُوّهة البانيو بقدمي
حتى لا يتسرّب الماء، وأخذت أراقب الماء وهو يرتفع ببطء.

لكن الإحساس بالخزي لم يتلاش، شعرت بأن جزءاً من كياني يخجل من
موقفي ككل تجاه هذا الأب الضائع، من مقاومتي أن أقف بجانبه بكل

قَوِّي، من أنني نظرت إليه في عينيه، ورفضته. رفضت الرجل الذي كان محور حياتي لمدة أحد عشر عامًا، والذي اعتذر لي بطريقته الخاصة عن كل شيء فعله بعد إحدى عشرة سنة. هذا الرجل حوصر تمامًا بجسد مجرم حرب، تمنى في النهاية أن أُصدّق القصة التي يحكيها لي. ولكنني لا أريد أن أُصدّق أي شخص ولا أي شيء.

سمعت طرقًا خفيفًا على الباب.

- هل أنت على ما يُرام يا "فلادان"؟

- سأكون أفضل حالًا.

لم يكن في نيتي أن أخرج من هذه الحالة المؤقتة. ما زلت أريد أن أُعيد ترتيب بعض الأفكار في رأسي المُصاب بالهوس. أفكار حوله، الآن تروح مِنِّي وتختفي في المجهول.

بالأمس، اعتقدت أنني عرفت كل شيء عن الرجل الذي كان أبي. والآن أدركت أنني لم أعرف أي شيء عنه. كل شيء تبعثر بالأمس في كثير من الشكوك والأسئلة. رجعت لبداية هذه القصة مرّة أخرى واستطعت أن أرى نظرة "نيدلكو" غير المُعبّرة في اليوم الذي انتهت فيه طفولتي. هل هذا الرجل عاش بعد هذا اليوم فعلاً؟ وهل كان هو المدعو "نيدلكو" حقًا؟ هل الرجل الذي جلس معي بالأمس في مطعم "ستوماك" هو نفسه الرجل الذي أخذني إلى السوق في "باولا" في ذلك اليوم شديد الحرارة في يونيو، واشترى لي آخر هداياه؟ كانت الأسئلة نفسها تظهر مرّة ثانية، ومرّة ثانية لا أجد إجابات. كنت في البانيو، منغلّقًا عليّ خلف باب الحمام في غرفة في فندق "وايلد بنسيون" بفيينا، واضعًا رأسي بين ركبتيّ ومُحدّدًا في الماء الذي يتجمّع حول قدميّ،

ارتعشت من البرد، ولكن أن أتحمّل البرد أسهل من أن أتحمّل الألم الذي خمد
لينتظرنى ويعود في الصباح، في أول يوم من حياتي الجديدة.



بعد دقائق عديدة، رأيت "نادية" أمام باب الحمام وفي يدها قُرْصان من
الأسبرين.

- خُذهما.

فعلت كما قالت، ورجعت إلى الحمام كي أبلع القُرْصين بالماء. خرجت
واستلقيت على السرير. ما زلت أشعر بأن الأرض تدور من حولي، وما زلت
أترنّح بلا اتّزان. جلست "نادية" بجوارى ووضعت يدها على صدري.

- أتريد الإفطار؟

- لا.

- ما رأيك في التمشية قليلاً؟ ربما الهواء النقي ينعشك.

هزئت رأسي بالنفي. فكل ما أريده شخص يستمع لي. للمرة الأولى في حياتي
أشعر جسدياً برغبتى في إخراج كل هذه المرارة التي تدفّ في صدري تحت يد
"نادية". يجب أن أتخلّص من ليلة أمس، كلمة كلمة، يجب أن ألفظها بعيداً
عني.

أخيراً، بدأت أحكي لـ"نادية" وأنا متألّم، لكن بشكل لا يخلو من
السُّخرية أيضاً. بدأت أحكي لها عن هذا الجلّاد المتعطّش للدماء، الذي
أقنع نفسه بأنه مجرد ضحية بريئة للقدر. المجرم الذي أراد أن يقنعني
ببراءته، وكاد يفعل ذلك، لأنه من السهل أن تقتنع بقصّة تُحيل كل
المسؤولية على قوّة خفية غير مرئية ولها قُدرة فائقة كالقدر. حكيت لها

عن إيمان "نيدلكو" بها، عن إيمانه كأنه خلاصه، بالنهج نفسه الذي يؤمن به الناس في مواجهة ما لا يستطيعون مواجهته بأنفسهم. كالموت على سبيل المثال، أو الخطيئة. أسررت لها أنني أعتقد أن قدر "نيدلكو" هو إلهه. وقلت إن "نيدلكو" أصبح مؤمناً آخرَ بين يدي الرحمن، الذي قاده لذلك، وسيغفر له كل خطاياها في النهاية.

- إذا كان إيمانه قوياً كما تقول، فهو لا يحتاج إليك لتؤكد له هذا.

- بالعكس، من الصعب أن يكون إيمانك قوياً من دون مساعدة.

أخبرتها أيضاً بالوداع الذي تنبأ به. حاولت أن أقنع "نادية" ونفسي، بأنه يستغل عاطفتي، وأنها لعبة أراد أن يلعبها ليلة أمس، ولكنها هزّت رأسها.

- ربما طلبك كي تساعد في أن يموت في سلام.

لم أجروء أن أقول هذه الكلمات على الرغم من أنها دارت في ذهني كثيراً. خفت لدرجة أنني لم أستطع أن أعترف بأن هذا هو الدور الذي كان مرسوماً لي بالأمس. خفت أن أدرك أن "نيدلكو" كان يتطلّع لي كشخص يمكن أن يقوي اعتقاده بأنه كان مجرد عروسة "ماريونت" صغيرة، لا حول لها ولا قوة، مُعلّقة بخيط عظيم من التاريخ يُحرّكها. خفت من إدراك أنه أراد أن أتفهّمه فقط ليُبّرّر نفسه أمام نفسه، لتهدئته وإرضائه وإعداده للموت، الموت الذي تنبأ به لي.

- وعلى حسب ما فهمت أنك لم تفعل ذلك بالأمس كي تساعد، بل العكس تماماً.

- أهو أمر طبيعي أن تساعد مجرم حرب ليموت في سلام؟ حتى إن كان

مجرم الحرب ذاك والدك؟

أخيراً ساعدتني "نادية" - وربما دون أن تعرف - لأصل إلى سؤال شغلني طويلاً أنطق به، ولكنها ظلت صامتة، كأنها تريد أن تخبرني بأني الوحيد الذي يمكن أن يسأل نفسه هذا السؤال، وأني الوحيد القادر على إجابته.



حَمَلْنَا القطار ببُطءٍ إلى بيتنا، لنعود إلى حياتنا اليومية؛ هي إلى أحيائها المجهرية وأنا إلى صيانة الماكينات والمحاضرات التي تأتي عَرَضًا. صرنا مُهَدَّدين مُجَدِّدًا بالحياة العادية التي لم نعرف كيف نعيشها قبل سفرنا إلى فيينا، وربما كان هذا اختبارًا لنا من جديد. جلسنا وجهًا لوجه، وأحسستُ أن عقلينا يتجولان في الأيام التالية، عندما نكون بمفردنا مرّةً أخرى، وعلينا أن نحارب الصمت الذي بيننا. أحسستُ بأن "نادية" تسأل نفسها لو لم يكن هذا القطار سيُعيدنا إلى المكان الذي نهرَّب منه، المكان الذي حاولت أن تحدّثني فيه، ولكن بلا جدوى.

- "فلادان"...

هذا هو "فلادان" الذي لم يعد بشيء جيد "فلادان" الذي أخافني، "فلادان" الذي كان شيئًا ينتهي ما بعده.

- كنت أفكر... قرّرت أن أذهب إلى منزل والدي. على الأقل هذه الفترة... موضوع والدك... كان كثيرًا عليّ. أتمنى أن تتفهّم... ربما بعدما نأخذ فترة راحة من كل شيء... أريد أن نبدأ من جديد. من الصفر. ليس الآن، ولكن بعد أن يستقر كل شيء. عندما تستقر أنت، وأستقر أنا على كل شيء. ربما نُحاول مرّةً ثانية. ولكن الآن أريد أن أذهب إلى بيت والدي لفترة.

بدلاً من الإجابة، بدأت أُخَمِّنُ أي فترة من الصمت حطّمت قصّتنا. أخذت أُفكّر وأسترجع الزمن، أتخيّل لو أن ما حدث لم يحدث فكيف كانت ستصبح النهاية؟ لكن لم أستطع أن أعترض، فبعد كل ما فعلته من أجلي، لا أمتلك الشجاعة لأطلب منها أن تُضحّي بنفسها من أجلي أكثر من ذلك. من أجلنا. على الرغم من أنني أردت ذلك أكثر من أي وقت مضى، فقد كنت خائفاً جداً من أن تتركني وحيداً. كانت "نادية" تنظر من النافذة وتبكي، وتمنّيت لو أبكي معها، كي أريها أنني أهتم، أنني ممنون، أنني مخلص. في تلك اللحظة، اكتشفت أنني لم أحب شخصاً بقدر حبي لها، وأصررت ألا أدعها تختفي من حياتي، مثلما فعلت مع كل فرد أحببته قبلها. سأتركها تذهب، ولكن لن أتركها تظل بعيداً. كنت أخبر نفسي بذلك، وإن كنت لا أُصدّق. لا أُصدّق أنني أستطيع إرجاعها لحياتي مرّةً أخرى. ازداد خوفي، وبدأت أخاف من جديد. بعد "نادية"، لم أستطع رؤية أي شيء؛ لأنه بعد "نادية"، لا وجود لشيء. أردت على الأقل أن أشكرها، أشكرها على كل ما فعلته معي. أو على الأقل أعتذر. أخبرها بأنني أتفهم أنها صغيرة، أنني أعرف بأنها طفلة تحتاج إلى الرعاية والحب. لكن بدلاً من ذلك، رحنا نغرق في صمتنا الأخير.





بعد فترة طويلة، استيقظتُ وحيداً من نومي، وحدثتُ نفسي في هذا الفراغ القاتل الذي دفعني بعيداً عن أفكارتي التي حاولت تجميعها بلا جدوى. شعرتُ بأنني ظهرت تَوّاً في هذا العالم، من دون ذكريات أو انطباعات. كل شيء جديد، ولكنني أرقد هنا دون آمال، أو رغبات، ودون أي اشتياق لمعرفة ما ينتظرنني. لم تعد مدينتي تمتدُّ أبعد من جدران هذه الغرفة. بالنسبة لي، هناك فراغ أوسع من ذلك الذي أحاصر فيه.

فكّرتُ مرّات لا تُحصى في أن أرحل، ولكن لأن "نادية" لم تعد معي، أدركتُ أنه لا شيء سوى الخوف يجعلني ماكثاً في "ليوبليانا". خفتُ من إدراكي أن كل المدن في هذا العالم تتساوى في الغربة، وأن الناس أنفسهم يسرون في كل مكان. ناس لا تعرفهم، كما لا أعرفهم في هذه المدينة. ستظل "ليوبليانا" بالنسبة لي مدينة الغُرباء المألوفين. فهنا، حيث بيتي، لا يفتقدني أحد. خير دليل على هذا تليفوني الذي لم يرن لمدة أربعة أيّام وخمس ليالٍ منذ أن اتصلت بي "نادية" آخر مرّة.

كنا نتحدّث أنا و"نادية" في التليفون بين الحين والآخر. كانت المحادثات عن الامتحانات، وحياتها المنزلية، وعن ماكينات البيع، وعن الطقس، عن كل شيء، ولا شيء. محادثات طغى فيها الصمت على الكلام. لم تذكر "نادية" أي شيء عن علاقتنا؛ إذ كانت قد انتهت بلا رجعة، ولم أخبرها عن مدى رغبتني في عودتها. أعلم أن قصّتي أخافتها، ولكن أعلم أنني لا أستطيع أن أبعث فيها الطمأنينة، ولذلك ستكبر مخاوفها معي.

لم أكن من النوعية التي تُكوّن علاقات مع الناس. كانوا يبتعدون عني تدريجياً بشكل غير ملحوظ، حتى تركوني نهائياً. غير أنني لم أشعر بالهجر إلا معها... "نادية" اقتربت مني، كما لم يقترب مني أحد من قبل، ولكن لا أعرف كيف أظهر لها هذا. ولا أعرف كيف أخبرها بذلك، ومع كل علاقة انتهت في الماضي، يكون الا منطوق أنقل وغير مُحتمل. لذلك توقّفت عن الاتصال بها، وأعلم أنها ستوقّف عن الاتصال أيضاً لتوها. أخيراً، تستطيع أن تتغلّب على أي شيء، ولكن لا تستطيع أن تتغلّب على نفسك. بدأت أقتنع أن كلاً منّا مُقدّر له أن يكون نفسه، هذا كل شيء.

منذ عودتي من فيينا، غالباً ما أقرن نفسي بـ"نيدلكو"، أتعرّف إلى نفسي فيه، وأتعرّف إليه فيّ، وكثيراً ما أفكّر في أننا متشابهان. فهو مجرم حرب هارب، وأنا بطل منبوذ، ولكنني مقهور بإحساس أن حياتي تعاقبني بالأسلوب نفسه الذي عاقبته به حياته. كلانا يتخفّى من الناس، محصورين في المتهاتات المظلمة لعالمنا الداخلي، كأننا ننفذ العقوبة نفسها. فكّرنا كثيراً في أن جرمته جرمتي، وأنقبّلها ببطءٍ، مثلما تقبّلت كل شيء جلبته لي الحياة على مدى السنين.

كنت أعود إلى شقّة "توميسلاف زدرافكوفيتش" في "برتشكو" كل يوم، وأشعر كأن شخصاً ما حبسني فيها ونسيني. أحسُّ أن وحدة "توميسلاف" العظيمة ابتلعتني، اعتدتُ أن الناس المطاردين بخطايا عظيمة مثلي، ومثل "نيدلكو"، يسقطون في مثل هذه الوحدة. ولكن الآن، وأنا أتجوّل حول مخبأ "نيدلكو" الخالي، وأبحث بلا جدوى عن مخرج، أدرك أن هذه الوحدة هي الميراث المُدْمَر، وأنها تدريجيّاً ستصبح وحدة لنا جميعاً، نحن الذين سنظل بعدما يرحلون، ونحلم ببراءتنا.



في صباح أحد الأيام، استيقظت من هذه الوحدة على صوت "دوشا".

- "فلادان"، هل سمعت؟

كان ذلك كأنني أتلقّى مكالمة من "دوشا" من ماضٍ بعيد. صوتها صوت أمّي. ليس لأنها تستخدم اللغة الصربية الكرواتية هذه المرّة، ولكن لأن شيئاً ما في هذا الصوت يبدو كأنه يتّصل من ذاكرتي غير الموجودة، كما لو أن "دوشا" أصبحت أمّي مرّة أخرى.

- لا، ماذا؟

- "نيدلكو"... قتل نفسه... يقولون ذلك... إنهم وجدوه... هذا الصباح...

مميّناً في فيينا.

ومضت صورة "نيدلكو" أمام عينيّ للحظة، ثم اختفت على الفور، وتلاشى كل شيء. مرّرتُ يدي على السرير كي أتأكد أن العالم كما تركته.

- آلو، "فلادان"، أسمعني؟ أخبروني...

- سمعت.

سكنت "دوشا" وأدركت أنها لا تعرف ماذا تقول. عندما مات "نيدلكو" في المرة الأولى، لم تقل شيئاً. ولكن الآن أسمع النبرة المرتعشة التي تنمُّ عن شخص يوشك أن يبكي. لقد تراءى لي أنه الموت الأول بالنسبة لها، ولا يمكن أن تتغاضى عنه كما تغاضت عندما مات "نيدلكو" بالنسبة لي وحدي.

أعلم أن "دوشا" أحبَّت "نيدلكو" بطريقتها الخاصة، ربما بالقوة نفسها عندما كان يأتيها بوردة ويده مجروحة، على رصيف رقم 2 في محطة "باولا". فجأة، سمعت بُكاءها في التليفون. حزنت لها، حزنت لأُمِّي التي لا يمكن أن تُظهر حزنها أمام أحد غيري، حزنت لها لأنها الآن تستطيع أن تبدأ حياتها الجديدة، وقد مرَّت أشياء كثيرة بلا رجعة، تستطيع أن تبدأ حياتها مع "دراجان" و"ملاذن".

لذلك، على نحو غريب، اعتبرت أن مكالمتها هذه هي الوداع. عندما تنتهي من الدموع، ستنقطع آخر علاقة غير مرئية بيننا، التي فصلت بيننا وجمعتنا طوال هذه السنين، سينفصل كل منَّا عن الآخر. سنعيش أخيراً في عالمين مُوازين بعيدين، وسنكون قادرين على ألا يُظهر كل منَّا الألم للآخر. عندما تفرغ من دموعها، ستكون هذه هي النهاية بيننا، ولن ننظر إلى الخلف. ستقول وداعاً، وأقول وداعاً، وستكون النهاية، إلى الأبد. سبعة عشر عاماً، لم تأخذ أبي بعيداً فقط، بل أخذت أُمِّي أيضاً. عندما تنتهي من دموعها، ستكون تلك النهاية، وللأبد، نهاية أسرة "بوروجيفيتش".



في هذه اللحظة، أسمع فجأة "لوزا" - "أمير موزيروفيتش" - يصيح بلهجته البوسنية:

- اللعنة على يوغوسلافيا... يا رب!

أرى نفسي في ضباب غامض، أسأل أمي في صمت ماذا يعني هذا الكلام. ثم أرى بعد ذلك "دوشا" تشرح لي بأنها ربما كلمة ورثناها من اللغة التركية، وأنا سنعرف كثيراً من هذه الكلمات العثمانية المتبقية عندما نقرأ عن البوسني الفائز بجائزة نوبل "إيفو أندريتش" في المدرسة.

يجلس بجوارنا ثلاثة أصدقاء سابقين، "نيدلكو" و"أمير" و"بران". بعد ضربة جزاء ضائعة من "فاروق هادزيبجيتش"، في الدور رُبع النهائي في بطولة العالم، جلسوا أمام التلفزيون، كما لو أنهم ينتظرون المباراة كي تستمر، وتأخذ يوغوسلافيا فرصة أخرى.

سمعت "أمير" يصيح:

- هذه شخصيتنا بالنسبة لكم، وهذا سيُدْمِرنا كلنا في يوم من الأيام. كان بإمكانه أن يبصق على أي واحد يشاء، كان يمكنه أن يبصق على "بوروتشاجا" من رأسه إلى قدميه، كما فعل لاعبنا "رفيق" في كأس العالم، وتظاهر الحكم بأنه لم يره. ولكنه اضطر أن يبصق على "مارادونا". لأن "بوروتشاجا" يمكن أن يبصق عليه أي واحد، ما عدا هو "رفيق شابانادزوفيتش"، البوسني الحقيق، يمكنه أن يبصق على "مارادونا".

- كنت سأتفهم لو أنه بصق على صورة "تيتو"، ولكن ليس "مارادونا".

فتجرأه على كُرة القدم، كمن... كمن يتعدى على الرب!

يرنُّ صوته في أذني، أُحَدِّق في "نيدلكو"، وهو يصبُّ كأس شنايز "بلوم"

ويقول:

- هكذا نحن بالنسبة لك يا "لوزا". نتعدى على الرب، ثم تنعكس النتيجة،
ونندهش.

أُحدِّق في عينيه الدامعة وأسمع "دوشا" تقول الشيء الذي ما كان ينبغي أن
تقوله في تلك اللحظة:

- متى البطولة القادمة؟

فيصرخ "نيدلكو" في رأسي:

- أي بطولة؟ لن تكون هناك بطولات! انننننننننتهئى!

حتى "أمير" كان هادئًا في غرفة المعيشة، مُحدِّقًا في صديقه المُقرب، بينما
"بران ستانيزيتش" انتفض من كُرسِيه، حتى إنني رأيتُه بوضوح يمسح آخر
دموعه اليوغوسلافية. بينما تميل أُمِّي الكأس إلى شفيتها وتقرب من أي
وتحتضنه برقة. ودون أن يُقاومها، يمدُّ ذراعيه حول رأسها ويضمُّها إلى صدره.
أرى أُمِّي تشير إليَّ بأن أنضمَّ لهما، فيأخذني أبي في حضنهما ويضغط عليَّ بيده
القوية. هكذا وقفنا نحن الثلاثة هناك، يعتصر بعضنا بعضًا، بابا يعتصر ماما،
ويعتصرني أنا بشدةٍ أكبر، ويقبِّل كلاً منَّا بالتناوب. أضع رأسي على صدره وأسمع
دقات قلبه "دوم تك، دوم تك، دوم تك..."

الصورة البعيدة الباهتة لثلاثة أشخاص يتعانقون في شقَّتنا في "باولا" تزداد
قوة شيئًا فشيئًا، وتوضح أكثر. فجأة، أشعر بشخص منهما يحتضنني بقوة، ويميل
رأسي على صدرهما، حتى كدت لا أستطيع التنفُّس، وكأنَّ الهواء انحبس بين
أجسادنا.



أحاول أن أبعد هذه الصورة الخائفة في ذهني، بدأت أستمع باهتمام
لـ"دوشا" وهي تشهق من جديد:

- "فلا..

- نعم.

بدأ النفس يزداد عُمقًا وطولًا، أصبح كل شيء هادئًا، إلى أن أصبحت أمِّي،
في الطرف الآخر من الخط، غير مسموعة بالمرّة. لست أدري إذا كانت قد
أغلقت الخط، أو أنها استنزفت كل دموعها.





- لقد حَقَّقَتْ له أمنيته الأخيرة و ينتظره الآن كل شيء، كما قال بالضبط.
 بينما كنت أسير بين المقابر في المدافن البحرية الشهيرة في "باولا"، أبحث عن اسم "توميسلاف زدراكوفيتش"، الاسم الذي أخفى والذي من جرائمه في الفترة الأخيرة، كلمات "لوزا" ترنُّ أعلى وأعلى. لم أطرح أي أسئلة على هذا الرجل الذي اتصل بي ليخبرني بأن أبي مدفون هنا، في هذه المدافن، ولكن أعتقد أن هذه كانت آخر أمنية يُحَقِّقها، الكابتن "أمير موزيروفيتش"، لـ "نيدلكو بوروجيفيتش".

بعد أن دفنه صديقه - الذي ساعده في الاختباء عن محكمة "لاهاي" الدولية لسنوات عدَّة - في مقبرة تذكارية تحميها اتفاقية لاهاي، مات أيضًا "لوزا". على الأقل الصحف تقول إنه مات، ولكن أعلم أنه قتل نفسه. ولكن هذا لا يهم؛ لأن "توميسلاف زدراكوفيتش" يرقد هنا، بفضل، في مكان ما لا يبحث فيه الإنسان عن سلام دائم، ولكن ربما هو المكان الوحيد

الصحيح له. هنا، بين جنود من جيوش كثيرة، بأرواح ضحاياهم العديدة، تراقبهم، بينما عدم السلمية تنتظر النسيان والمغفرة من التاريخ.



تسحبني اليوم قوة خفية تجاه مقبرة "أوجست ريتز فون تراب" و"هيدفيجا فيلبر". عندما وقفت أمامها، تذكّرت أنني وقفت هنا ذات مرة، معه.

- هنا يا "فلادان" يرقد جدُّ وجدَّة الأطفال الذين في الفيلم.

سمعته وأعلم أنه يقصد فيلم "صوت الموسيقى"، الفيلم الذي شاهدناه بالأمس. لم أصدِّقه؛ لأنني أعلم أن أبي يحب تأليف القصص، لذلك انتظرت أن تتسلَّل ابتسامته إلى وجهه العبوس لتفشي بأنه يمزح، ولكنه هذه المرَّة يتجاهل نظرتي المترتبة، ويخبرني بأن مسقط رأسي غالبًا في مدينة مساوية، وأن كثيرًا من الجنود الذين خدموا بلدهم مثله يُدفنون هنا. وقال:

- هذه لم تعد مقبرة بعد الآن، إنها نصب تذكاري كبير.

لا أفهمه، لأن هناك مقابر كثيرة في كل مكان، ولا وجود لنصب تذكاري، ولكنه يستمر في قوله إن الجنود يجب أن يُدفنوا هنا؛ لأن هذا سيواصل التاريخ العسكري الثري لهذه المدينة، جاعلاً من هذه المقابر نصبًا تذكاريًا شهيرًا وضخمًا جدًّا.

ما زلت صغيرًا على قصص القبور والانتقال، وكل هذه الأيام الآتية بعدنا. سبَّبت كلماته لي قشعريرة، ولكنه استمر في الكلام بأن أسماء الموتى تخبر بكل شيء، وأنه عندما جاء إلى "باولا" في المرَّة الأولى، ذهب مباشرة إلى المقابر ليعرف أين هو بالفعل. وقال:

- شعبنا ليس هنا على الإطلاق، فهناك نمساويون، وألمان، وإيطاليون، وتشيكويون. هذا تاريخ بالنسبة لك يا "فلادان". اليوم نحن هنا، وغداً سيكون غيرنا.

ثم شردت أذهاننا ونحن ننظر إلى مقبرة "أوجست" و"هيدويجا"، أبوي "جورج"، وبدأ لحن من الفيلم يرنُّ في رأسي، لكنني أعرف أنه لا ينبغي أن أُصَفَّر في المقابر. حتى لو كانت نصباً تذكاريّاً، وليست مقابر.



إنه قبر صغير، يُرى بالكاد، مخفي عن الأعين الفضولية للزوّار غير المعنيين. لا توجد صورة، ولا تاريخ، ولا اسم بلا شك. فكّرت للحظة وأنا واقف بجواره، هذا ليس قبر أبي. نظرت حولي خوفاً من أي شخص يلمحني، فيكشف عن قبر مجرم حرب مُخْتَفٍ. يرقد هنا "توميسلاف زدرافكوفيتش"، أقرؤها ثانية، وأسمع صوت أبي المخمور ثانية، يخترق غرفتي ذات مرّة، في منتصف الليل، يُقاطع محاولاتي للنوم... "عشت في قاع الحياة، والجحيم والهاوية" كم مرّة سمعت هذه الأغنية، وكم سمعت أمي تهمس له:
- بهدوء يا "نيدلكو"، بهدوء، "فلادان" نائم.

منذ أن أخبرتني "دوشا" بأن "نيدلكو" مات، وأنا أراه بكثرة. أراه وأراها أيضاً، و"أمير" و"إنيسا"، وكل شخص هناك. على الرغم من أن الجو بارد في الخارج فإنني أحسُّ بأن الصيف قادم. يمكنني سماع "ماريو" وهو يهمس في دروس الإيطالية بأن أباه وعده بأنه يمكن أن يذهب بالقارب بمفرده إلى جزيرة "فراتاريسكي"، وأنه يمكنني أن أذهب

معه. تقريبًا الجو صيف، أشعر بذلك، أتذكّر كل يوم على الغداء "نيدلكو" يكرر السؤال نفسه:

- ماذا عن ذهابنا إلى جزيرة "كريس" أو "لوشينج" هذا العام؟
لم نكن أنا وأمّي متأكدين إذا كان يعني ذلك، لذلك لا نرد. ويستأنف أثناء صبّ الشوربة في طبقه:

- لم نذهب إلى جزيرة أبدًا.
أتمنّى لو أنه يقصد ذلك، ونذهب إلى جزيرة، وانتظر الصيف، الذي سيبدأ في أي يوم الآن. لقد حل شهر يونيو، وحن أن تخرج أمّي من الدولار ملابس وأدوات البحر.



بدأ الظلام، ما زلت واقفًا عند مقبرة "نيدلكو"، أفكر. بعد سبعة عشر عامًا، ما زلت أنتظر ألا ينتهي يونيو، وأن يبدأ صيف جديد في "باولا". أشعر أكثر وأكثر أنني ما زلت الصبي الذي ينتظره في الغرفة 211 في فندق "بريستول" حتى يعود. الصبي الذي ينتظر أن يعود إلى "باولا"، حيث ينتظره أصدقاؤه بالقارب، وسوف يأخذه أبوه إلى جزيرة "كريس" أو "لوشينج"، أو لجزيرة أكبر، أكبر من جزر "بريوني"، أكبر بحيث لا تتخيّل أنها جزيرة. ذهب "سينيشا" إلى عمّته في جزيرة "كريك"، وأخبرني بأن كل شيء هناك مختلف عن هنا، في الساحل.

أفكّر في أصدقائي القدامى، أنساءل أين هم الآن، وماذا يفعلون، وأنذكّر كيف ضربنا مؤخرة "فريد" السمين بالنّبلّة، وأقنعناه بأنه دُبّور، فأسرع "فريد" إلى بيته خوفًا من أن يُصاب بحساسية. أوّد أن أضحك الآن، ثم

أفكر في أن "سينيشا" و"ماريو" أقدم صديقين لديّ، ينتظرانني في الحديقة الخلفية، خلف المتجر - لمدة سبعة عشر عامًا - لتقابل ونذهب معًا إلى منطقة سباحة "فالكان" بعد الغداء. إنها نصف ساعة مشيًا من عمارتنا إلى البحر، أتذكّر "ماريو" يعد بأنه سيأخذ كوتشينة أخيه، بينما وعد "سينيشا" بأنه سيحضر كرة مطّاطية لمباراة كرة يد في الماء. لمدة سبعة عشر عامًا يجلسان على السُّلم أمام عمارتنا، والقوط حول رقبتهما، في انتظاري.

أسأل نفسي: "هل انتهى كل شيء الآن؟ هل يمكنني أخيرًا أن أعود إلى البيت وأذهب معهما إلى الشاطئ؟ هل سيبدأ صيفي؟". أتساءل، وأنا أحدّق في قبر أبي، وكأنني أنتظر الإجابة.

ولكن لا يرد "توميسلاف زدرافكوفيتش".

ولا "نيدلكو بوروجيفيتش".



تقسيم يوغوسلافيا تواريخ مهمة تتعلق بالرواية

1990/6/30

خسرت يوغوسلافيا أمام الأرجنتين في ربع النهائي لكأس العالم لكرة القدم. وفيما بعد قالت بعض الآراء إن الفوز بكأس العالم كان سيُبقي على وحدة بلد مثل يوغوسلافيا.

1991/6/25

أعلنت سلوفينيا الاستقلال. ولسبب ما، يعتقد بعض الناس أن هذا هو السبب الرئيسي فيما عقب ذلك. وعلى النقيض من ذلك، في سلوفينيا يبدأ التاريخ من هذه النقطة.

1991/6/25

أعلنت كرواتيا الاستقلال. بينما كان كل فرد تقريبًا في سلوفينيا مؤيد للاستقلال، كانت الأقلية الصربية الكبيرة في كرواتيا غير سعيدة تمامًا بالانفصال عن صربيا.

من 6/26 حتى 1991/7/7

حرب العشرة أيام في سلوفينيا. هناك لقطة شهيرة في التلفزيون لجندي شاب يحاول أن يفسر سبب الحرب: "إنهم نوعًا ما يريدون الانفصال، ونحن نوعًا ما لا نسمح لهم بذلك".

1991/11/18

سقوط المدينة الكرواتية الشرقية "فوكوفار" ألحق الجيش اليوغوسلافي، أو بالأحرى الصربي، الهزيمة بالجيش الكرواتي ودمر المدينة والعديد من سكانها على طول الطريق. ومن ثم كان للحرب البلقانية، شأنها شأن أي حرب متميزة، كل شيء؛ بما في ذلك معسكرات الاعتقال.

1992/4/5

انتهت آخر جولة للسلام في "سرايفو" بقتل كل من "سوادا دوبروفيتش" و"أولجا سوسيتش" على يد القناصة الصربية. بعد ذلك مباشرة، أصبحت "سرايفو" تحت حصار عسكري لمدة ثلاث سنوات.

1995/7/11

سقوط المدينة البوسنية "سريبرينيتسا"؛ إذ دخل الجيش الصربي بقيادة الجنرال "راتكو ملاديتش" منطقة من "سريبرينيتسا" تقع تحت حماية الأمم المتحدة، وقتل على مدى الأربعة أيام التالية أكثر من 8 آلاف مواطن.

1995/12/14

وقع كل من "سلوبودان ميلوشيفيتش"، و"فرانجو تومان"، و"علي عزت بيغوفيتش" في باريس اتفاقية السلام التي تمت مناقشتها من قبل في "دايتون"، ولكنهم جميعًا ماتوا قبل أن ينالوا بسببها جائزة نوبل للسلام.

1999/3/24

بداية قصف "الناتو" لـصربيا. وكان هذا أول عمل يقوم به حزب "الناتو" في أوروبا، وكان أيضًا آخر فصل من حروب البلقان.

2001/6/28

تم ترحيل "سلوبودان ميلوشيفيتش" إلى المحكمة الجنائية الدولية في "لاهاي"، ومات الرئيس الصربي في السجن بسكتة دماغية قبل أن تصدر المحكمة حكمها عليه.

2008/2/17

أعلنت كوسوفو الاستقلال. وهذا هو آخر جزء من يوغوسلافيا يعلن استقلاله. ولكنها ما زالت في انتظار الاعتراف الدولي بها.

2008/7/21

تم إلقاء القبض على "رادوفان كاراديتش". كان "رادوفان كاراديتش" طبيبًا نفسيًا وشاعرًا قبل أن يصبح مجرم حرب؛ وكتب شعرًا للأطفال.

2011/5/26

تم اعتقال "راتكو ملاديتش". وقبل ترحيله، سمحت له السلطات الصربية بزيارة قبر ابنته التي ماتت منتحرة.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. اسمي نور إلسا أوسوريو الأرجنتين
2. كلي لك كلاوديا بينيرو الأرجنتين
3. أرامل الخميس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
4. جريمة في بوينس آيرس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
5. نقطة الصفر ناريج ماليان أرمينيا
6. مشروع روزي جرايم سيمسيون أستراليا
7. علاقات دولية إلبيت إلبكا ألبانيا
8. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية إنجو شولتزة ألمانيا
9. لأننا في مكان آخر رشا الخياط ألمانيا
10. حب كالأفلام فيكتوريا فان تيم أمريكا
11. أفلام في قصص مجموعة مؤلفين أمريكا
12. الثلاثة سارة لوتز إنجلترا
13. اليوم الرابع سارة لوتز إنجلترا
14. الموت والبطريق أندريه كيركوف أوكرانيا
15. تاتي كريستين دوير هيكي أيرلندا
16. جريمة الساحر أرنو ثورارينسون آيسلندا
17. شركة الحب المحدودة أندريه سنار ماجنسون آيسلندا
18. الحب لم يعد مناسباً ميلا فينتوريني إيطاليا
19. حذارٍ من جوعي لوتشانا كاستيلينا إيطاليا
20. سارق الجثث باتريسيا ميلو البرازيل
21. امرأة في حقيبة رافاييل مونتيز البرازيل
22. بيتنا في إزمير تاتيانا سالم ليفي البرازيل
23. كابوس ساو باولو أنطونيو شيرشينيكي البرازيل
24. مقبرة البيانو جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
25. نيزك في جالفائش جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
26. الأثر المقدس إيسا دي كبروش البرتغال
27. الأشياء الماضية برونو فييرا البرتغال
28. أن تأتي متأخراً ديميتري فيرهولست بلجيكا
29. صانع الملائكة شتيفان بريجش بلجيكا
30. مخاوفي السبعة سلافيدن أفيدتش البوسنة

| | | | |
|-----|------------------------------|------------------------|--------------|
| 31. | جامع الكتب | جوستابو فايرون باترياو | بيرو |
| 32. | أبسنث | أيفر تونش | تركيا |
| 33. | أحلام محطة | بيولانت سينوكاك | تركيا |
| 34. | ارحل قبل أن أنهار | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 35. | امرأة صديقي | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 36. | توباز | هاكان جنيد | تركيا |
| 37. | ثلاثة على الطريق | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 38. | جرمة في البوسفور | أسمهان أيكول | تركيا |
| 39. | جرمة في إسطنبول | أسمهان أيكول | تركيا |
| 40. | خطايا الأبرياء | برهان سوئميز | تركيا |
| 41. | ديستينا | ماين كيركانات | تركيا |
| 42. | الشیطان امرأة | هاندي ألتايي | تركيا |
| 43. | الصلوات تبقى واحدة | تونا كيرميتشي | تركيا |
| 44. | لون الغواية | هاندي ألتايي | تركيا |
| 45. | مينتا | سولماز كاموران | تركيا |
| 46. | نساء إسطنبول | مجموعة قصصية | تركيا |
| 47. | سحر | صلاح الدين دميرتاش | تركيا |
| 48. | المزيد | هاكان جنيد | تركيا |
| 49. | الرجل الذي باع العالم | ألير چانچوز | تركيا |
| 50. | المدینة ذات العباءة القرمزية | أصيلي إردوغان | تركيا |
| 51. | جرائم برج | ميلوس أوربان | التشيك |
| 52. | معسكرات الشيطان | يواقيم توبول | التشيك |
| 53. | حدث في كراكوف | بيترا هولوفا | التشيك |
| 54. | حُفظت القضية | باتريك أورشانديك | التشيك |
| 55. | دبتوكس | سوزانا بربانتسوا | التشيك |
| 56. | سرادق طائر البطريق | إميل هاكل | التشيك |
| 57. | كافكا | فرانز كافكا | التشيك |
| 58. | المواطن فانيك | فاتسلاف هافل | التشيك |
| 59. | احذري يا أنا | ماريك سينديلكا | التشيك |
| 60. | المبعدون | أوجنين سباهيتش | الجيل الأسود |
| 61. | العقل المدبر | دافيد أوجتر | جواتيمالا |
| 62. | بال خال | أولجا سلافينكوفا | روسيا |
| 63. | رسائل سبتمبر | بيروني رحيم | زيمبابوي |

| | | |
|----------|---------------------|------------------------------|
| سلوفاكيا | أورشولا كوفاليك | 64. امرأة للبيع |
| سلوفاكيا | مجموعة قصصية | 65. خلف طاحونة الجبل |
| سلوفينيا | جوراي فوينوفيتش | 66. يوغوسلافيا.. أرض أبي |
| سويسرا | ميرال فريشي | 67. الحياة هنا |
| سويسرا | يونا لوشر | 68. ربيع البربر |
| سويسرا | يونا لوشر | 69. كرافت |
| الصين | شيو تسي تشين | 70. بكين.. بكين |
| الصين | بي ماي | 71. بنات الصين |
| الصين | تشيه زيه جيان | 72. الربيع الأخير من القمر |
| الصين | جوو دا شين | 73. رحلة الانتقام |
| الصين | بي ماي | 74. سبع ليالٍ في حدائق الورد |
| الصين | يركسي هولمانبيك | 75. النجمة الحمراء |
| الصين | جين رن شون | 76. رقصة الكاهنة |
| الصرّب | فلاديمير بيستالو | 77. الألفية في بلجراد |
| فرنسا | إريك نويوف | 78. المغفلون |
| فرنسا | صوفي إناف | 79. جريمة في باريس |
| فرنسا | ماهير جوفين | 80. الأخ الأكبر |
| فنلندا | آي أوليكائين | 81. المجاعة البيضاء |
| فنلندا | صوفي أوكسانين | 82. التطهير |
| فنزويلا | ميجيلا بودوين | 83. اعترافات مؤجلة |
| كولومبيا | إيكتور آباد | 84. النسيان |
| كولومبيا | سانتياجو جامبوا | 85. أين أنتِ؟ |
| كندا | أليس كويبرز | 86. حياة على باب الثلجة |
| مقدونيا | إيرميس لافازونافسكي | 87. صانع الزجاج |
| مقدونيا | بلايز ماينفسكي | 88. القثّاص |
| مقدونيا | توميسلاف عثمانلي | 89. الواحد والعشرون |
| مقدونيا | أليكساندر بروبوكيف | 90. القزم |
| المكسيك | خيسوس ريكاردو فيلكس | 91. د. مينجوس.. الأخ الأكبر |
| النرويج | إنجفار أمبيورنسون | 92. إلينج |
| النرويج | روي ياكوبسن | 93. صيف بارد جداً |
| النمسا | ميلينا ميشيكو فلاشر | 94. سميته كرافتة |
| النمسا | فريديريكا جيزفايز | 95. حرية حزينة |
| النمسا | ألوت تينا شميت | 96. ف.و.م.و. |

| | | |
|---------|---------------|---------------------|
| الهند | روبا باجوا | 97. دگان الساري |
| هولندا | تومي فيرينيجا | 98. جوي سيدبوت |
| هولندا | هيرمان كوخ | 99. العشاء |
| هولندا | هيرمان كوخ | 100. المنزل الصيفي |
| هولندا | تومي فيرينيجا | 101. تلك الأسماء |
| كرواتيا | ماريا تاسلر | 102. عقيدة الأغنياء |
| ويلز | لويد ميركام | 103. أفكار سيئة |
| ويلز | جاري ريموند | 104. أيتام ذهبيون |

صدر من كتب عامّة:

- | | | |
|----------|-------------------|---|
| ألمانيا | جيرالد هوتز | 105. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟ |
| ألمانيا | هوبرتس هوفمان | 106. قانون التسامح |
| ألمانيا | فولفجانج باور | 107. هاربون من الموت |
| ألمانيا | فولفجانج باور | 108. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام |
| ألمانيا | كريستوف بيترز | 109. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات |
| أمريكا | روبرت ماكنمارا | 110. الهاشميون وحلم العرب |
| أيسلندا | جون جنار | 111. الهندي الأحمر الأيسلندي |
| أيسلندا | جون جنار | 112. القرصان الأيسلندي |
| الصين | مايكل ديلون | 113. مختصر تاريخ الصين |
| إسبانيا | خورخي كاربون | 114. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب |
| إيطاليا | جوفانا لوكاتيلي | 115. يوميات صحفية إيطالية |
| إيطاليا | ستيفانو مانكوسو | 116. الذكاء الأخير |
| البرتغال | إيسا دي كيروش | 117. خيالات الشرق |
| بلجيكا | دافيد فان ريبروك | 118. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية |
| التشيك | باتريك أورشادنيك | 119. أوروبا |
| التشيك | فاتسلاف هافل | 120. قوة المستضعفين |
| فرنسا | جي. إم. لو كلوزيو | 121. النشوة المادية |
| فرنسا | أنطوان لاريس | 122. لن أمنحك كراهيتي |
| كولومبيا | أوسكار بانتوخا | 123. جابو |
| البروج | ثور جوتاس | 124. الجري |
| هولندا | دوي درايسما | 125. عقول مريضة |
| هولندا | يوريس لوندريك | 126. اللعب مع الكبار |

يصدر قريباً: من سلسلة كتب مختلفة:

| | | |
|-----------|-------------------|-------------------------------|
| أمريكا | جيفري لويس | 127. بابلوت: قصة مدينة |
| ألمانيا | كريستوف بيتز | 128. سيلفي مع الشيخ |
| إيران | بهروز بوجاني | 129. لا صديق سوى الجبال |
| الأرجنتين | كلاوديا بينيرو | 130. شرح في الحائط |
| البرازيل | آنا ماريا ماتشادو | 131. شمس الحرية |
| تركيا | أسمهان أيكول | 132. طلاق على الطريقة التركية |
| سويسرا | لونا الموصلي | 133. جدتي وبريتني سيرز |
| المجر | أندريس فورجاش | 134. لم يبقَ أحد |
| المكسيك | أجيولار كامين | 135. يوم هنا ويوم هناك |
| مقدونيا | ديان ترايكوسكي | 136. روميو جوليت في البلقان |
| نيجيريا | أوينكان برايزوايت | 137. أختي فائلة متسلسلة |
| هولندا | إليا ليونارد | 138. لا سوبربا |



رواية عن الذين نجوا من الحرب في يوغوسلافيا لكنهم لم ينجوا من مصائرهم المأساوية

بعد أن تجمعت يوغوسلافيا على حلم الفوز بكأس العالم في عام 1990، حدث بعدها أن بدأت الانقسامات والانهييار وتفككت الدولة والأسر واستقلت كل مجموعة عرقية بدولتها. في هذه الرواية تدرك مدى الانهييار الذي تعرضت له يوغوسلافيا وأثره على شعبها، فمن متابعتك لرحلة بطلنا "فلادان" في البحث عن والده بين باولا (صربيا) وليوبليانا (سلوفينيا) وبرتشكو (البوسنة) لكرواتيا وفينا، تشاهد على خلفية الأحداث الصراعات العرقية والدينية التي يواجهها "فلادان" الصربي مع كل الأشخاص الذين يقابلهم من كروات وصرب وبوسنيين وغيرهم، وحتى مع أهله وتحديداً أمه السلوفينية. رواية عميقة ذات معاني كثيرة؛ عن معاناة الفرقة والعنف والفقدان، عن احتدام الشعوب الذين كانوا يعيشون تحت سقف دولة واحدة بعد الانقسام، عن المصير المشتت والماضي المشوش الذي يعيشه "فلادان"؛ "أهو أمر طبيعي أن تساعد مجرم حرب ليموت في سلام، حتى إن كان... والدك؟".

جوران فوينوفيتش



كاتب سيناريو وروائي ومخرج وشاعر. ولد في عام 1980 في مدينة "ليوبليانا" بسلوفينيا. درس في أكاديمية المسرح والإذاعة والسينما والتلفزيون. نشر مجموعته الشعرية الأولى "إنه عالم جميل" في عام 1998. اشتهر بروايته "ارحلوا يا حثالة الجنوب" في عام 2008 والتي كانت مشروع سيناريو فيلم ورفعت الشرطة السلوفينية دعوى قضائية عليها، ولكن سحبوا الدعوى بعد غضب الجمهور وتسليط وسائل الإعلام، نالت الرواية جائزة "بريشين" الأدبية وجائزة "كريسنيك" في عام 2009. نشر بعدها كتاب "عندما يلتقي جيمي شو فيدل كاسترو" في عام 2010 وهو عبارة عن مقتطفات من الجرائد، وبعدها روايتنا هذه "يوغوسلافيا.. أرض أبي" في عام 2011 والتي نالت أيضاً جائزة "كريسنيك" في عام 2013، ثم نُشرت له رواية "شجرة التين" في عام 2016 والتي ستصدر منها الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع.

